المخطوط العربي

مجلّة علميّة نصف سنويّة تُعنى بالمخطوطات وتحقيقها
وتاريخ العلوم عند العرب

العدد (٥) النصف الثاني ٢٠٢٢

تصدُرُ عن وزارة الثّقافة - الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب

كنوز وأسرار — ٢
الدكتورة لُبانة مشوّح وزيرة الثقافة

«كشف المشكلات» نَمَطٌ عالٍ فَرْدٌ مِنْ تحقيق النُّصوص — ٤
رئيس التحرير

كتب التراجم المصنفة على القرون — ٦
د. إبراهيم محمّد المحمود

كتاب كشف الظنون في دراسات المستشرقين — ٢٤
د. ساجد الخليف الصالح

الشبكات المائية في حدائق القصور العربية التاريخية — ٣٣
د. مها الشَّعَّار

ملابس الخلفاء في المخطوطات العربية حتى نهاية العهد الأموي — ٤٨
د. مها الشّعّار – أحمد المرطو

نهاية الإدراك في دراية الأفلاك لقطب الدّين الشّيرازيّ (ت ٧١٠ هـ) — ٦٩
د. مصطفى موالدي – أ. نجاح حاج إبراهيم

مِن سهو العلماء... سِهاءأبي منصورٍ الثّعالبيّ في اليتيمة مثالاً — ٩٨
د. محمّد قاسم

نظرةٌ في كتاب: «فِقْه اللُّغَة وسِرُّ العَرَبيَّة» لأبي منصورٍ الثّعالبيّ (ت٤٢٩هـ) — ١١٠
د. ليال سعيد أبو العزّ

نظرةٌ في كتابِ دُمْيَة القَصْرِ وعُصْرَةِ أهلِ العَصْرِ للبَاخرزيّ (ت ٤٦٧ هـ) — ١٢١
د. عبّاس مرهج فرج

الإقواء في الشعر العربي — ١٢٨
بيان الصفدي

التأصيل عند ابن فارس — ١٣٣
د. سكينة محمود موعد

تعدُّد روايات الأمثال في كتب الأمثال العربية القديمة — ١٤٢
د. نسرين أكرم عبيد

شاكر الفحّام... العالم المُحَقِّقُ الفَذُّ — ١٥٢
د. محمّد عطا موعد

آخر الكلام: مِن التّصحيف والتّحريف — ١٥٩
د. محمّد قاسم

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
نايف الياسين

رئيس التحرير
محمد قاسم

هيئة التحرير
مزيد إسماعيل نعيم
محمد شفيق البيطار
عبد الناصر عساف
إياد الطباع
هبة المالح

التدقيق اللّغوي
محمد قاسم
أمينة سر المجلة
ياسمين الناصر
الإشراف الطباعي
أنس الحسن
الإخراج الفني
عبد العزيز محمد

المراسلة باسم السيد رئيس التحرير
Emai: syrbook.dg@gmail.com

السعر : ٢٥٠٠ ل.س أو ما يعادلها

الدكتورة لُبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

كنوز وأسرار

احتفاءً بالعيد الرابع والستين لتأسيس وزارة الثقافة، وضمن الفعاليات التي نُظِّمت في إطار الاحتفال بأيام الثقافة السورية، أقامت مكتبة الأسد الوطنية مؤخراً معرضاً هو الأول من نوعه، وضعت فيه بين يدي الجمهور بعضاً من نفائس كنوزها من مخطوطات نادرة. وليس في ذلك غرابة، فمكتبة الأسد الوطنية لم تبخل بإقامة معارض تخصصية بين الفينة والأخرى تتيح فيها للجمهور من غير المختصين الاطلاع على بعض ما تختزنه من كنوز معرفية.

الجديد في الأمر أنّ المعرض أَفرِد في جزء كبير منه لعرض الحواشي التي تظهر في متن المخطوطات، والتقييدات على النصوص التي تظهر على ظهرية المخطوط، أي ورقته الأولى، وعلى غاشيته أو ما يعرف أيضاً بحرد المتن، أي آخر ورقة فيه.

من المعروف أن المحقق المتمكن يستطيع بوساطة خوارج النص، أي الورق الذي خُطَّ عليه والحبر الذي كتب به، والخط، والتجليد، أن يعرف تاريخ كتابة النص ومكان كتابته؛ أمّا التقييدات التي ترد على ظهرية النص وغاشيته، فإنها تتيح كشف أسرار أخرى لا تقل أهمية عمّا سبق. إذ يمكن بتفحصها تتبّع تاريخ ملكية المخطوط والرحلة التي قطعها بين قارئ ومالك ومطالع، فضلاً عن إمكانية العثور فيها على ما يدل على اسم صاحب المخطوط أو عنوان المخطوط.

لا شك أن تتبّع تملّك المخطوط أمر في غاية الأهمية في عملية التوثيق، لكنّ إمعان النظر في تلك التقييدات يجعل القارئ يبحر في عوالم أخرى تخرجه من حدود مادة النص الضيقة على اتساعها، ومن أغراض التحقيق نفسها، لتفصله وإن لبرهة عن المؤلف أو الناسخ، وتعبر به إلى ضفاف أرحب يتعرّف فيها ما أحاط بالمخطوط من ظروف، وما تداولته من أيدٍ، وإذا كان آخرون لامسوا المخطوط تصفّحاً، أو قرؤوه، أو تملّكوه، أو باعوه أو اشتروه في سوق الورّاقين، أو ورثوه واحتفظوا به؛ أو لعلّ المخطوط كان محفوظاً في خزائن سلطان أو ملك أو أمير، أو أنّ من نسَخه إنما كان عالماً أو طالب علم...

التقييدات عالم قائم بذاته، يغوص الباحث في لجّه، يستخرج منه من اللآلئ ما لم يكن في حسبانه؛ عالم أرحب من المخطوط نفسه، يفتح أمام الباحث آفاقاً من نوع آخر. وتبقى المخطوطات صناديق مغلقة تنتظر من يكشف كنوزها.

«كشف المشكلات» نَمَطٌ عالٍ فَرْدٌ مِنْ تحقيق النُّصوص

رئيس التحرير

«**كشف المُشْكلات** وإيْضاح المُعضلات» لجامع العلوم أَبي الحسن عليِّ بْنِ الحُسين الأَصبهانيِّ الباقوليّ المتوفَّى سنة ٥٤٢ هـ أَثَرٌ غالٍ نفيسٌ من آثار الجامع التي سلمتْ من عوادي الدّهر وغواشيه، وهو مُصَنَّفٌ في معاني القرآن، وإعرابه، والحِجَاج لقراءاته وذِكْر عِلَلها، وهي فنونٌ مُتَجَاذِبَةٌ مُتَقَاوِدَةٌ يَفْضي بعضُها إلى بعضٍ، وفَنُّ الحِجَاج أشدُّها جَذْبًا له.

وجامع العلوم إمامٌ في علْم العربيّة أَوْفَى فيه على الغاية؛ قال أبو الحسن البيهقيُّ (ت ٥٦٥ هـ) في كتابه «وشاح دُمية القصر» فيه: «هو في النَّحو والإعراب كعبةٌ لها أَفاضلُ العصر سَدَنَةٌ، وللفَضْل فيه بعد خفائِه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، وقال الطَّبَرْسِيُّ عَصْرِيُّهُ (ت ٥٤٨ هـ) في «مَجْمَع البيان» فيه أيضًا: «هو واحدُ زماننا في هذا الفنِّ» اهـ

وما قولُك في رَجُلٍ تَتَبَّعَ آثار أبي علي الفارسيّ (ت ٣٧٧ هـ)، وأحاط بها، و أجال بصره فيها كَرَّتَيْن، يُعينُه في ذلك ذاكرةٌ وقَّادةٌ ويقظةٌ وجرأةٌ ونباهةٌ وسعةُ اطّلاع على مصادر العربيّة حتّى كان له أَنْ يستدرك عليه، ويجمعَ أشتاتَ كلامه على المسألة الواحدة، ويعارض بعضَ كلامه ببعض، حتَّى يمتخض زبدة رأيه في المسألة وما هو مظنونٌ أَنَّهُ رَأْيُهُ الذي استقرَّ عليه، وأَنِسَتْ نفسُه به، وهو عظيم الإجلال لأبي عليٍّ لا يكاد يُدير بصره عن آثاره، ولا ينبزُه إلّا بالفارس أو فارسهم أو فارس الصِّناعة.

وممَّا قاله فيه: «لولا أبو عليّ لما فُهم كتاب سيبويه»، و مثله «لا يُوْلَدُ مِنْ بَعْدُ»، وهو «بعيدُ الغَوْر»، و«هذه دُرَرٌ أخرجها فارسُهم مِنْ صَدَفِ الكتاب، فمنحناها إيَّاكَ، ففصلناها ونظمناها، والفارسُ قد فَرَّقَ فيها الكلامَ في مواضعَ»، و«كلُّه مبسوطُ كلام فارسهم»، و«ما حوى كلامُنا إلَّا شَرْحَ كلام أبي عليٍّ» اهـ

ثمّ كان مِن صُنْعِ اللّه وتوفيقه أَنْ يكون تحقيق «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات» لجامع العلوم ودراسته موضوع رسالة أستاذي الجليل فارس التَّحقيق حقًّا ليس له من جاحد الدكتور محمَّد أحمد الدَّالي – رحمه اللّه رحمةً واسعةً سابغةً – التي تقدّم بها لنيل درجة الدكتوراه في علوم اللُّغة العربيَّة في جامعة دمشق، وانقطع للعمل فيها خمس سنين من عام ١٩٨٣م إلى عام ١٩٨٧م، ومُنِحَ الدّرجة بمرتبة الشَّرف.

ثمّ طُبع «الكشف» مع مقدّمة موجزة في الجامع وآثاره في مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق سنة ١٩٩٥م، وكان أستاذي قد أخرجه عن ثلاث نسخ خطّيّة عتاق.

ولمَّا كان – رحمه اللّه – لا يفتأُ يُعاودُ النَّظر فيما كتب وحقَّق وعلَّق، ولا ني يتتبّعُ أخبار ما يُكشف من أصول في خزائن المخطوطات المتناثرة في بُلْدان العالم حتّى وقف على ستّ نُسخ جديدة من الكشف = صَحّ منه العَزْمُ على إخراجةٍ ثانيةٍ

للكتاب يُخْرجُها عن أصوله التسعة، ويُثري تحقيقاتِه وتعاليقَهُ بما ظهر من عيون النُّصوص بعد مضيّ نحو خمسة وعشرين عامًا على الإخراجة المجمعيَّة الأُولى.

ومن عراض النُّسخ الجديدة بما كان وقف عليه قَبْلًا اجتمعتْ زياداتٌ جَعَلَها في مواضعها من الكتاب، وقد تكونُ الزيادةُ ألفاظًا، أَوْ سطرًا، أَوْ أكثر، حتَّى بلغتْ عِدَّةُ الزِّيادات نحوَ مئةٍ وخمسةٍ وثلاثينَ موضعًا جَعَلَتِ الإخراجةَ الثَّانيةَ أَتَمَّ وأَوْفَى وأَغْنَى.

خَدَمَ الدكتور الدّالي نصّ جامع العلوم خدمةً لو رآها الجامعُ لسُرَّ بها، وتطلَّق للدكتور الدَّالي بِشْرًا وحُبُورًا وقال له: حيَّهلا بعالم فَذٍّ قد أخطأه الزَّمان، فعاش في غير عصره!

نَسَخَ الدكتور الدّالي الكشف وضَبَطَهُ، وفَقَّرَهُ، ورَقَّمَهُ، وأَدَّاهُ على معانيه، وحرّره من شوائب التصحيف والتحريف والسّقط، وربط بعض الكتاب ببعض وبكتَابَي المؤلِّف الباقوليّ «جواهر القرآن ونتائج الصَّنْعة»، و«شرح اللُّمع» رَبْطًا إلى الإحكام ما هو، ثمّ قابل الكتاب بما وَقَفَ عليه من المصادر المُصَنَّفَة في علْم من العلوم الّتي اشتمل عليها الكتاب، ككتب العربية والتَّفسير ومعاني القرآن وأعاريبه والقراءات واللُّغة والوقف والابتداء والسِّيرة والضَّرائر ودواوين الشُّعراء وكتب الاختيار والفقه، وعلَّقَ منها جميعًا ما رأى في تعليقه فائدةً.

وخَرَّجَ كلَّ ما وقع في نصّ الرّجل من الآي والقراءات والأحاديث والأمثال والأشعار والأرجاز واللُّغة.

وعُنِيَ العنايةَ كلَّها بالإحالة في بَسْط ما ذكره جامعُ العلوم أَوْ أَلَمَّ بذكره من مسائل علم العربيّة على مواضعه من أُمَّهات كتب هذا العلْم، وحَرَّرَ المسائل، ونصّ على مذاهب أصحابها، حتَّى بَدَتْ بعضُ حواشيه مَبَاحِثَ مُفْرَدَةً في بعض أبواب العربيَّة، كمذهب الأخفش في زيادة «من» في الإيجاب، ومجيء الجملة فاعلاً، ولغة «أكلوني البراغيث»، حتى قال بعض مَنْ تَأَمَّلَ هذه الحواشيَ: إنَّها بحوثٌ مُفْرَدَةٌ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُطْبَعَ مجرَّدَةً عن المتن على أَنَّها مسائل مُحَرَّرَةٌ حُشِدَتْ فيها الأقوالُ، وعُورِضَتْ، ونُوقشت، وانْتُهِيَ فيها إلى القَوْلِ الرَّاجح والمذهب السَّديد.

ثُمَّ صنع للكتاب الفهارس الفنّيّة الشّاملة الّتي تكشفُ خَبْأَه وتُفَجِّرُ ماءَه، وتجعل الطريقَ إليه لاحبةً مطمئنّةً.

ثمّ أطلَّ علينا الكتاب في حُلَّة أَنيقة بديعة تَسُرُّ النَّاظرين، وصَدَرَ في أربعة أسفارٍ ضِخَام عن دار القلم بدمشق ٢٠٢٢م، وكان تُحْفَةً في جمال الإخْرَاج وفراهة الطَّبْع الّتي تليق بما في أحشاء الكتاب من علم غزيرٍ وماءٍ نمير.

لم يُخْدَمْ كتابٌ في إعراب القرآن الخِدْمَةَ الّتي نَعِمَ بها «كشف المشكلات» على يَدَيْ أُستاذي الرَّاحل شيخ المحقِّقين، وقد كان تحقيقُهُ هذا منارةً اهتدى بها كلُّ مَنِ اشتغل بتحقيق أعاريب القرآن في جامعة دمشق أَوْ غيرها من الجامعات العربيَّة، وصاحب هذه الكلمات من أوائل مَنِ اتّخذوا الكشف خِدْنًا ناصحًا لا يتفوَّه إلَّا بالعلْم، ولا يُغْري إلّا به، وكم مِنْ حاشية من حواشيه الجياد التي تُلْحِقُهُ برجال الصَّدْرِ الأَوَّلِ أَفَدْتُ منها، فدلّتني على موارد المسألة، وعلّمتني أنماط النَّظر والتحقيق وتتبُّع المخارج وعراض المنقول بالأُصُول إلى أَنْ يستحصد الرَّأْيُ ويختمر.

رحم الله شيخي أبا أحمد كَمْ تَعَلَّمْتُ منه، وكَمْ مِنْ فَضْلٍ طارف وتليد أَسْبَغَهُ عليَّ، وصنعني على عينه، وحَسْبُهُ أَنَّهُ أَشْعَرَ قلبي حُبَّ هذا اللِّسان والغيرةَ عليه، وأَنَّ تحقيقَ نصوصه وبَعْثَها رسالةٌ وأمانةٌ وموقفٌ حضاريٌّ لا يخدشُهُ ولا يَغُضُّ منه صيحاتُ أحلاس المقاهي الذين يُؤَرِّقُهم أَنْ يَتَبَلَّجَ النُّور، فيُبَدِّدَ عليهم ظُلُمَاتهم التي هم فيها يعمهون.

رَحِمَ الله شيخ أفذاذ المحقِّقين رحمةً واسعةً جزاء ما قَدَّمَ للغة أُمَّتِه من أيادٍ بيضٍ، وصنائعَ سوابغَ يَعْرِفُها أُولو الفضل:

ولا زال رَيْحَانٌ ومِسْكٌ وعَنْبَرٌ ... على منتهاهُ دِيْمَةٌ ثُمَّ هَاطِلُ

كتب التراجم المصنَّفة على القرون

د. إبراهيم محمَّد المحمود*

كُليمة عن كتب التَّراجم

تنوّعت حركة التصنيف في التراث العربي تنوعًا غطّى علوم هذا التراث وفنونه. والذين يتعرضون لتحقيق النصوص، ويشتغلون في إخراجها إلى النور على الوجه الذي يرتضيه أهل الصنعة؛ لا بدّ أنهم يحتاجون إلى مصادر تكون معوانًا لنصوصهم، ودليلًا لها، وخادمًا لما غمض منها وأبهم، وحديقة خلفية لمن أراد من القراء زادًا معرفيًا يكون رافدًا قويًا لما يقرؤون.

فلا يستغني المحقق اليوم في إخراج نصه عن كتب التفسير والحديث وعلومه والفقه وأصوله والمعاجم اللغوية والمصطلحات والبلدان والتراجم وغير ذلك من مصادر المكتبة العربية لتكون هاديًا أمينًا له في قراءة نصّه وخدمته ووضعه في سياقه المنشود.

* باحث في شؤون التُّراث وتحقيق النُّصوص.

وكتب التراجم التي تمثل ركنًا أساسيًا من التراث التاريخي لهذه الأمة تتنوع أيضًا، وتتفرع بحسب كل فنّ، فالمصادر التي تعنى بترجمة الرجال تنوعت في مناهجها، فثمة كتب عُنيت بالسيرة النبوية[٢]، وأخرى ترجمت للصحابة والتابعين[٣]، وثالثة تناولت الرجال بحسب فنونهم، فالأدباء والشعراء لهم مصادرهم[٤]، وكذلك النحاة وأهل اللغة[٥]، وثمة كتب أفردت للقراء[٦] والمفسرين[٧] والمحدّثين[٨] والفقهاء، بل إن الفقهاء كانت لهم كتب مستقلة بحسب مذاهب كل منهم، فالشافعية[٩] لهم كتبهم التي ترجمت لهم، وكذلك الحنفية[١٠] والحنابلة[١١] والمالكية[١٢]، أو بحسب مللهم ونحلهم وطوائفهم، كالصوفية[١٣] والشيعة[١٤] والمعتزلة[١٥]، أو بحسب مهنهم ومناصبهم كالأطباء[١٦]، والخلفاء[١٧]، والوزراء[١٨]، والقضاة[١٩]، أو بحسب بلدانهم وأصقاعهم[٢٠]، وغير ذلك كثير مما لا يتسع المقام لذكر تفاصيله، هذا كله فضلًا عن كتب التراجم العامة التي اتسمت بالشمولية إن صح التعبير، فترجمت للخلفاء، والملوك، والسلاطين، والقضاة، والوزراء، والمحدّثين، والفقهاء، والأدباء، والأطباء، واللُّغويين، والنحاة، والشعراء، وأرباب الملل والنحل، والمتكلمين، والفلاسفة، وغير أولئك. ولعل أشهر هذه الكتب كتاب (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، والوافي بالوفيات للصفديِّ (ت ٧٦٤ هـ).

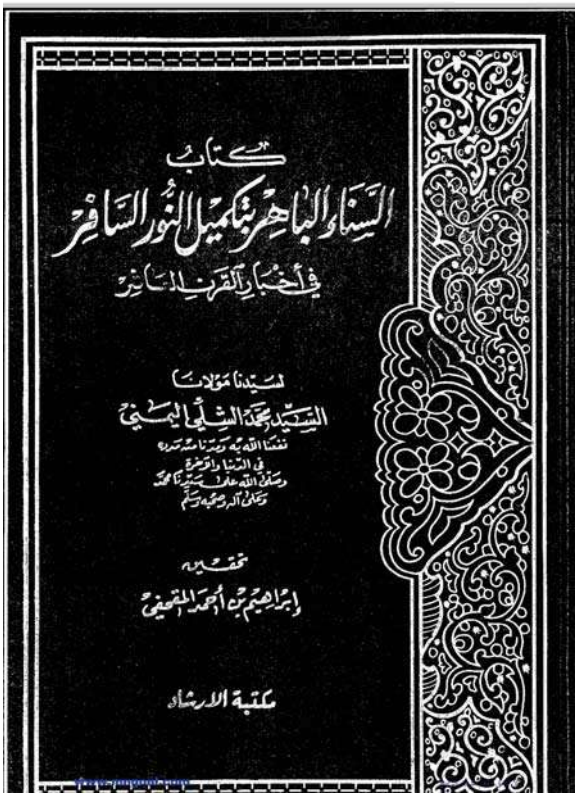

٢- من تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: كتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨هـ)، والروض الأنف للسهيلي (ت ٥٨١هـ).

٣- منها: الطبقات الكبرى لابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٨٥٢هـ).

٤- منها: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ).

٥- منها: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (ت ٦٤٦هـ)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (ت ٩١١هـ).

٦- منها: معرفة القراء الكبار للذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وغاية النهاية لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ).

٧- منها: طبقات المفسرين للسيوطي (ت ٩١١هـ)، وللداودي (ت ٩٤٥هـ).

٨- منها: التاريخ الكبير للبخاري (ت ٢٥٦هـ)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (ت ٧٤٨هـ).

٩- منها: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ت ٧٧١هـ).

١٠- منها: الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي (ت ١٠١٠هـ).

١١- منها: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (ت ٥٢٦هـ).

١٢- منها: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ).

١٣- منها: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ).

١٤- منها: أعيان الشيعة للأمين العاملي (ت ١٣٧١هـ).

١٥- منها: طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ).

١٦- منها: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة (ت ٦٦٨هـ).

١٧- منها: تاريخ الخلفاء للسيوطي (ت ٩١١هـ).

١٨- منها: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية للحكمي (ت ٥٦٩هـ).

١٩- منها: رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (ت ٨٥٢هـ).

٢٠- منها: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ)، وغير ذلك كثير.

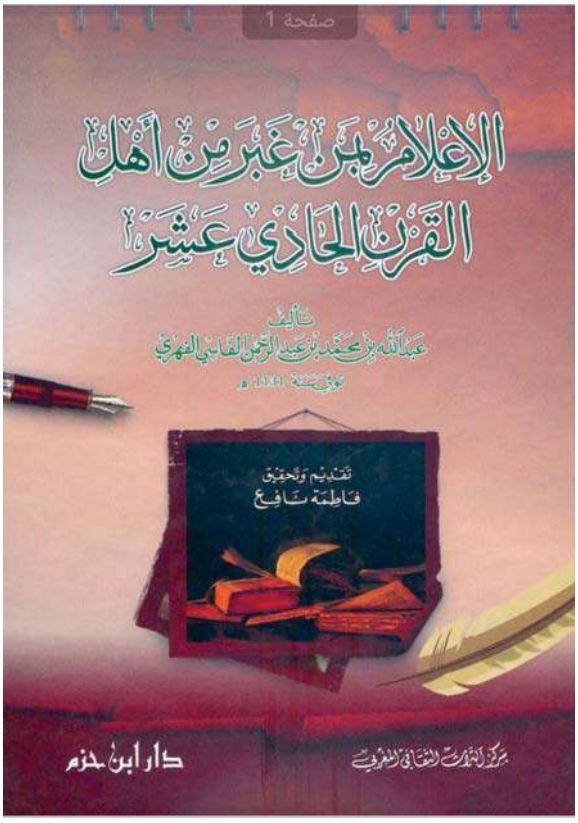

على أن التخصص في كتب التراجم لا ينفي الإشارة إلى أخبار ومعارف ونوادر ووقائع لا تتوقع أن تجدها فيها، فلا يغني كتاب عن كتاب، وقد ذكر الطناحي رحمه الله أنه «**مع الإقرار بنظرية التخصص، وانفراد كل فن من فنون التراث بطائفة من الكتب والمصنفات، قلّ أن تجد كتابًا من هذه الكتب مقتصرًا على الفن الذي يعالجه دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى بدواعي الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدي لا محالة إلى أن تجد الشيء في غير مظانه**»[٢١].

واللون المستهدف من كتب التراجم في هذا المقال هو كتب التراجم المصنفة على القرون. ومن أهمها:

١-الذيل على الروضتين.

٢-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

٣-الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.

٤-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

٥-النور السافر عن أخبار القرن العاشر.

٦-الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة.

٧-خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

٨-نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.

٩-الإعلام بمن غَبَر من أهل القرن الحادي عشر.

١٠- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.

١١- الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر.

١٢- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر.

١٣- المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر.

١٤- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر.

١٥- الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية.

هذا، وسيأتي الكلام مفصَّلًا على هذه الكتب، مع عرض مناهج أصحابها، وذكر طبعاتها، والإشارة إلى ما اتصل بها من كتب سارت على نظامها أو تولّدت عنها.

١- **الذيل على الروضتين**: للحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، المعروف بأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ).

والكتاب كما أثبت على صفحة الغلاف يشمل (**تراجم رجال القرنين السادس والسابع**)، وقد اعتنى بنشره السيد عزت العطار الحسيني، ونشرته دار الجيل في بيروت سنة ١٩٤٧م، وأعادت نشره سنة ١٩٧٤م.

وقد جعله أبو شامة ذيلًا وصلة لكتابه (الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية) الذي يتضح مضمونه من عنوانه، فهو يؤرخ للأحداث الواقعة في زمن الدولتين النُّوريَّة والصَّلاحيَّة، وتنتهي سنة ٥٨٩هـ، وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين الأيوبي. وقد ذكر ذلك أبو شامة في مقدمة الذيل، وقال أيضًا: «**ثم خطر لي أن أجمع كتابًا يتضمن كثيرًا من**

٢١- الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، ص ٣٦.

الحوادث بعد ذلك إلى آخر ما تدركه حياتي..... فاستخرت الله، وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها ما فاتني ذكره في كتاب (الروضتين) سنة بعد سنة»[٢٢]. ولم يذكر أبو شامة في مقدمته المقتضبة منهجه في تراجم أعلام هذين القرنين، واكتفى بذكر السبب الذي حمله على تأليف الذيل، وتحديد المدة الزمنية التي يغطّيها كتابه؛ إذ قال: «**وكان فيما حملني على ذلك كثرة موت المعارف.... وسمّيته كتاب الذيل على الروضتين من أول سنة تسعين على ترتيب السنين**»[٢٣]. فقد جعل أبو شامة المقدسي كتابه مرتبًا على السنوات، فكان يذكر ما يجري من أحداث ووقائع خلال السنة التي يحددها رأسًا لكل فقرة من الكتاب، ثم يعدّد من توفي من الأعلام مع ذكر أطراف من أخبارهم بإيجاز شديد.

وقد كانت سنة ٦٦٥هـ آخر سنة سجّل المؤلف حوادثها في هذا الكتاب، فقد ذكر في هذه السنة وصول الظاهر بيبرس مع عساكره من مصر إلى الشام[٢٤]، ومنازلته الفرنج... ثم سرد أسماء الذين وافتهم المنية، مثل محمد بن البكري، وملكشاه الحنفي، وعلي الواسطي. وهذه السنة هي التي تُوُفِّيَ فيها[٢٥] أبو شامة المقدسي رحمه الله.

٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت ١٢٥٠هـ).

وقد نشر قديمًا بمطبعة السعادة في مصر سنة ١٣٤٨هـ. ومن الدور التي طبعت الكتاب: دار الكتاب الإسلامي في القاهرة، ودار المعرفة في بيروت، ودار ابن كثير في دمشق بتحقيق محمد حسن حلاق، ودار الفكر بدمشق بتحقيق د. حسين بن عبد الله العمري، ولعلها أفضل طبعات الكتاب.

وقد ذكر الشوكاني في مقدمة كتابه أن الذي حمله على التأليف «**تعذر وجود مجتهد بعد المئة السادسة كما نقل عن البعض، أو بعد المئة السابعة كما زعمه آخرون. وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظٍّ من علم، وأنزر نصيب من عرفان، وأحقر حِصّة من فَهْم ... حَدَاني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا؛ ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله، وله المنة، قد تفضل**

٢٢- الذيل على الروضتين، ص ٥.

٢٣- الذيل على الروضتين، ص ٥.

٢٤- الذيل على الروضتين، ص ٢٣٨.

٢٥- ذكر الصفدي في الوافي بالوفيات ١٨ / ٦٨ أن وفاة أبي شامة كانت بعد أن «دخل عليه اثنان... في صورة فُتيا، فضرباه ضربًا مبرحًا كاد يتلف منه، ولم يدرِ به أحدٌ ولا أغاثه».

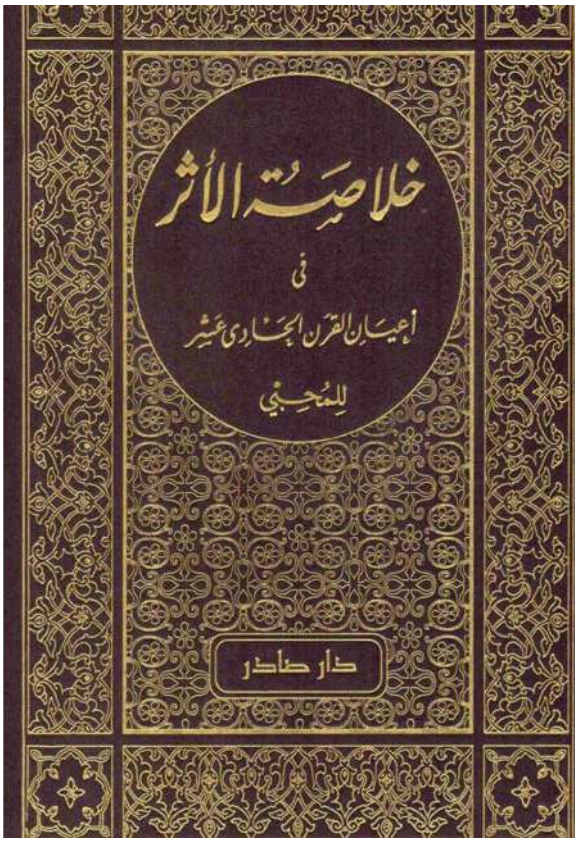

على الخلف كما تفضل على السلف، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقلّ نظيره من أهل العصور ...»[٢٦].

وقد أفرد الشوكاني كتابه لترجمة أعلام القرن الثامن من أهل العلم والخلفاء والملوك والأدباء والمجتهدين إلى زمن وفاته، وقد ذكرهم مرتبين على حروف المعجم، وبلغت تراجمه ٥٩٨ ترجمة. وقد أجمل ذكر من ترجم له في كتابه؛ إذ قال: «**فالحاصل أن المذكورين في هذا الكتاب هم أعيان الأعيان، وأكابر أبناء الزمان، من أهل القرن الثامن ومن بعدهم إلى الآن، وربما أذكر من أهل عصري ممن أخذت عنه أو أخذ عني، أو رافقني في الطلب، أو كاتبني أو كاتبته ممّن لم يكن بالمحل المتقدم ذكره؛ لِما جُبل عليه الإنسان من محبة أبناء عصره ومِصْره، وربما أذكر من أهل عصري من لم يجرِ بيني وبينه شيء من ذلك**»[٢٧].

وقد حرص الشوكاني في تراجمه على ذكر سنتي الولادة والوفاة إلا أنه أغفل ذلك في مواضع ليست بالكثيرة. وقد وسّع دائرة ترجماته لتشمل ما قصّرت عن استيعابه كتب التراجم كما ذكر الشوكاني في إحدى ترجماته منتقدًا إعراض الحافظ ابن حجر في (الدرر الكامنة) والسخاوي في (الضوء اللامع) عن كثير من مشاهير الروم؛ إذ قال: «**وقد أهمل الحافظ ابن حجر ذكر ملوك الروم في (الدرر الكامنة في أهل المئة الثامنة)، فلم يذكر من كان فيها منهم، وكذلك السخاوي أهمل بعضًا ممن كان منهم في المئة التاسعة، وذكر بعضًا. وهذا عجيب؛ فإنهما يترجمان لجماعة من أهل سائر الديار هم معدودون من أحقر مماليك سلاطين الروم، مع أنهما يترجمان لكثير من صغار الملوك والأمراء الكائنين بالأندلس واليمن والهند وسائر الديار، وهكذا أهملا غالب علماء الروم، ولم يذكرا إلا شيئًا يسيرًا منهم مع أنهما يترجمان لمن هو أبعد منهم دارًا، وأحقر قَدْرًا، فالله أعلم بالسبب المقتضي لذلك. وقد ذكرنا في هذا الكتاب كثيرًا ممن أهملاه**»[٢٨].

هذا وللبدر الطالع ذيل ألّفه محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليمني الصنعاني (ت ١٣٨١هـ)، سمّاه مؤلفه (الملحق التابع للبدر الطالع)، واستدرك فيه كما ذكر[٢٩] ٤٤٠ علمًا من أعلام اليمن الذين لم يترجمهم الشوكاني في (البدر الطالع). وقال في مقدمة (الملحق) المطبوع في ذيل (الضوء): «**ولم أتكفل بذكر**

٢٦- البدر الطالع ١ / ٢-٣.

٢٧- البدر الطالع ١ / ٢-٣.

٢٨- البدر الطالع ٢ / ٣٠٢.

٢٩- البدر الطالع ٢ / ٢.

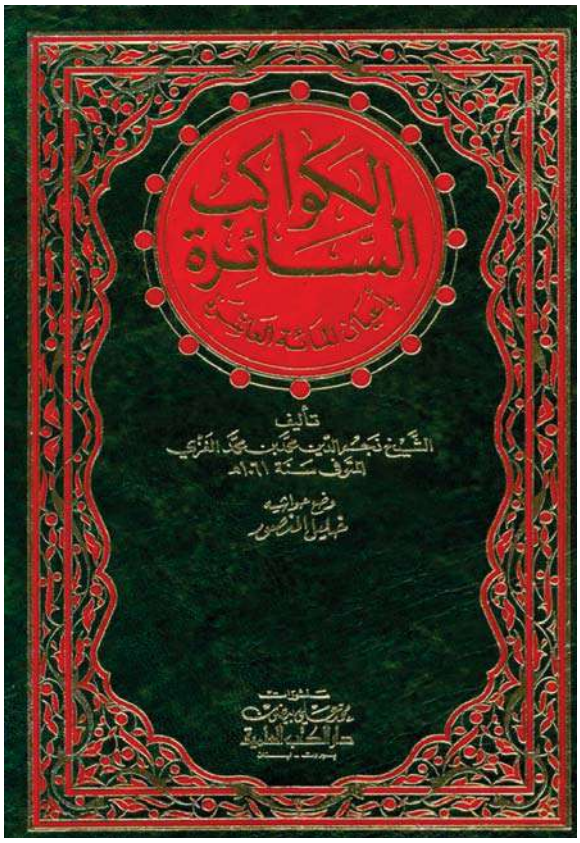

كلّ أو جلّ المشاهير الذين لم يترجمهم الشوكاني رحمه الله ممن كَمَلَ فيهم شرطه، ولا أثبت في هذه النُّبْذة تراجم الرجال الذين ذكروا في (نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر)، بل اقتصرت على إثبات بعض ما عثرت عليه من تراجم من بعد القرن السابع إلى أثناء القرن الثاني عشر من رجال اليمن الميمون بحسب الإمكان، مع اشتغال البال بذكر الأهل والوطن، شأن كل غريب نازح عن بلاده، ومفارق لإلفه ومسقط رأسه وأولاده»[٣٠].

يشار إلى أنّ كتاب (نيل الوطر) المذكور في المقدمة السالفة هو للمؤلف نفسه؛ ألَّفه في تراجم نحو ٥٥٠ من أعيان اليمن في القرن الثالث عشر الهجري، ونشره مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في صنعاء، ودار الكتب العلمية في بيروت ١٩٩٨م.

٣٠- البدر الطالع ٢ / ٣.

٣- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).

طبعته: دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد عام ١٣٩٢هـ، بعناية محمد عبد المعيد خان، ودار الكتب الحديثة في القاهرة عام ١٩٦٦م، بتحقيق محمد سيد جاد الحق، ودار الجيل في بيروت عام ١٩٩٣م.

هذا وللدرر الكامنة ذيل مطبوع في مجلد واحد بتحقيق د. عدنان درويش في معهد المخطوطات العربية عام ١٩٩٢م.

وقد أثبت ابن حجر تراجم أعلام القرن الثامن من العلماء والخلفاء والملوك والأدباء والشعراء مرتبين على حروف المعجم من سنة ٧٠١ إلى سنة ٨٠٠ للهجرة، وقد نصّ على ذلك في مقدمته فقال: إنه جمع في كتابه «**تراجم من كان في المئة الثامنة من الهجرة النبوية من ابتداء سنة إحدى وسبعمئة إلى آخر سنة ثمانمئة من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء**»[٣١].

ثم ذكر ابن حجر سبب اعتنائه برواة الحديث، فقال: «**وعنيت برواة الحديث النبوي، فذكرت من اطلعت على حاله، وأشرت إلى بعض مروياته؛ إذ الكثير منهم شيوخ شيوخي، وبعضهم أدركته ولم ألقَه، وبعضهم لقيته ولم أسمع منه، وبعضهم سمعت منه**»[٣٢].

وقد سمّى في مقدمته المصادر التي استقى منها تراجمه، كأعيان العصر للصفدي، وذيل سير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ غرناطة للسان الدين بن الخطيب، وغير ذلك كثير.

وقد بلغ عدد التراجم في كتاب الدرر (٢٦٩٠)

٣١- الدرر الكامنة ١ / ٢.

٣٢- الدرر الكامنة ١ / ٢-٣.

ترجمة سردها ابن حجر مرتبة على حروف المعجم مبتدئًا بمن اسمه (إبراهيم) تبركًا به كما ذكر؛ لأنه لم يجد من الفقهاء أحدًا يبدأ اسمه بالهمزة الممدودة؛ بل وجد أسماء «**مثل (آقش) من الأتراك ونحوهم، و(آمنة) من النساء، وغير ذلك، فجعلت (آقش) من (أق)، وآمنة في (أم)، ونحو ذلك**»[٣٣].

وقد حرص ابن حجر على ذكر معلومات الشخصية المترجمة (إن توافرت): الاسم والنسب، وسنة الولادة ومكانها، والشيوخ والطلاب والأعمال، وسنة الوفاة، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وكل ذلك بإيجاز قد يصل إلى سطر واحد في بعض التراجم.

٤- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: لشمس الدين السخاوي أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت ٩٠٢هـ).

وقد صدرت أقدم طبعات (الضوء اللامع) عن مكتبة القدسي في القاهرة سنة ١٣٥٥هـ، وصورتها من بعدُ: دار مكتبة الحياة في بيروت سنة ١٩٩١م، ودار الجيل في بيروت سنة ١٩٩٢م.

من أوسع كتب التراجم المصنفة على القرون؛ إذ بلغ عدد تراجمه (١١٣٧١) ترجمة. وقد سار على منهج شيخه ابن حجر في (الدرر الكامنة)؛ إذ رتب كتابه على حروف المعجم الترتيب المعهود، وقد اشتملت ترجماته على «**العلماء والقضاة والصُّلحاء والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء، مصريًا كان أو شاميًا، حجازيًا أو يمنيًا، روميًا أو هنديًا، مشرقيًا أو مغربيًا، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضلٍ ونحوه من أهل الذمة**»[٣٤] ممن كان في القرن التاسع بدءًا من عام ٨٠١ هـ، وتوفي في هذا القرن، أو تأخرت وفاته إلى القرن العاشر، بل إن السخاوي ترجم لنفسه ترجمة مطولة[٣٥]. وقد خصص جزءًا كاملًا للكنى، وجزءًا آخر للنساء بلغت تراجم النساء فيه (١٠٧٥) ترجمة.

وصرح السخاوي في مقدمته بمصادر كتابه وشيوخه الذين نقل عنهم مادته، مع الميل إلى الإيجاز في كثير من مواضع الكتاب، والتزام التحري والدقة والاعتدال فيه.

على أن السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) لم يسلم من النقد، وممن تعقبه السيوطيُّ في كتابه (الكاوي في تاريخ السخاوي)، والشوكانيُّ في مواضع من كتابه (البدر الطَّالع)، وقد سلف كلام الشوكاني فيه قبل قليل. ومما أخذه الشوكانيُّ على السخاويِّ منهجه في ترجمة معاصريه؛ فقال في ترجمة سبط

٣٣- الدرر الكامنة ١ / ٤.

٣٤- الضوء اللامع ١ / ٥.

٣٥- الضوء اللامع ٨ / ٢.

الحافظ ابن حجر: «**وأما السخاوي في (الضوء اللامع) فجرى على قاعدته المألوفة في معاصريه وأقرانه، فترجم صاحب الترجمة بما هو محض السباب والانتقاض، لا لسبب يوجب ذلك بل لمجرد كونه كان يعترض على جده الحافظ ابن حجر، أو يغلط في بعض الأحوال كما هو شأن البشر**»[٣٦].

ولم يحمل هذا النقدُ الشوكانيَّ على الغض من قدر رجل بقيمة السخاوي، بل إنه امتدحه، وأثنى على صنيعه ومنهجه في كتابه (الضوء)، فلو لم يكن له «**من التصانيف إلا (الضوء اللامع)؛ لكان أعظم دليل على إمامته، فإنه ترجم فيه أهل الديار الإسلامية، وسرد في ترجمة كل أحد: محفوظاته، ومقروءاته، وشيوخه، ومصنفاته، وأحواله، ومولده ووفاته، على نمط حسن، وأسلوب لطيف ينبهر له من لديه معرفة بهذا الشأن، ويتعجب من إحاطته بذلك وسعة دائرته في الاطلاع على أحوال الناس.. ومن قرن هذا الكتاب الذي جعله صاحب الترجمة لأهل القرن التاسع بـ(الدرر الكامنة) لشيخه ابن حجر في أهل المئة الثامنة؛ عرف فضل مصنف صاحب الترجمة على مصنف شيخه، بل وجد بينهما من التفاوت ما بين الثرى والثريا**»[٣٧].

وعذر ابن حجر أنه لم يعش من المئة الثامنة كما عاش السخاوي من المئة التاسعة وقد امتد به العمر ليعيش قليلاً في غرة القرن العاشر، فيذكر بعض من امتدت حياته من الأعلام إلى هذا القرن.

وللسخاوي كتاب آخر في التراجم المصنفة على القرون ذكره في ترجمته لنفسه في (الضوء اللامع)؛ اسمه: (**الشافي من الألم في وَفَيَات الأُمم**)، وهو كتاب أفرده للوفيات في القرنين الثامن والتاسع.

تراجم رجال القرنين
السادس والسابع
المعروف بالذيل على الروضتين
للفقيه المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل
المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي
المتوفى ٦٦٥هـ
عرف الكتاب، وترجم للمؤلف، وصححه
مولانا الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة
محمد زاهد بن الحسن الكوثري
وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً
عني بنشره، وراجع أصله، ووقف على طبعه
السيد عزت العطار الحسيني
مؤسس ومدير مكتب نشر الثقافة الإسلامية
بمساعدة حضرة صاحب العزة الأستاذ أيمن
ووضع على النسخة الفوتوغرافية المحفوظة
بدار الكتب الملكية بالقاهرة
دار الجيل
بيروت

٥- النور السافر عن أخبار القرن العاشر: محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (ت ١٠٣٨هـ).

طبع الكتاب في بغداد سنة ١٩٣٤م، بعناية محمد رشيد الصفار، وصدر عن دار صادر في بيروت، بتحقيق: أحمد حالو، ومحمود الأرناؤوط، وأكرم البوشي، سنة ٢٠٠١م.

وقد نص العيدروس على منهجه وصنيعه في كتابه؛ إذ ذكر فيه وفيات من ظفر بتاريخ وفاته «**ممن مات في هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وتسعمئة؛ من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان، مصريًا كان أو شاميًا، حجازيًا كان أو يمنيًا، روميًا أو هنديًا، مشرقيًا أو مغربيًا، وضممت إلى ذلك ذكر بعض الحوادث والمجريات والحكايات العجيبة والملح الغريبة، ولا يعدم كل**

٣٦- البدر الطالع ٢ / ٣٥٥.
٣٧- البدر الطالع ٢ / ١٨٦.

السفر الأول

الدرر الكامنة

في أعيان المائة الثامنة

تأليف

شيخ الإسلام حافظ العصر شهاب الدين أحمد
بن علي بن محمد ابن محمد بن علي بن
أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني
المتوفى سنة (٨٥٢) تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح جنته
آمين

شخص من نادرة جرت له من الأخبار، وشعر نظمه من الأشعار على وجه الاختصار، وما يحصل من الاعتبار... هذا ولم أستوعب كل ما وقع في هذا القرن من الحوادث؛ لعدم اطلاعي عليها، وإنما ذكرت ما انتهى إليه علمي منها... وأرجو أن يكون هذا الكتاب كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب»[٣٨].

فالكتاب لا يقتصر على صقع من البلاد، أو جنس من الناس، ولا يختص بفن واحد من فنون العلم والأدب كما رجا مؤلفه، ففيه شيء من السيرة النبوية؛ إذ قدم الكاتب أضاميم من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأوصافه ومعجزاته، وكذلك تجد في الكتاب الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك من ضروب العلم والأدب والثقافة، إضافة إلى بابه الأم في التاريخ والتراجم.

٣٨- النور السافر ١٧، ١٨.

أضف إلى هذا كله الفوائد التي قد لا تجدها في غير هذا الكتاب من تواريخ القرن العاشر؛ إذ إن كثيرًا من الحوادث قد سجلتها مشاهدات العيدروس نفسه. على أن الكتاب قد أرّخ لبعض حوادث القرن الحادي عشر، كقصة هدم مدينة (أحمد نكر) وجعل مكانها بستانًا لبرهان شاه سنة ١٠٠٣هـ[٣٩].

ولكتاب (**النور السافر**) ذيلٌ ألّفه الشيخ محمد بن أبي بكر الشِّلِّي اليمني (ت ١٠٩٣هـ) سماه: (**السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر**). وقد طبع الكتاب في مكتبة الإرشاد، في صنعاء، عام ٢٠٠٤م، بتحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي.

ويشتمل هذا الكتاب على تراجم «**جماعة من أكابر الفضلاء، وكثير من أماثل النبلاء**»[٤٠] أهمل ذكرها العيدروس، وقد رتّبها ترتيبًا تاريخيًا بحسب السنين، ممن توفي في القرن العاشر، غير مقتصر على مكان أو مصر أو قطر، سالكًا فيه سبيل الاختصار.

وللشِّلّي كتاب آخر في هذا الباب، هو (**عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر**)، نشرته مكتبة تريم الحديثة، ومكتبة الإرشاد في صنعاء، عام ٢٠٠٣م، بتحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي أيضًا.

٦- **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**: لنجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت ١٠٦١هـ).

من أشهر ما أُلف في تراجم القرن العاشر الهجري، وقد طبع قديمًا في بيروت بين عامي (١٩٤٥- ١٩٥٨م) بتحقيق د. جبرائيل جبور. وقد نشرته دار الكتب العلمية في بيروت، عام ١٩٩٧، بتحقيق خليل المنصور.

٣٩- النور السافر ٤٠٩.

٤٠- السناء الباهر ٥.

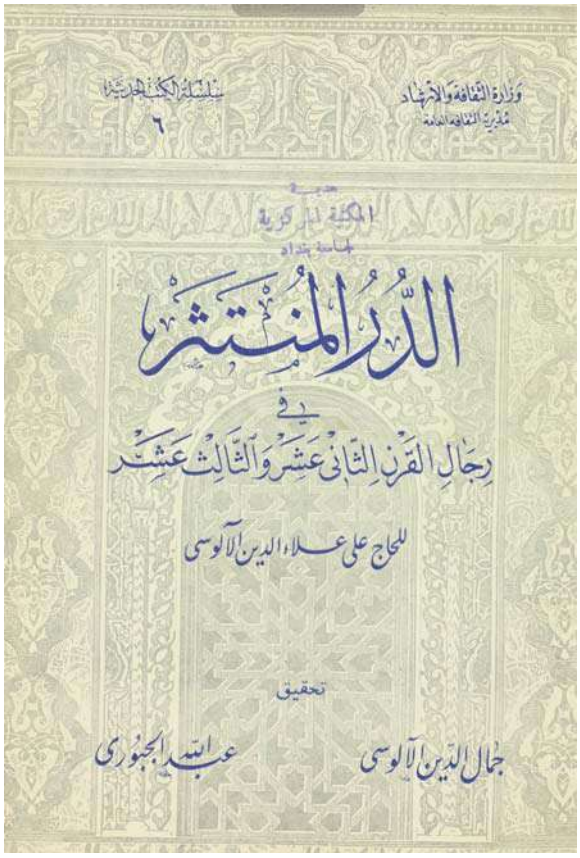

جعله الغزي في ثلاث طبقات مبتدئًا في تراجم كل طبقة بالمحمدين، ثم تراجم من لم يقف على أسماء آبائهم، ثم سرد بقية تراجمه منسوقة على حروف المعجم، وهي على النحو الآتي:

الطبقة الأولى: من وقعت وفاتهم أول سنة (٩٠١هـ) إلى تمام سنة (٩٣٣هـ).

الطبقة الثانية: من وقعت وفاتهم أول سنة (٩٣٤هـ) إلى تمام سنة (٩٦٦هـ).

الطبقة الثالثة: من وقعت وفاتهم أول سنة (٩٦٧هـ) إلى تمام سنة (١٠٠٠هـ).

وقد حرص الغزي في سيرة من يترجم له على ذكر نسبه وسنتي ولادته ووفاته ما أمكن، ونشأته العلمية ورحلاته في طلب العلم وشيوخه وتلامذته ومصنفاته وفضائله؛ سالكًا سبيل الإيجاز في مواضع، والاستفاضة في مواضع أخرى بحسب مصادر المؤلف. ومن الترجمات التي استفاض في الحديث عنها «**ترجمة محمد بن حمزة الحسيني ت٩٣٣هـ)**[٤١]»؛ فقد بلغت نحو خمس صفحات أغناها الغزي بالأخبار والأشعار والحوادث والمشاهدات والمشافهات التي تلقاها عن الشخصية المترجمة.

وللغزي ذيل على كتابه (الكواكب السائرة) سماه (**لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**). قال في مقدمته: «**وبعد فهذا ذيل على كتابي المسمى بـ (الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة) ألفته لتمام سنة ثلاث وثلاثين بعد الألف، وهي السنة التي جاءت بكل عُجاب، وكانت طبقة الأعيان المندرجة فيها رابعة لطبقات ذلك الكتاب**»[٤٢].

وقد طبع (لطف السمر) مستقلًا عن (الكواكب السائرة)، وهو من منشورات وزارة الثقافة في دمشق، بتحقيق محمود الشيخ.

وقد رتب الغزي (لطف السمر) أيضًا على حروف المعجم مستدركًا ما فاته في (الكواكب)، مضيفًا إلى مصادره الموثوقة مشاهداته الخاصة التي وصف بها معاصريه[٤٣]، ومصدّرًا ترجماته بالمحمّدين[٤٤].

٧- **خلاصة الأثر في أعيان الحادي عشر**: للمحبي محمد أمين بن فضل الله بن محب الله (ت ١١١١هـ).

طبع الكتاب أول مرة في القاهرة عام ١٨٦٩م بعناية السيد مصطفى وهبة، ومن ثمّ طبعته دار صادر في بيروت عام ١٩٩٠م.

٤١- الكواكب السائرة ١ / ٤٠-٤٥.

٤٢- لطف السمر ١ / ٣. وقد سمى الغزي كتابه في هذه المقدمة بزيادة كلمة «مناقب» في اسم الكتاب، وهذا مما لم يرد على غلاف الكتاب في طبعاته المذكورة.

٤٣- لطف السمر، مقدمة المحقق ١ / ١٣٩.

٤٤- لطف السمر ١ / ٤.

وقد اقتصر المحبي في (خلاصة الأثر) على أخبار أهل المئة التي هو فيها، وطرح ما يخالفها[٤٥]. وبلغت تراجمه كما ذكر صاحب (سلك الدرر) عندما أتى على ذكر الكتاب «**زهاء ستة آلاف**»[٤٦]، مرتبة على حروف المعجم.

وقد أبان عن منهجه في مقدمته؛ إذ قال: «**حتى اجتمع عندي ما طاب وراق، وزيّن بمحاسن لطائفة الأقلام والأوراق... ووقع اختياري على إضافة كل أثر إلى ترجمة من أسند إليه، حسبما يعول مَن له مساس في باب التاريخ عليه، فصار تاريخ رجال وأيّ رجال، يضيق عند سرد مآثرهم من الدفاتر المجال**»[٤٧]. وقد ذكر بعد ذلك في هذه المقدمة المصادر التي استقى منها تراجمه، «**هذا ما عدا المجاميع والتلقيات من الأفواه والمكاتبات**»[٤٨].

على أن قارئ هذا الكتاب يقع على نوادر مبثوثة بين ثنايا الترجمات؛ إذ لم يكتف المحبي بالترجمة الموجزة، بل أسهب في كثير من مواضع الكتاب، وأتى على ذكر جملة من المعارف التي عُني بها العَلَم المترجَم، ومن ذلك: تلخيصه كتاب (واقعتنامه) التركي[٤٩]، وترجمة ابن قرنق الدمشقي: صاحب المرآة السحرية[٥٠]، وعجائب الملا صفي الدين بن محمد الكيلاني في الطب[٥١]، وغير ذلك كثير.

٨- **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**: للقادري محمد بن الطيب بن عبد السلام الحسني (ت ١١٨٧هـ).

طبعته دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، وصدر عن الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في الرباط، عام ١٩٧٧م، بتحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق. هذا وللكتاب طبعة حجرية قديمة بفاس عام ١٣١٠هـ.

و(نشر المثاني) من أهم كتب التراجم والطبقات المغربية، وقد جعله مؤلفه تتمة وذيلاً لمن ألف قبله في تراجم المغاربة؛ إذ يترجم القادري لأعلام المغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ومشاهير علماء مصر والحجاز وغيرهما.

وقد جعل القادري ترجماته مرتبة ترتيبًا تاريخيًا بحسب السنين، ولم يلتزم الترتيب المعجمي، وقد أغنى هذه الترجمات بذكر شيوخ من يترجم له،

٤٥- خلاصة الأثر ١ / ٣.
٤٦- سلك الدرر ٤ / ٨٦.
٤٧- خلاصة الأثر ١ / ٣.
٤٨- خلاصة الأثر ١ / ٣.
٤٩- خلاصة الأثر ١ / ٤٢٦.
٥٠- خلاصة الأثر ٢ / ١١٩.
٥١- خلاصة الأثر ٢ / ٢٤٤.

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

نشر المثاني
لأهل القرن الحادي عشر والثاني

تأليف
محمد بن الطيب القادري

تحقيق
محمد حجي — أستاذ بكلية الآداب بالرباط
أحمد التوفيق — أستاذ بكلية الآداب بالرباط

نشر وتوزيع
مكتبة الطالب
207 شارع محمد الخامس
الرباط

وزين هذه الترجمات بالأخبار والأشعار، وعند نهاية الترجمة كان يذكر حوادث السنة، كحادثة رخص أسعار الحبوب والثمار، و«خلع العبيد لمحمد بن عربية ومبايعتهم أخاه المستضيء»؛ عقب ترجمة محمد يعيش الزَّرهوني (١١٥١هـ)[٥٢]، على سبيل المثال. وهكذا دواليك.

ولنشر المثاني ذيل بعنوان: (**زبدة الأثر عما مضى من الخبر في القرن الثالث والرابع عشر**)، ألفه عبد السلام بن عبد القادر بن سودة (مؤرخ مغربي من أصول أندلسية ت ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م)، وقد اختصر الزبدة أيضًا بكتابه سماه (**إتحاف المطالع بوفيات أهل القرن الثالث عشر والرابع**)[٥٣] ترجم فيه لأعلام المغرب من عام ١١٧١ه إلى عام ١٣٧٠هـ[٥٤].

وقد اختصر القادري كتاب النشر، ونص على ذلك في مقدمته[٥٥]، وسمى المختصر: (**التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المئة الحادية والثانية عشر؟**)، حققه هاشم العلوي القاسمي، ونشرته دار الآفاق في بيروت، عام ١٩٩٧م.

٩- الإعلام بمن غَبَر من أهل القرن الحادي عشر: للفاسي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي، ابن أبي المحاسن يوسف الفهري (ت ١١٣١هـ).

حققته: فاطمة نافع، وصدر عن دار ابن حزم في بيروت، ومركز التراث الثقافي المغربي في الدار البيضاء، عام ٢٠٠٨م.

ترجم هذا الكتاب لأعلام المغرب الذين عاشوا في القرن الحادي عشر، وتظهر في ترجماته النزعة الصوفية إضافة إلى النزعة الأدبية. وقد ذكرت محققة الكتاب أن عدد تراجمه يربو على ما جاء في نشر المثاني بـ ١٣٤ ترجمة لأعلام القرن الحادي عشر[٥٦] مع ما لحق الكتاب من ضياع قسم كبير منه[٥٧].

ومنهج الفاسي في الإعلام لا يبتعد كثيرًا عن منهج القادري في النشر؛ إذ يعرض تراجمه وفق الترتيب التاريخي، ولا يلتزم الترتيب المعجمي، وقد كان يصدر كل ترجمة بذكر سنة الوفاة، ويزينها بذكر التآليف والأخبار الموسعة والأشعار الكثيرة بما يؤكد النزعة الأدبية لصاحب الكتاب.

٥٢- نشر المثاني ١ / ١٤.

٥٣- تتمة الأعلام ٣ / ١٨٩. وقد حققه محمد حجي أيضًا، ونشرته دار الغرب الإسلامي، عام ١٩٩٧ م.

٥٤- نشر المثاني، مقدمة التحقيق ١ / ٤.

٥٥- نشر المثاني، مقدمة التحقيق ١ / ٦.

٥٦- مقدمة الإعلام ١٥.

٥٧- مقدمة الإعلام ٢٣ وما بعدها.

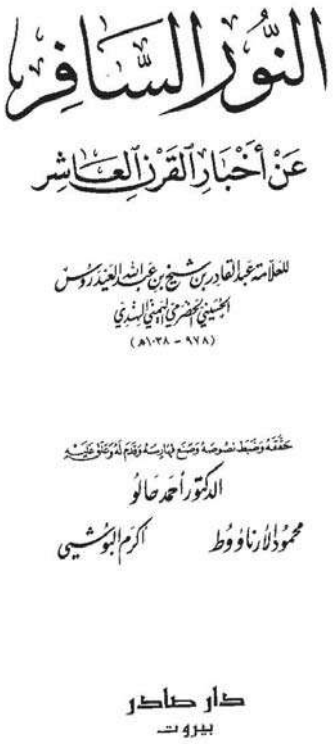

١٠- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: لأبي الفضل المرادي محمد خليل بن علي بن محمد (ت ١٢٠٦هـ).

طبعت الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب في إصطنبول سنة ١٢٩١هـ، ثم طبع الجزء الرابع في المطبعة الأميرية العامرة في بولاق سنة ١٣٠١هـ، ونشرته دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم في بيروت ١٩٨٨م، (مصورًا عن طبعته الحجرية القديمة)، ودار الكتب العلمية في بيروت عام ١٩٩٧م بتحقيق محمد عبد القادر شاهين، ودار صادر في بيروت عام ٢٠٠١-٢٠١٢م بتحقيق أكرم حسن العلبي، ودار الكتاب الإسلامي في القاهرة.

وقد ذكر المرادي في مقدمة كتابه التي أبان فيها عما حمله على تأليفه الكتاب، وأفصح فيها عن منهجه ومصادره المتنوعة؛ إنه لم ير من ترجم لأهل القرن الثاني عشر، وقال: «**فجمعت هذا التاريخ اللطيف، الكامل في التعريف بحال الشخص والتوصيف، واجتمع عندي جملة من الرحلات والأثبات والتراجم، مع كثرة التنقير، والتفحص الكثير، والأخذ من الأفواه شفاهًا، وبالمكاتبات إلى البلدان التي كنت لست أراها، فكان عندي رحلة الوجيه عبد الرحمن بن محمد الذهبي، ورحلة مؤرخ مكة الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي، والنفحة للأمين المحبي، وذيلها للشمس محمد المحمودي، وثبت العلامة الشمس محمد بن عبد الرحمن الغزي العامري المسمى (لطائف المنة) وتذكرته الأدبية، ورحلة الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي الكبرى والصغرى الحجازية والقدسية، وغير ذلك من المشيخات والمعاجم والأثبات، مما يحتج به، فلا يحتاج إلى برهان وإثبات**»[٥٨].

وقد ذكر في مقدمته أنه أطلق على كتابه اسمين اثنين، وأنه رتب أعلامه وفق الترتيب المعجمي المعهود: «**وحين تم جمع دُرره، وتفويف حِبَره؛ سميته (أخبار الأعصار في أخبار الأمصار)، ويليق أيضًا أن يسمى (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر)... وقد رتبته على حروف المعجم، ليسهل منه ما خفي واستعجم**»[٥٩].

بلغ عدد تراجمه نحو سبعمئة وسبع وستين ترجمة لم تقتصر على اسم المترجم وسنتي ولادته ووفاته، بل ازدانت تراجمه بنتف من الأخبار والأشعار، ومآثر الشخصية المترجمة ومصنفاتها إذا توفرت، وغير ذلك من الفوائد والنوادر والشذرات مما لا يتوقع وروده في كتب أمحضت للترجمة.

٥٨- سلك الدرر ١ / ٤.

٥٩- سلك الدرر ١ / ٤-٥.

١١- الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر: للآلوسي علاء الدين علي بن نعمان بن محمود (ت ١٣٤٠هـ).

حققه جمال الدين الآلوسي وعبد الله الجبوري، وطبعته وزارة الثقافة والإرشاد ودار الجمهورية في بغداد، عام ١٩٦٧م.

وقد ترجم الآلوسي لجملة منتقاة من الأعلام الذين عاشوا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد توسع في أخبار الشخصيات المترجمة ومؤلفاتها وأشعارها، ولم يلتزم منهجًا محددًا ولا ترتيبًا معجميًا.

هذا وقد بدأ المؤلف الحديث عن تراجمه من غير مقدمة تبيّن منهجه المتبع في الكتاب.

١٢- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: لعبد الرزاق بن حسن البيطار (ت ١٣٣٥هـ).

طبع أَوَّلَ مرة في دمشق بعناية حفيد المؤلف العلامة محمد بهجة البيطار، عام ١٩٦١م، وعنه نشر في دار صادر في بيروت، عام ١٩٩٣م. وقد أغنى البيطار الحفيد الكتاب بالتعليقات والتنبيهات والاستدراكات إلى جانب اختصاره الكتاب اختصارًا غير مخلّ.

و(حلية البشر) من كتب التراجم المهمة في هذا الباب، وقد ترجم فيه مؤلفه كما يظهر من عنوان الكتاب لأعيان القرن الثالث عشر الهجري في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق والجزيرة، على أنه ذكر طائفة من رجال القرن الرابع عشر لما تدركهم الوفاة وقتئذ.

وقد اقتصر البيطار كما ذكر في مقدمته «**على ترجمة أعيان القرن الثالث عشر؛ لأن الأمين المحبي رحمه الله ترجم أهل القرن الحادي، كما أن القرن الثاني قد ترجمه المرادي، فأردت أن أتطفل عليهما بديوان يكون لكتابيهما ذيلًا، وإن كنت أعلم أني لست لذلك أُهيلًا**»[٦٠]. فهو يعد كتابه (حلية البشر) ذيلًا لكتابي: (سلك الدرر) و(خلاصة الأثر)، وقد مضى ذكرهما قبل قليل.

وقد نصّ على منهجه وحدود تراجمه؛ إذ قال: «**فاقتصرت على ذكر من وصلت إليه، وطويت غالبًا ذكر من لم أكن أعلم ما له وعليه.... ورأيت أن أرتبه على حروف المعجم لا على الأعوام، ليكون قريب المراجعة سهل المرام**»[٦١]. واشتمل كتاب الحلية إلى جانب الفن المصنف فيه على جملة من الفوائد والأخبار والحكايات العجيبة.

٦٠- حلية البشر ٤.

٦١- حلية البشر ٥-٦.

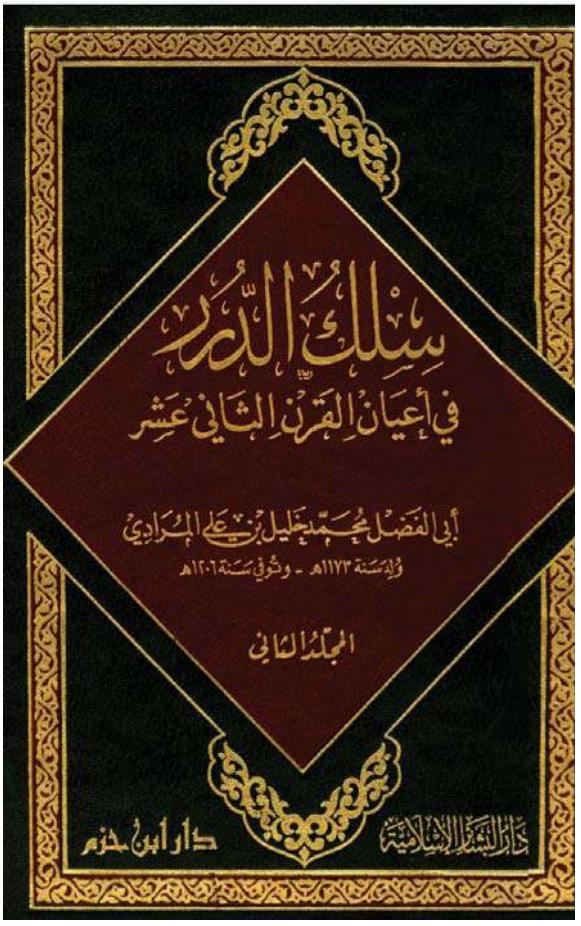

١٣- المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر: للآلوسي أبي المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء (١٣٤٢هـ).

حققه عبد الله الجبوري، وطبعته دار العلوم في الرياض عام ١٩٨٢م، وأعادت طباعته الدار العربية للموسوعات في بيروت، عام ٢٠٠٧م. وللكتاب نشرة قديمة غير محققة طبعت في مطبعة الآداب في بغداد عام ١٩٣٠م.

ترجم فيه المؤلف لأعلام بغداد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد صرح بذلك في مقدمته المقتضبة؛ إذ قال: «**أحببت أن أذكر في هذا الكتاب نبذة من أحوال فضلاء بغداد الذين كانوا في القرن الثاني عشر والثالث عشر، من غير إحاطة بما كانوا عليه من المآثر، فإن ذلك أمر يتعذر**»[٦٢].

وقد شملت تراجمه من كان منهم بين عامي (١٢٧٢-١٣٤٢هـ)، وعدد المترجمين (١٠١) من أسر مرموقة ذكرها محقق الكتاب في مقدمته[٦٣]، مع ذكر فوائد من فنون متنوعة. وقد سرد الآلوسي تراجمه من غير أن يلتزم الترتيب المعجمي.

يشار إلى أن المسك الأذفر هو القسم الثاني من كتاب الآلوسي (نيل المراد في أخبار بغداد).

١٤- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر: لأحمد تيمور باشا (ت ١٣٤٨هـ).

طبع في دار الآفاق العربية في القاهرة عام ٢٠٠١م.

وقد اشتمل الكتاب على (٢٤) ترجمة بدئت بترجمة عبد الله نديم أفندي (ت ١٣١٠هـ)[٦٤]، وختمت بترجمة الشيخ أحمد مفتاح (ت١٣٢٩هـ)[٦٥]، ثم أضاف ناشرو الكتاب ترجمة للمؤلف نفسه[٦٦]، ولم يقدم له بمقدمة تكشف عن منهجه. على أن نظرة مقتضبة في الكتاب تكشف أنه ترجم لمشايخ وخطباء فضلاء عاشوا في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر.

على أن من اعتنى بنشر الكتاب قد ذكر في بيان سبق ترجمة المؤلف أن هذه التراجم وجدت بخط المؤلف، وقد نالها من أثر السنين ما نالها، وقد سرد المترجمين من غير نظام معين، ولم يستوعب أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر على ما يظهر في عنوان الكتاب[٦٧].

٦٢- المسك الأذفر ١٢٣.
٦٣- المسك الأذفر ١٠٠.
٦٤- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ٣.
٦٥- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ١٤٥.
٦٦- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص١٥٧.
٦٧- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ١٥٥-١٥٦.

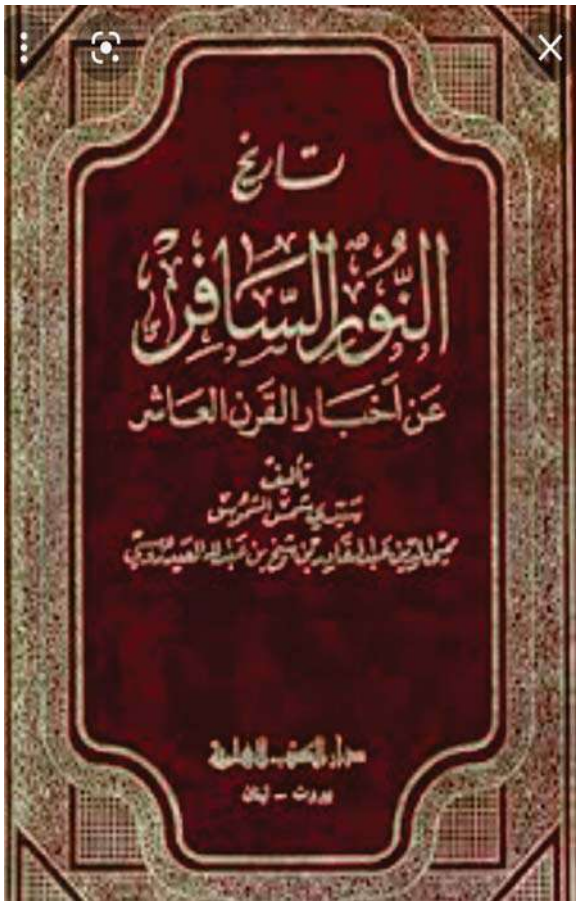

١٥- الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية: للورّاق المصري زكي محمد مجاهد (ت ١٩٨٠م).

طبع كتاب (الأعلام الشرقية) منجمًا، وصدر عن دار الغرب الإسلامي بين عامي (١٩٤٩- ١٩٩٤م). وهو من أجمع الكتب التي ترجمت للشرقيين من عرب وأتراك وأفغان وغيرهم، واشتمل على من كانت وفاته بين عامي ١٣٠١- ١٣٦٥هـ. وقد قدم مجاهد لكتابه بمقدمة ضافية ذكر فيها من سيترجم له، ونبّه على أشياء مهمة سيذكرها في مفردات كل شخصية مترجمة. قال: «**فهذا كتاب في تراجم أعلام القرن الرابع عشر الهجري الشرقية، على اختلاف ديارهم وأوطانهم، وتباين عقائدهم وأديانهم، وتغاير مشاربهم واتجاهاتهم، وتناقض طبائعهم وعاداتهم، وتفاوت مداركهم ومؤهلاتهم.... ولم أقصد بهذا الكتاب أن أحلل كل شخصية ترجمت لها... وإنما قصدت أن يكون جامعًا لجمهرة أعيان هذا القرن**».

وقد جعل المؤلف كتابه في أقسام[٦٨]:

القسم الأول: في الملوك والأمراء. ويحتوي على (٦٠) ترجمة.

القسم الثاني: في الوزراء والسفراء. ويحتوي على (١١٧) ترجمة.

القسم الثالث: في زعماء الحركة القومية. ويحتوي على (٣٨) ترجمة.

القسم الرابع: في أعلام الجيش البري والبحري. ويحتوي على (١١٨) ترجمة.

القسم الخامس: في علماء الإسلام. ويحتوي على (١٨٥) ترجمة.

القسم السادس: في القضاة والمحامين. ويحتوي على (١٤٦) ترجمة.

القسم السابع: في طوائف الصوفية. ويحتوي على (٥٤) ترجمة.

القسم الثامن: في مشاهير النحل غير الإسلامية. ويحتوي على (٥٨) ترجمة.

القسم التاسع: في الأدباء (الكتّاب والشعراء). ويحتوي على (١٦٨) ترجمة.

القسم العاشر: في المؤرخين والرحالة. ويحتوي على (١٦٧) ترجمة.

القسم الحادي عشر: في رجال الصحافة. ويحتوي على (١٨٧) ترجمة.

وقد حرص رحمه الله على النقل والتوثيق من المصادر؛ وقد اكتسب ثقافة عالية من خبرته في عمله

٦٨- الأعلام الشرقية (المقدمة) ص٧-٨.

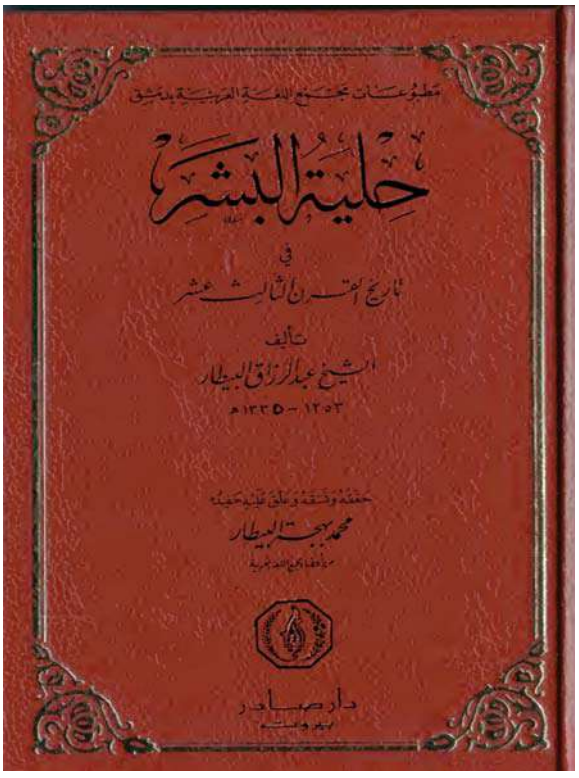

كُتُبِيًّا. على أن ثمة بعض المآخذ[٦٩] على عمله، كإغفاله ذكر بعض جنسيات المترجم لهم، ووقوع ترجمتين لشخص واحد، وغير ذلك مما ذُكر في مقدمة طبعة دار الغرب؛ بما لا يغضّ من قدر الكتاب، ولا ينتقص من الجهد الكبير الذي بذله مؤلفه رحمه الله.

هذا ما وسعني الجهد وأسعفني الوقت في الوقوف عليه من مصادر التراجم المصنفة على القرون. على أن ثمة مصادر لم أطلع عليها، وقد مرت بي عَرَضًا أثناء اشتغالي في هذا المقال. ومن تلك الكتب: كتاب **(الغُرر في وجوه القرن الثالث عشر)**، لعثمان بن سند النجدي الوائلي (ت ١٢٤٢هـ)، والكتاب مفقود[٧٠]. وكتاب **(روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر)**، لمحمد جميل الشطي، وقد طبع في دمشق عام ١٣٦٧هـ[٧١]. وكتاب **(الدر الثمين في أدباء القرن العشرين)**، لعيسى إسكندر المعلوف (مخطوط نشر منه مقتطفات في بعض المجلات)[٧٢]. وكتاب **(علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر)**، للدكتور محمد مطيع الحافظ، والدكتور نزار أباظة، وقد طبع في دار الفكر في دمشق، ولهما كذلك كتاب **(علماء دمشق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر)**، وقد طُبعا في دار الفكر أيضًا.

٦٩- الأعلام الشرقية (المقدمة) ص٩.

٧٠- الدر المنتثر (مقدمة المحققين) ص ٧٦.

٧١- الدر المنتثر (مقدمة المحققين) ص ٧٢.

٧٢- الدر المنتثر (مقدمة المحققين) ص ٧١.

المصادر والمراجع

١ - الإعلام بمن غَبَر من أهل القرن الحادي عشر، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي، تحقيق فاطمة نافع، دار ابن حزم، بيروت، ومركز التراث الثقافي المغربي، ط١، ٢٠٠٨م.

٢ - الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية، زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م.

٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٤ - تتمة الأعلام للزركلي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ.

٥ - تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠١م.

٦ - حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن البيطار، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار من أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

٧- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، لابن فضل الله المحبي، دار صادر، بيروت.

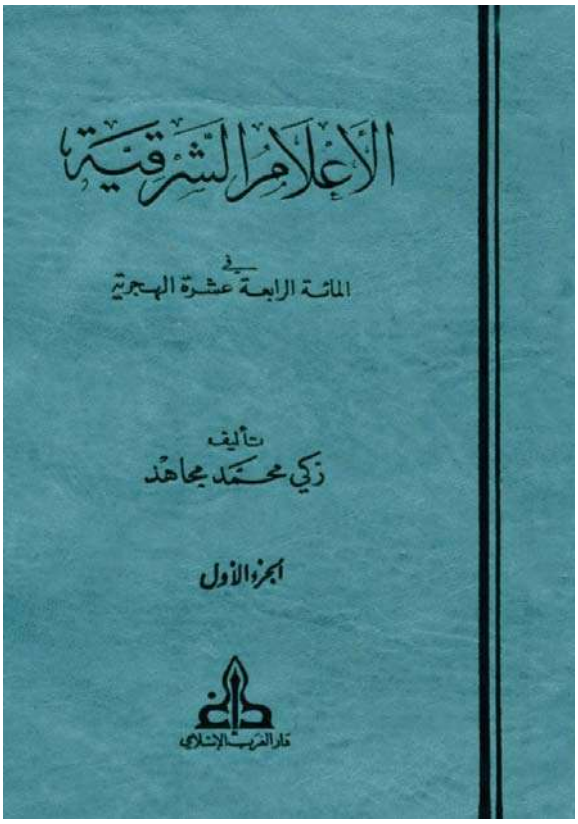

٨- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، اعتنى به محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط٢، ١٩٧٢م.

٩- الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، علاء الدين علي بن نعمان بن محمود الآلوسي، تحقيق جمال الدين الآلوسي، وعبد الله الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد، ودار الجمهورية، بغداد، عام ١٩٦٧م.

١٠- الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، أبو شامة المقدسي، اعتنى بنشره السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

١١- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع المؤلف: شمس الدين السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٢- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، أبو الفضل محمد خليل بن علي الحسيني، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

١٣- السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، محمد بن أبي بكر الشِّلِّي اليمني، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، اليمن، ط١، ٢٠٠٤م.

١٤- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين الغزي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٥- لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، نجم الدين الغزي، تحقيق محمود الشيخ، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.

١٦- المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محمود شكري الآلوسي، تحقيق عبد الله الجبوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، عام ٢٠٠٧م.

١٧- الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

١٨- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الحسني، تحقيق: محمد حجي، وأحمد التوفيق، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، عام ١٩٧٧م.

١٩- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٢٠- الوافي بالوَفَيات للصفدي، تحقيق ثُلَّة من الباحثين، صدر مُنَجَّمًا عن المعهد الألمانيّ في بيروت.

كتاب كشف الظنون في دراسات المستشرقين

د. ساجد الخليف الصالح*

الملخص:

لكتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون قمية تاريخية ومعرفية، فلا يستغني عنه أي باحث في التُّراث العربي، فهو كتاب جامع لكتب الآداب والعلوم قاطبة في جميع العصور حتى عصر المؤلِّف، لذلك جذب اهتمام العلماء والباحثين من الشرق والغرب.

وما يميز عظيم هذا الاهتمام أن المستشرقين التفتوا إلى قيمته العلمية والتاريخية، فجعلوا منه أهمَّ مصدرٍ ببليوغرافي لمعظم الأعمالَ الاستشراقية المتعلقة بالتراث الإسلامي.

ومنهم من عكف على تحقيقه ونشره كذلك. ولأهميته عند المستشرقين كان الدليل الأهم عندهم في ترتيب الكتب في المكتبة الشرقية.

واستفادوا منه في تراجمهم وكتبهم ودراساتهم وتحقيقاتهم. وذلك يدل على القيمة العلمية للكتاب في نظرهم لأنه مصدر كبيرٌ ومهم لجميع أنواع المعرفة الإسلامية.

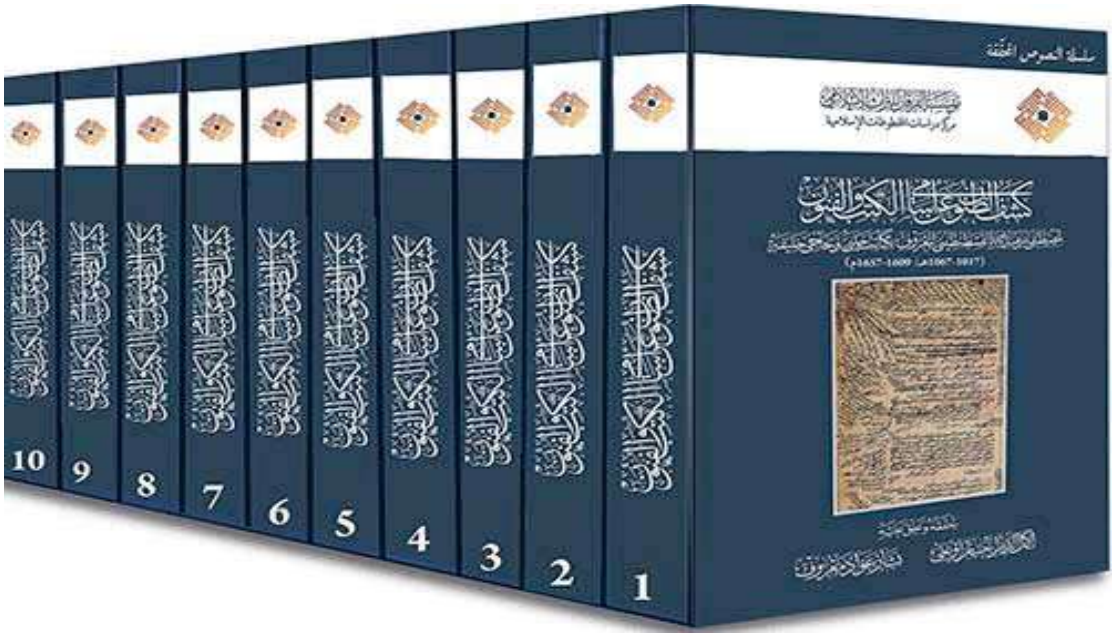

* د. ساجد الخليف الصَّالح باحثٌ في شؤون التُّراث العربيّ ولا سيَّما النَّحْويّ منه.

الكلمات المفتاحية:
كشف الظنون، كاتب جلبي، حاجي خليفة، المستشرقون.

المقدمة

أتناول في هذا البحث العالم المصنف في التاريخ العلمي والإداري الإسلامي كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ)، وهذا اسمه المشهور به في العالم التركي، أما في العالم العربي فهو مشهور بلقبه (حاجي خليفة)، ومصنفه الكبير الجليل «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» من جهة اهتمام المستشرقين به، وأثره في دراساتهم، واعتمادهم عليه في تصانيفهم التي تتناول المؤلفات الإسلامية على مر العصور.

وكتاب حاجي خليفة (كاتب جلبي) إنما هو نهاية سلسلة ابتدأها قديمًا عدد من العلماء الذين اهتموا بتصنيف العلوم وشرحها والتعريف بها في كتب مستقلة، فقد ألفوا فيها مؤلفات جمعوا فيها العلوم المنتشرة في عصرهم، وعرفوا الناس بها وبخصائصها ومَن مِن العلماء اشتغلوا بها مزاولة وتأليفًا، وكان ذلك في باكورة من زمن انتشار التأليف في العصر العباسي.

وقد انقسمت تآليفهم في هذا الموضوع في نوعين من الكتب؛ النوع لأول: هو كتب درست العلوم على نحو عام ومجمل، فوصفتْ كلَّ علم وخصائصه ومجالاته دون التعريف بالمؤلفات التي أُلِّفت في كل علم على حِدة، وأول كتاب من هذا النوع كتاب (إحصاء العلوم) للفارابي ٣٣٩ هـ، وكتاب (مفيد العلوم) لابن الحَشَّاء ٦٤٧ هـ، ويسمى أيضًا: (تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواقعة في كتاب الطب المنصوري لأبي بكر الرازيّ)، وينسب أيضًا للخوارزمي ٢٣٢هـ، وكذلك لزكريا بن محمد القزويني ٦٨٢هـ، وكتاب (موضوعات العلوم وتعاريفها) للبيضاوي ٦٨٥هـ، وكتاب (تقسيم العلوم) للجرجاني ٨١٦ هـ.

والنوع الثاني: كتب عرفت العلوم السائرة وشرحتها، ثم ذكرت المؤلفات التي كتبت فيها ودارتْ حولها مرتبةً ترتيبًا زمنيًا، وأولها كتاب (الفهرست) للنديم ٣٨٤هـ، وكتاب (مفتاح السعادة ومفتاح السيادة) لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده ٩٦٨ هـ، وكتاب (ترتيب العلوم) لمحمد بن أبي بكر المرعشي الشهير بساجقلي زاده ١١٤٥ هـ، ومن هذا االنوع كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) لحاجي خليفة ١٠٦٧ هـ.

ولا شك أن كتاب حاجي خليفة «كشف الظنون» له أثر كبير في مصنفات المستشرقين، فقد درسوه مبكرًا، بعد أن طبعه فلوجل في ألمانيا، وتوالت طبعات أجزائه فيما بعد بإنكلترا وإسطنبول، ومصر وإيران، وعرفوا قيمته، واستفادوا منه أيما استفادة في معرفة أسماء مصنفات العلوم كلّها في التراث الإسلامي، واستعانوا به أيضًا في إعداد مكتبة تضم التصانيف الإسلامية في مختلف العلوم. لذلك تُعد قيمة كتاب «كشف الظنون» من جهة أنه كتاب بيليوغرافي في منهجه، ضم أكثر من ١٤٥٠٠ كتاب بمؤلفيها وأوصافها وحدودها ومحتوياتها.

وقد ركزت في هذا البحث على بيان أهمية العالم الجليل حاجي خليفة في مؤلفاته وأثره في الدراسات التاريخية والمكتبية، وكذلك ركزت كثيرًا على بيان قيمة كتابه «كشف الظنون» وأثره في دراسات المستشرقين، وكشفت كذلك مدى إعجابهم به، واعتمادهم عليه في تصانيفهم المتعلقة بدراسة المؤلفات الإسلامية، وبينت كذلك مدى اهتمام المستشرقين بهذا الكتاب وشروع بعضهم بطبعه وترجمته والاستفادة منه في كثير من دراساتهم.

ولم أظفر بدراسة سابقة تبين مدى أثر الكتاب ومؤلفه في دراسات المستشرقين، لذلك شرعت في هذا البحث لعله يكون نافذة رحبة يصدر من خلالها شعاع

يكشف مكانة المؤلف وكتابه في أعمال المستشرقين.

وقد قسمت البحث إلى خمسة أقسام:

أوّلًا- حاجي خليفة في مؤلفاته.

ثانيًا- قيمة كتاب «كشف الظنون» العلمية.

ثالثًا- اهتمام المستشرقين بطبع كتاب «كشف الظنون».

رابعًا- ترجمة المستشرقين لكتاب «كشف الظنون».

خامسًا- أثر «كشف الظنون» في دراسات المستشرقين.

أوّلًا- حاجي خليفة في مؤلفاته:

كاتب جلبي، أو حاجي خليفة، هو عالم عامل، ورجل القرن الحادي عشَرَ الهجري، السابع عشر الميلادي، كانت جل حياته في طلب العلم والتأليف فيه، ويعدّ هذا الرجل مثالًا بارزًا للعالم الذي برع في تحصيل كثير من العلوم، فقد أتقن العلوم الشرعية والأدبية وعلوم العربية، وعلوم الرياضيات والجغرافية، وأتقن الفارسية مع العربية والتركية، وقد ألّف مؤلفاته باللغتين التركية والعربية.

ويتّضحُ من مؤلفاته أنه صاحب ثقافة واسعة حصّلها من سعة اطلاعه على مؤلفات العلوم كلّها، وأنه حاول بطريقة ما تلخيص ما اطلع عليه وقرأه وتعلمه في مصنفات تحفظ أسماء العلماء ومؤلفاتهم، وتنقل للناس تعريفًا بهم وبمؤلفاتهم، كما فعل في كتابه الشهير (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، وفي كتابه: (سُلَّم الوصول إلى طبقات الفحول)، وهو بصنيعه هذا قدّم للناس في عصره والعصور اللاحقة مكتبة عامة شاملة في ذَينك الكتابين، حفظ فيها التراث الإسلامي العلمي، فقد عرض في كتابه (كشف الظنون) أسماء لكتب علوم وفنون دقيقة ومهمة، وعرّف بها الناس، فكان مرآة يرى من خلالها علوم عصره والعصور السالفة جميعها، وليس مبالغة أن يُقال فيه: إنه موسوعة علمية حضارية غاية في الأهمية.

وبعد مدة من وفاته صار اسم حاجي خليفة عند أهل العلم يُذكَر مع أصحاب الموسوعات العلمية ذات الخطر الجليل من أمثال الخطيب البغداديّ وابن خَلِّكان والمقريزي وابن عساكر وياقوت ومن حذا حذوهم من المؤلفين.[1]

ولحاجي خليفة في مؤلفاته مزيَّة تاريخية مهمة، وهي أنه ينقل صورة واقعية عن حال الدولة العثمانية في عصره، ولا سيما حال نظامها الإداري والرسمي، فهو عمل في العاصمة إسطنبول عملًا إداريًا ووكيلًا في إدارة المالية، وعمل أيضًا كاتبًا في نطارة الجيش والأناضول، وشهد حصار أرضروم، وحصار بغداد، ثم رجع مع الجيش العثماني منها، ثم رجع إليها بعد فتحها، وارتقى المناصب حتى صار من رؤساء الكتّاب، وعاد إلى القسطنطينية واشتغل بالعلم، ثم أعيد إلى بغداد وهمذان، وصحب الصدر الأعظم محمد باشا إلى حلب، ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج، وسمي من ذلك الحين «حاجي»، وتفرغ بعد ذلك للعلم. وهذا التنقل في دوائر الدولة آنذاك جعله خبيرًا بأسرارها وخفاياها، ومطلعًا على أسايب المعاملات في أروقتها، ولا سيما نظام الجيش، مما جعله في مؤلفاته ناقدًا مدققًا محللًا.[2]

ومن مزايا حاجي خليفة المهمة في مؤلفاته أنه عارف ومطلع على ثقافات أخرى كالثقافة الأوربية التي انفتح عليها، واهتم بها حتى نقل بعض المؤلفات الأوربية ككتب التاريخ والجغرافية، ويعد رائدًا سابقًا

١- الدكتور محمد رجب البيومي، حاجي خليفة وكشف الظنون، مجلة الأديب، (١- سبتمبر- ١٩٨٠م، العدد ٩-١٠).

٢- محمود عبد القادر الأرناؤوط، مقدمة تحقيق كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول، حاجي خليفة ، (إستانبول، شركة يلدز للنشر والإعلام، ٢٠١٠م)، ص ٩.

في التواصل مع علماء الثقافة الأوربية ومؤلفاتهم، وله مع ذلك اشتغالات في العمل العلمي المقارن بين الثقافتين الإسلامية والأوربية.[٣]

ولعل انفتاحه على الثقافة الأوربية لفت اهتمام علمائها إليه، فاطلعوا على مؤلفاته، فأعجبوا بها واستفادوا منها ونقلوها وترجموها، ووصفوه بأوصاف علمية مهمة كانوا شاهدين عليها، كحبه للعلم وشدة اهتمامه به وحرصه عليه، وعلى الحقيقة العلمية، حتى شبّهه المستشرق الألماني (فرانز بابينكر): بالسيوطي، ووصفه: بالسيوطي التركي.[٤]

ويضاف إلى ذلك أنه امتاز من علماء عصره بالوصف الدقيق لكل ما يعاينه ويشاهده ويستظهره من أحوال مجتمعه، وكذلك النقد البنّاء الذي لا يداهن فيه سلطة ولا عرفًا، وكان يتصف بالموضوعية والحياد في أطروحاته ونقاشاته وأفكاره، وهو يمثل بذلك كله قيمة علمية للثقافة الإسلامية التي عرف علماؤها وباحثوها فضله وقيمته متأخرين، فانكبوا عليه يحققون كتبه، ويقدمون لها بالتذييل والشرح والتعريف بالمؤلف وآثاره العلمية الثمينة، وقد عرف فضله المستشرقون في وقت مبكر، فعمل بعضهم على نقل كتبه من رفوف المخطوطات إلى المطابع، وعرفوا قيمته أيضًا بوصفه جامعًا لكل العلوم السابقة ومؤلفاتها وعلمائها في كتبه، فانبهروا به وأشادوا بأعماله.

ثانيًا- قيمة كتاب «كشف الظنون» العلمية.

تُعرَف قيمة كتاب كشف الظنون قبل الاطلاع عليه إذا عرفنا أن مؤلفه حاجي خليفة أفنى عشرين عامًا في جمع مادته من قراءة كتب العلوم والتواريخ وطبقات العلماء ومزاولة المكتبات وتقييد المعلومات من الكتّاب وبائعي الكتب.[٥]

وقيمة كتاب كشف الظنون تكمن في طبيعة موضوعه نفسه، فهو كتاب موضوعه علم أحوال الكتب، والكتب هي مصادر العلم الأهم على الإطلاق، وهي تمثل الأساس المتين، والقاعدة الأولى، والركيزة الأخطر لكل باحث يهتم بالتأليف أو التدريس، ولذلك سهّل كتاب كشف الظنون طريق الإلمام بجميع المصنفات الدائرة في أي موضوع من موضوعات العلم، ورتبها كي يسهل التعويل عليها والاستفادة منها.

وقد سهل على القارئين في الكتاب استجلاب المادة والمعلومة بأن رتب الكتب على ترتيب الحروف العربية.

ويُعَدُّ كتاب كشف الظنون واحدًا من أهم الموسوعات المعرفية في تاريخ الإسلام، فقد أحصى فيه مؤلفه من عناوين الكتب ١٤٥٠١ بالعربية والتركية والفارسية، و ٩٥١٢ من أسماء المؤلفين ونحو ٣٠٠ علم، فهو سجلٌّ تاريخي للعلوم والمعارف منذ ظهور الإسلام حتى القرن الحادي عشر.

ومن المزايا القيمة للكتاب أنه معجم بيليوغرافي[٦] ضخم جمع فيه جميع العلوم ومؤلفاتها ومؤلفيها، وقد عدَّه معهد المخطوطات العربية في كتابه «كشف الظنون» رمز البيليوغرافيا والتصنيف الإسلامي للعلم في مؤتمر عقده حول حاجي خليفة، في آذار ٢٠١٥م.

والمؤلف يذكر أسماء الكتب ضمن مواضيعها وأسماء مؤلفيها وتواريخ تأليفها، ثم يذكر الكتب

٣-المرجع نفسه. ص ١٠.

4- F. Bablinger, Ein turkischer stiftungsbrief des Nekesi, Mog, 1/163, Wien 1922.

٥-محمود عبد القادر الأرناؤوط، مقدمة تحقيق كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول، حاجي خليفة ، (إستانبول، شركة يلدز للنشر والإعلام، ٢٠١٠م)، ص ٩. وعبد الحميد حمودة، الناشر العربي، (تاريخ الإصدار: ١ - أكتوبر ١٩٨٦م، العدد: ٧)، صفحة رقم ١٧٤.

٦-معنى بيليوغرافي: بيليوغرافي : كلمة يونانية تعني: نسخ الكتب، ثم تطور معناها، فصار في القرن الثامن عشر يعني: وصف الكتب، أي ذكر بيانات الكتب، كعنوان الكتاب واسم المؤلف والطبعة، وعدد الصفحات، وكل ما يتصل بالكتاب من معلومات.

المتعلقة بنفس الموضوع ثم شروح الكتاب ومختصراته وحواشيه إن وجدت، ويذكر أبواب الكتاب وفصوله، في تفصيل دقيق يجلو اللبس والخلط.

وقد أودع في مقدمة الكتاب تعريفًا دقيقًا مفصلًا لماهية العلم وقيمته وتاريخه، وذكر أقسامه المختلفة، وجميع العلوم المعروفة دقيقها وجليلها.

ويُعدُّ المرجع الوحيد إلي اليوم في الكشف عن الكتب القديمة، ومن أتى بعده عالة عليه سواء عرف جميله وفضله أم لم يعرف.[٧]

ولفضله على الأبحاث والدراسات اعترفت بقيمته موسوعات علمية مشهورة ومجلات وعلماء ومستشرقون وباحثون مرموقون، أذكر بعضًا منها ههنا:

قالت دائرة المعارف الإسلامية: «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دائرة معارف عظيمة في الكتب والعلوم، وتعد أهم تصانيف المؤلف»[٨].

وقال البارون كرّاديفو: «ترك لنا كاتب جلبي المعروف باسم حاجي خليفة لدى المستشرقين عامة معجمًا موسوعيًّا مقدرًا جدًا ومنتفعًا به كثيرًا غالبًا»[٩].

وقال المؤرخ العثماني إسماعيل سرهنك: «كاتب جلبي هو أحد العلماء والمؤرخين المشهورين، من تآليفه المعروفة تاريخه المشهور، وكتاب كشف الظنون النادر المثال»[١٠].

وقال المستشرق الفرنسي ل. أ. سِدو: «ويحتوي كتاب كشف الظنون العظيم لحاجي خليفة على ما لا يقل عن ١٨٥٥٠ اسم كتاب شرقي مع أسماء المؤلفين وترجمة لهم»[١١].

وقال ف. بارتولد: «وقد عاش العالم التركي المشهور بكاتب جلبي أو حاجي خليفة في القرن الحادي عشر (الهجري)، ومن مؤلفاته كتابه العظيم في فن الكتب الذي يشتمل على جميع شُعب العلوم والآداب»[١٢].

وقال غوستاف لوبون: «وكتب التراجم عند العرب كثيرة أيضًا، وأشهرها كتاب كشف الظنون الذي ألفه حاجي خليفة، والذي هو معجم لأسماء نحو ١٤٥٠٠ كتاب شرقي نشرت حتى عصره بالتركية والفارسية والعربية»[١٣].

ثالثًا- اهتمام المستشرقين بطبع كتاب «كشف الظنون».

حَظِيَ كتاب كشف الظنون باهتمام العلماء والمعلمين بعد وفاة كاتبه بزمن قصير، فقد نهض لتبييض مسوَّدته عَددٌ من المشتغلين بالعلم، لكن عملهم في تبييض المسوَّدة لم يكن دقيقًا، وخَلطوا وحرَّفوا الأصلَ حتى جاء السيد الحسين العباسي الحلبي (ت ١٠٩٥هـ)، فأعادَ تبييض مسوَّدة كشف الظنون، وأضاف إليها حواشيَ المؤلف ونقولَه، وهَذَّبها واختصر التطويل فيها، وسماه: (التّذكار الجامع للآثار).[١٤]

ثم عمل بعض العلماء ذيولًا على كتاب كشف الظنون، وأولُ من ذيّلَ عليه محمد عزّتي أفندي المعروف بوِشْنه زاده (ت ١٠٩٢ هـ)، ثم ذَيّله عربه جيار شيخي إبراهيم أفندي (ت ١١٨٩هـ) في مصر، ثم ذيّله أحمد طاهر أفندي المشهور بحنيفه زاده (١٢١٧هـ)، ثم ذيّل

٧- الدكتور إياد سالم السامرائي، عن كتاب كشف الظنون https://vb.tafsir.net/forum.

٨- دائرة المعارف الإسلامية، (الشارقة، ١٩٩٨م)، مجلد ١٣ / ١٩٢. عن عبد الحميد حمودة، الناشر العربي، ١- أكتوبر- ١٩٨٦م، العدد ٧. ص ١٧٩.

٩- عبد الحميد حمودة، الناشر العربي، ١- أكتوبر- ١٩٨٦م، العدد ٧. ص ١٧٩.

١٠- المرجع السابق نفسه.

١١- المرجع السابق نفسه.

١٢- المرجع السابق نفسه.

١٣- المرجع السابق نفسه.

١٤- محمد شرف الدين يالتقايا، مقدمة طبعة كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (إسطنبول، ١٩٤١م)، ص. ٩. من نسخة مصورة عنها طبعة (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

عليه شيخ الإسلام عارف حكمت بك (ت ١٢٧٥هـ)، وقد عمل له إسماعيل باشا البغدادي (١٢٣٩هـ) ذيلًا كبيرًا سمّاه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون».[١٥] وعليه ذيل اسمه: «السر المصون على كشف الظنون» لجميل بن مصطفى العظم (ت ١٣٥٢ هـ)، طُبع الجزء الأول منه بتحقيق محمد خير رمضان يوسف، أما بقية الأجزاء فضائعة.

أمَّا بداية طبعات كتاب كشف الظنون فكانت من اهتمام المستشرقين مبكرًا، فقد اهتم بطباعته المستشرق الألماني غوستاف فلوجل، واقتصر عمله على طباعة المجلدين الأول عام ١٨٣٥م، والثاني في عام ١٨٥٨م، في لايبزغ الألمانية، بالنص العربي مع الترجمة اللاتينية في أسفل الصفحات، وأُكْمِلت طباعة بقية المجلدات الخمسة الأخرى على نفقة لجنة الترجمة الشرقية Oriental Translation Committee في لندن، مع الكشافات، وقد طبع مع المجلد السادس ذيل حنيفه زاده، كما طبع في المجلد السابع الأخير فهرس كُتب مدرسة الأزهر بمصر، وفهرس مدرسة أبي الذهب محمد بك بمصر، وفهرس مكتبات إسطنبول. وقد اعتمد في نشرته هذه – التي قضى في إنجازها أحد عشر عامًا – على مخطوطات في فيينا، وباريس، وبرلين، واستعان بفهارس المخطوطات وبمختلف المراجع من أجل تحقيق عنوانات الكتب.[١٦]

والمجلدات الستة الأولى تتضمن النص والترجمة اللاتينية، أما المجلد السابع فهو فهرس شامل جامع لأسماء المؤلفين وعنوانات الكتب المذكورة في غير ترتيبها الأبجدي، لكن وضع لها أرقامًا مسلسلة من ١ إلى ١٤٥٠،[١٧] وأضاف إلى هذه الفهارس شرحًا وافرًا يتضمن اختلافات النسخ، وتصحيحات وتعليقات، وقد عمل له كراسة تشمل فهارس ست وعشرين مكتبة عامة في إسطنبول، ودمشق، والقاهرة، ورودس، وحلب، وتحتوي على قرابة أربعة وعشرين ألف عنوان لمخطوطات دوَّن وصفها. وعن هذه النسخة لفلوجل، نقلت طبعة بولاق عام ١٢٧٤ هـ، والأستانة عام ١٣١٠ – ١٣١١ هـ[١٨]. وقد صنع محمد شرف الدين يالتقايا فهرسًا للأخطاء والتصحيفات التي أصابت طبعة فلوجل.

وذكر المحقق محمد شرف الدين يالتقايا طابع كشف الظنون وناشره، أنّ الكتاب طُبع بمصر أيضًا في المدة نفسها التي طبعه فيها العلامة فلوجل في ألمانيا، وأنّ طبعة مصر ظهرت فيها أخطاء كثيرة، وتابعتها بأخطائها نفسها طبعة الأستانة؛ إذ كانت نسخة طبق الأصل عن طبعة مصر.

وقد صدرت للكشف في طهران طبعة المطبعة الإسلامية بطهران، وهي باسم «الطبعة الثالثة بطهران»، و تزيد على طبعة إسطنبول بمقدمة مفيدة للسيد آية الله العظمى شهاب الدين النجفي. وهذه الطبعة تقع في خمسة أجزاء مع الذيول، وعن طبعة طهران أخذت عدة طبعات مصورة.

وفي القرن العشرين نهض لطبعه محمد شرف الدين يالتقايا أحد المدرسين في جامعة إسطنبول والمعلم رفعت بيلكه الكليسلي رفعت في إسطنبول في عام ١٩٤١– ١٩٤٣م، في مجلدين كبيرين، إذ تعد هذه الطبعة أصح الطبعات وأكثرها دقة وتنقيحًا.

١٥–المرجع نفسه ص. ١٠.

١٦–الدكتور عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، فلوجل، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م)، ص. ٤١٢.

١٧–عبد الحميد حمودة، الناشر العربي، تاريخ الإصدار: ١ – أكتوبر ١٩٨٦م، العدد: ٧، ص. ١٧٧.

١٨–م. ت. هوتسما وآخرون؛ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

وموجز دائرة المعارف الإسلامية – الجزء الحادي عشر. الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري. ص. ٣٣٧٢.

رابعًا- ترجمة المستشرقين لكتاب «كشف الظنون».

ذكر محقق كتاب كشف الظنون محمد شرف الدين يالتقايا من خلال اطلاعه على مقدمة طبعة فلوجل أنّه ذكر أنّ العالم الفرنسي بِتيسدفلا كرويكس معلم العربية في المدرسة الباريسية قد ترجم كتاب كشف الظنون إلى اللغة الفرنسية.[١٩]

وقد امتاز كتاب كشف الظنون بمقدمته المهمة التي فصل فيها ماهية العلم وأقسامه وفروعه وأحواله، حتى حازت شهرةً واسعة بين العلماء عامّة والباحثين الغربيين خاصة، فشرعت بعض مراكز الأبحاث الغربية بترجمتها مبكرًا، كما ترجمها كلها مركز الأبحاث الألماني في (أنسيكلوبيديا فون همر) إلى اللغة الألمانية، وقد طُبِعت هذه الترجمة في ليبزج عام ١٨٠٤م.[٢٠]

وترجمه أيضًا ثلة من المستشرقين أشهرهم فلوجل الذي ترجم الكتاب إلى اللاتينية، وطبعت هذه الترجمة سنة ١٨٨١م، و ترجمه مستشرقون آخرون من هولندا، وألمانيا، وبريطانيا.

خامسًا- أثر «كشف الظنون» في دراسات المستشرقين.

لاقى كتاب كشف الظنون عناية مبكرة من جانب المستشرقين، وقد عَدّوه أهم مصدر ببليوغرافي لمعظم الأعمال الاستشراقية المتعلقة بالتراث الإسلامي، وتجدر الإشارة هنا إلى تأثيره في أهم عمل استكشافي جمعي استشراقي في القرن السابع عشر.

وهو أهم كتاب استند إليه المستشرق الفرنسي بارتملي هربلو الذي عوَّل عليه في معظم تراجمه في كتابه (المكتبة الشرقية)، واستمد منه كذلك عنوان الكتب.[٢١]

واستعان كذلك هربلو في تأليف كتابه هذا بمصادر عربية وفارسية وتركية. ككتب التاريخ والوفيات والبلدان، ومنها: «روضة المناظر» لابن الشحنة، و«تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية» للشيخ جرجس بن العميد، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، وغيرها.

وقد وصف هربلو كتاب كشف الظنون بأنه جامع الغث والسمين، وقد عد بعض المستشرقين هذا الوصف له بالجائر، وأنه غمط الكتاب حقه رغم أنّ هربلو اعتمد عليه كليًا في إعداد كتابه (المكتبة الشرقية)، بل استمد جل ما في كتابه من هذا الكتاب.[٢٢]

ومن الذين اعتمدوا على كتاب كشف الظنون في دراساته وأبحاثه المستشرق الفرنسي سِديو، إذ اهتم بالعلوم التطبيقية والتجريبية التي أبدع فيها العلماء المسلمون كعلوم الفلك والطب والرياضيات والجغرافية، فقد نشر أبحاثًا كثيرة يثبت فيها أن العرب هم من أصلوا لعلم الفلك بعد اليونان، وهم أصحاب التجارب المهمة في إثبات دوران الأرض، وحركة النجوم، وأسماء الكواكب، وخطوط الطول والعرض.[٢٣]

وكان له أثره أيضًا في حركة الاستشراق، فقد كان مصدرًا رئيسًا للمستشرق الألماني ريسكه في كتابه (مدخل عام إلى تاريخ الإسلام) في القرن الثامن عشر. وكان ريسكه عاكفًا على دراسة المخطوطات

١٩- محمد شرف الدين يالتقايا، مقدمة كشف الظنون، طبعة إسطنبول. ص ١١.

٢٠- عبد الحميد حمودة، الناشر العربي، تاريخ الإصدار: ١ - أكتوبر ١٩٨٦م، العدد: ٧، صفحة رقم ١٧٧.

٢١- الدكتور عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، هربلو، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م)، ص. ٦٠٣.

٢٢- الدكتور محمد رجب البيومي، حاجي خليفة وكشف الظنون، مجلة الأديب، (١- سبتمبر- ١٩٨٠م، العدد ٩-١٠).
والدكتور إياد سالم السامرائي، كتاب كشف الظنون https://vb.tafsir.net/forum

٢٣- الدكتور عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، سِديو، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م)، ص. ٣٤٥.

العربيـة، الأدبية منها والعلمية، وقـد ترجم المعلقات، وأفرد معلقة طرفة بن العبد، وأولاها كثيرًا من العناية والدراسـة كانـت مفيـدة لدارسـي الأدب العربي فيما بعد، وقد اهتم بكتاب حاجي خليفة (تقويم التواريخ)، وأفـرد مقدمتـه بترجمـة شاملة، وهي مقدمـة تشتمل على تفاصيل مهمة عن التاريخ الإسلامي، وقد ظهرت طبعـة هـذه الترجمـة عـام ١٧٦٦م، وفي هـذه الطبعـة أضـاف ريسكه إلى الترجمة مصطلحات جديدة يعرف بهـا الدراسـات الشرقية، وهو فيهـا يرفض مصطلح (الشـرق أو الشرقيـات)، لأنهـا في رأيـه غـير دقيقة، ويستبـدل بها مصطلحـي (محمـدي وإسلامي)، لأن الأمـر يتعلق بتاريخ المسلمين وليـس الشرق فقط، بل يتعلق الأمر بكل موطن للمسلمين في المغرب وأوربا.[٢٤]

وقـد تنبـه إليـه أيضًـا المستشـرق الألمـاني فلوجل، فعكـف على تحقيقـه ونشره في سبعة مجلـدات توالت في الصدور مـن ثلاثينيات القرن التاسـع عشر حتى نهاية خمسينياته، وهو ما يؤكد المكانة العلمية للكتاب والمنزلة التي يحتلها بوصفه سجلًا شاملًا للمعرفة الإسلامية[٢٥].

وكان العـالم المستشرق الفرنسـي كرّاديفو مهتمًا باللغـات الساميـة والفكر الفلسفـي الإسلامي، وله في ذلـك كتب عدة، وكذلك اهتم بتاريخ العلوم عند العرب، ولهذا اعتمد اعتمادًا كبيرًا على كتاب كشف الظنون في معرفة الكتب والمؤلفات العلمية عند المسلمين، واستمد كثـيرًا منها من كتاب الكشـف، وساعده كتاب الكشف أيضًا على تذليل ترجمة بعض المؤلفات العلمية العربية وتحقيقها، وقد حقق كتاب (الحِيل) لأهرن السكندري، باريـس، سنـة ١٨٩٤م. وكتـاب (رسالة صفـي الدين عبـد المؤمن البغدادي في التأليـف الموسيقي)، باريس، عـام ١٨٩١م. وقـد ترجم كتاب (التنبيـه والإشراف) للمسعودي، باريس، عـام ١٨٩٨م. وترجم (القصيدة العينية في النفس) لابن سينا، عام ١٨٩٩م.

وممّـن استعانـوا بكتاب كشف الظنـون في تآليفهم في موضوعـه نفسـه؛ وهـو تصنيفهـم وفهرستهـم للكتب العربيـة القديمة، الألماني بروكلمان في تصنيفه: «ملاحـق تاريـخ الأدب العربـي»، وكذلـك سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، والزركلي في معجمـه «الأعلام»، وهو متداول بكثر، ومحمد رضا كحالة في معجمه «معجم المؤلفين».

نتائج البحث

– يُعدُّ حاجي خليفة بين أوساط علماء عصره ومن بعدهم وكذلـك عند المستشرقين جامع العلوم التي سبقته في صـدره وكتبه، وهو أيضًا صاحـب الفضل في التعريف بها وبكتبها ومؤلفيها، وذلك لسعة اطلاعه وقراءته وكثرة سفره واطلاعه على المكتبات المتعددة في أمصار مختلفة.

– يُعَدُّ كتاب حاجي (كشف الظنون) مكتبة لأسماء الكتـب ومؤلفيهـا وموضوعاتهـا ومحتوياتهـا، حفظ فيها التراث الإسلامي والعلمي، وعرّف الناس بأسماء كتب علوم كثيرة وفنون دقيقة ومهمة، فقد أحصى فيه مؤلفـه من عناويـن الكتـب ١٤٥٠١ بالعربية والتركية والفارسيـة، و ٩٥١٢ من أسمـاء المؤلفين ونحو ٣٠٠ علم، فهو سجـلٌّ تاريخي للعلوم والمعـارف منذ ظهور الإسلام حتى القرن الحادي عشر.

– ولحاجـي خليفة في مؤلفاته مزيَّة تاريخية مهمة، وهي أنه ينقل صورة واقعية عن حال الدولة العثمانية في عصره، ولا سيما حـال نظامها الإداري والرسمي، وقـد تنقـل في دوائـر الدولـة آنـذاك مما جعلـه خبيرًا بأسرارهـا وخفاياها، ومطلعًا علـى أساليب المعاملات في أروقتهـا، ولا سيما نظام الجيش، وهذا سهل عليه أن يكون في مؤلفاته ناقدًا مدققًا محللًا.

٢٤–الدكتـور عبد الرحمن بدوي، موسوعـة المستشرقين، ريسكه، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م)، ص. ٣٠٠.

٢٥–فاطمـة حافـظ، التأريـخ للمعرفـة الإسلاميـة https://islamonline.net

– يمثل حاجي خليفة قيمة علمية للثقافة الإسلامية التي عرف علماؤها وباحثوها فضله وقيمته متأخرين، فانكبوا عليه يحققون كتبه، ويقدمون لها بالشرح والتعريف بالمؤلف وآثاره العلمية الثمينة، أما المستشرقون فعرفوا فضله بوقت مبكر، وعمل بعضهم على نقل كتبه من رفوف المخطوطات إلى المطابع، وعرفوا قيمته أيضًا بوصفه جامعًا لكل العلوم السابقة ومؤلفاتها وعلمائها في كتبه، فانبهروا به، وأشادوا بأعماله، واستفادوا منها في دراساتهم ومؤلفاتهم حول الدراسات الإسلامية بمختلف أصناف العلم.

– سهّل كتاب كشف الظنون طريق الإلمام بجميع المصنفات الدائرة في أي موضوع من موضوعات العلم، ورتبها كي يسهل التعويل عليها والاستفادة منها.

– يُعَدُّ كتاب كشف الظنون معجمًا بيليوغرافيًّا ضخم جمع فيه جميع العلوم ومؤلفاتها ومؤلفيها، بشهادة كثير من الباحثين، وقد عدَّه معهد المخطوطات العربية في كتابه «كشف الظنون» رمز البيليوغرافيا والتصنيف الإسلامي للعلم في مؤتمر عقده حول حاجي خليفة، في آذار ٢٠١٥م.

– ويُعدُّ «كشف الظنون» المرجع الوحيد إلى اليوم في الكشف عن الكتب القديمة، ومن أتى بعده عالة عليه، وقد نال إعجاب الباحثين في التراث العلمي الإسلامي من الشرق والغرب.

– حَظِيَ كتاب كشف الظنون باهتمام العلماء والباحثين والمعلمين بعد وفاة كاتبه بزمن قصير، فقد نهض لطباعته في وقت مبكر في القرن التاسع عشر المستشرق الألماني فلوجل، وتبعه بعد ذلك باحثون كثر اهتموا بطباعة الكتاب طبعات عدة.

– عرف المستشرقون قيمة الكتاب العلمية والتاريخية، فنهضوا لترجمته إلى الفرنسية والألمانية.

– بدا أثر كتاب كشف الظنون في كثير من أعمال المستشرقين، فقد استندوا إليه في تأليفهم وتصنيفهم لموضوعات الكتب والمخطوطات الإسلامية في جل العلوم.

المراجع

– دائرة المعارف الإسلامية، (الشارقة، ١٩٩٨م)، مجلد ١٣ / ١٩٢.

– عبد الحميد حمودة، الناشر العربي، (تاريخ الإصدار: ١ – أكتوبر ١٩٨٦م، العدد: ٧).

– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، فلوجل، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م).

– م. ت. هوتسما وآخرون؛ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

– محمد رجب البيومي، حاجي خليفة وكشف الظنون، مجلة الأديب، (١– سبتمبر– ١٩٨٠م، العدد ٩–١٠).

– محمد شرف الدين يالتقايا، مقدمة طبعة كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (إسطنبول، ١٩٤١م)، من نسخة مصورة عنها طبعة (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

– محمود عبد القادر الأرناؤوط، مقدمة تحقيق كتاب سُلَّم الوصول إلى طبقات الفحول، حاجي خليفة، (إستانبول، شركة يلدز للنشر والإعلام، ٢٠١٠م).

– F. Bablinger. Ein turkischer stiftungsbrief des Nekesi. Mog. 1 / 163. Wien 1922.

– إياد سالم السامرائي، عن كتاب كشف الظنون https: / / vb.tafsir.net / forum.

– فاطمة حافظ، التأريخ للمعرفة الإسلامية https: / / islamonline.net.

الشبكات المائية في حدائق القصور العربية التاريخية

د. مهـــا الشَّـــعَّار*

الملخص

تُعَدُّ صعوبة جمع المعلومات الهندسية الدقيقة المتعلقة بتمديد الشبكات المائية من أكبر العقبات التي تواجه الباحث، إذ لا يظهر إلا الأجزاء النهائية من هذه الشبكات للعيان، فكان الوصف يتركز على الجزء النهائي الظاهر منها، بينما يختفي الجزء الأعظم منها تحت الأرض وفي الجدران.

لذا وجب على الباحث المختص قراءة كثير من المصادر التراثية الإدارية والتاريخية والجغرافية وكتب الرحلات لاستخلاص بعض اللمحات العابرة أو الإشارات السطحية المشتتة هنا وهناك في بطون هذه الكتب، كما وجب عليه الاستعانة بنتائج التنقيبات الأثرية والدراسات الحديثة لإتمام هذا الوصف، ثم جمعها ومقارنتها بعضها ببعضٍ للتوصل إلى وصف يكون أحيانًا غير متكامل لشبكة معينة.

سنتحدث في هذا البحث عن شبكات إمداد المياه العذبة التي أقامها المهندسون العرب المسلمون في بعض حدائق القصور العربية التاريخية التي وقع اختيارنا عليها لأنَّها حظيت باهتمام زوار القصر والشعراء، فوصفوا ما رأوه فيها في مخطوطاتهم، فقدموا بذلك بعض المعلومات الهندسية المهمَّة أفدنا منها في بحثنا هذا للكشف عن إنجازات مهندسينا ودقة حساباتهم التي وإن لم نجدها في أيِّ مخطوطة مكتوبة نستطيع تلمسها في دقة إنجازها.

* أستاذة في معهد التُّراث العلْميّ العربي – جامعة حلب.

مقدمة:

تميزت الحضارة العربية الإسلامية باهتمامها بالجانب التطبيقي من العلوم –فضلًا عن الجانب النظري– وشجعت العاملين فيه، ورفعت من شأنهم ومكانتهم على نحوٍ عزَّ نظيرُه في الحضارات السابقة، فظهرت إنجازات تقنية وهندسية رائعة أدهشت العالم، وكانت نواة لاختراعات جديدة في العصر الحديث، ولكن للأسف اختفى قسم كبير من هذه الإنجازات لعواملَ عدةٍ (بشرية– طبيعية)، فلم ينل الجانب الإبداعي الهندسي التقني العملي نصيبه من الدراسة.

لذا جعلتُ البحث عن هذه التقنيات هدفًا لي، ووجدتُ نتيجة الاطلاع على المصادر والمراجع أن أسوار القصور العربية التاريخية التي بُنيت لسكن الخلفاء والأمراء وحاشيتهم كانت تخفي خلفها إنجازات هندسية رائعة، فحاولتُ الوصول إلى أدق وصف لها، ودرستها دراسةً تاريخيةً وهندسيّةً بغية إبراز وجهٍ مُضِيْءٍ من الأوجه المتعددة لحضارتنا العريقة.

–الشبكة المائية الداخلية في المباني:

هي جزء من شبكة توزيع المياه العامة، وهي شبكة من الأنابيب تمتد تحت أرض المبنى وفي جدرانه، وتُعنى بإمداد المستخدمين بالمياه الصالحة للاستخدام البشري وتوزيعها في أنحاء المبنى كلّها وبضغط كافٍ لاستخدامها في الأغراض المختلفة، وتصمم أقطارُ الأنابيب بحيث توفر كميات كافية من المياه، وتكون قادرة على تحمل الضغوط الداخلية المائية والخارجية، وذات سطح داخلي أملس لتخفيف الضياعات الموضعية الناشئة عن الاحتكاك الداخلي لذرات الماء بجدران الأنابيب، كما يجب أن تكون سهلة القطع والوصل لسهولة تبديلها في حالة التلف.

يركز البحث على دراسة الشبكات المائية الموزعة داخل حدائق بعض القصور العربية التاريخية، لأنه في أثنائها تظهر مقدرة المهندس العربي على التأقلم مع الاحتياجات المميزة المختلفة والمتطلبات الجديدة والحلول التي ابتدعها لحل المشاكل الهندسية التي اعترضته، وذلك بالاعتماد على ما جاء في المخطوطات العربية من وصف لها بعدِّها المرجع الرئيس، إذ إن حياة تلك القصور كانت قصيرة، فتعرضت للنهب والسلب إثر قيام حوادث الشغب والاضطرابات، ثم دب الخراب فيها بعد موت الخليفة أو الأمير الحاكم، فلم يعد بالإمكان رؤيتها أو الوصول إلى أي أثر لها.

تناولتُ في هذا البحث حدائق قصور عربية موزعة في بلدان شتى ومبنية في أزمنة مختلفة لأتمكن من متابعة مراحل تطور هندسة الشبكات المائية، وأتعرف ما طرأ عليها من تدابير جديدة، وأرجو أن أكون قد تمكنتُ من الكشف عن بعض أوجه تطور الهندسة المائية الداخلية في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

أولًا–قصر التاج في بغداد[1]:

١– موقع القصر وتاريخ بنائه:

ذكر ياقوت الحموي موقعه في مخطوطته **معجم البلدان** قائلًا: «عمد جعفر، فبنى بالجانب الشرقي قصرًا موضع دار الخلافة المعظمة اليوم، وأتقن بناءه، وأنفق عليه الأموال الجمة»[2]، أي إن القصر كان يقع على الجانب الشرقي من نهر دجلة في مدينة بغداد.

يعود تاريخ بداية بناء قصر التاج إلى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣ هـ/ ٧٨٦–٨٠٩م)،

١– للمزيد راجع:

الشعار، مها، «عجائب في قصر التاج العباسي»، مجلة التراث العلمي العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي–جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، العراق، العدد ٤٣، (ت١–ت٢–ك١) ٢٠١٩م، ص٢١٥–٢٤٦.

٢– ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، مج٢، باب التاء والألف وما يليهما، مادة «التاج»، ص٤.

وقد بُني القصر مع مبانيه والمنشآت الملحقة به على مراحل عدة بإشراف خلفاء عباسيين عدة ليصل إلى أكمل صورة له في عهد الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ / ٩٠٢-٩٠٨م).

٢- باني القصر:

ذكر ياقوت الحموي أن أول من اهتم ببناء القصر هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في عهد هارون الرشيد الذي اتخذ قصرًا واسع الفناء والفضاء، معتدل الهواء، طيب الثرى، بعيدًا عن أصوات الناس ودخانهم والروائح المنتنة، وقد **ضم القصر ٣٦٠ مرفقًا ما بين مجلس وشرفة وحجرة وموضع للتبريد بالصيف**[٣].

٣- دور القصر:

تألف القصر بعد الانتهاء من بنائه في عهد الخليفة العباسي جعفر المقتدر بالله الذي تولى الحكم عام (٢٩٥ هـ / ٩٠٨م) من ثلاث وعشرين منشأة، وقد سُميت كل منشأة بدار، ذكر الخطيب البغدادي في مخطوطته **تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)**: «وقام المكتفي ببناء التاج على دجلة، وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته، ووافى المقتدر بالله، فزاد على ذلك، وأوفى مما أنشأه واستحدثه، وكان الميدان والثريا وحير الوحوش متصلًا بالدار»[٤]، وقد أورد الخطيب البغدادي وصفًا لما حوته بعض دور هذا القصر في أثناء حديثه عن زيارة رسول ملك الروم، «وكان ذلك في سنة خمس وثلاث مئة»[٥] للخليفة المقتدر بالله، الذي أصيب بالدهشة، وانعقد لسانه من كثرة ما شاهد من عجائب في هذه الدور، وقد اعتمدنا على وصفه هذا للتوصل إلى وصف لشبكة تغذية بعضها بالماء العذب.

•دار الجوسق[٦] المحدث: تميزت هذه الدار بوقوعها بين بستانين من النخيل، وفي وسط الدار بركة كبيرة كسيت جدرانها الداخلية بالرصاص القلعي أي القصدير[٧]، وتدور حول البركة قناة من الماء كُسيت جدرانها الداخلية بالقصدير، فكانت تلمع الجدران من انعكاس أشعة الشمس عليها، فتبدو البركة والقناة كأنها مكسوة بالفضة، وقد بُني في البركة أربعة مجالس كانت تسمى طيارة.

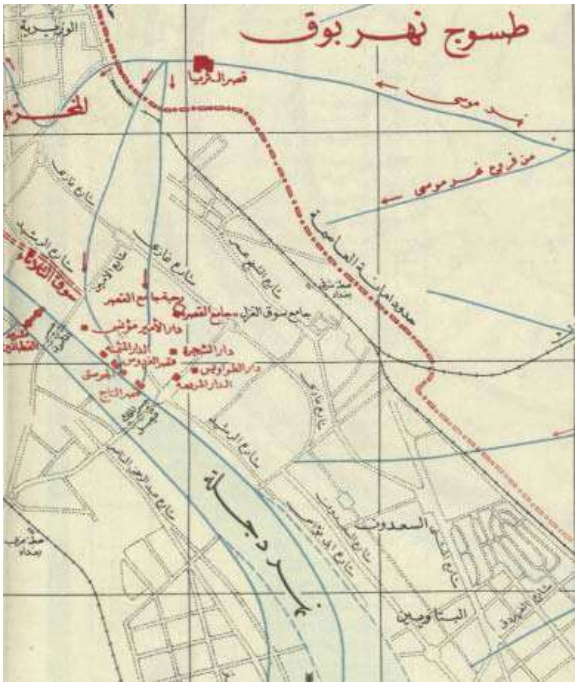

خريطة توضح موقع دور قصر التاج[٨]

٣- مكية، محمد، بغداد، دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٥م، ط١، ص٣٠.

٤- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، مج ١، ص٤١٦.

٥- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، مج ١، ص٤٢٤.

٦- الجوسق: القصر الصغير.

مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، حرف الجيم، مادة «جوسق»، ص١٤٧.

٧- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. مكتبة المثنى، بغداد، مادة «رصاص»، ج٢، ص١٤٠.

٨- سوسة، أحمد، أطلس بغداد، مطبعة مديرية المساحة العامة، بغداد، ١٢٧١هـ / ١٩٥١م، ص١٥.

والطيارة عبارة عن حجرة خشبية أو بنائية صغيرة كثيرة الفتحات الجانبية، أو قد تكون مفتوحة من جهاتها الأربع حتى تكون شديدة التهوية، وكان من المعتاد أن تُعمل مطلة على بركة من البرك ليتمتع أصحابها بنسيم الصيف في أيام الحر، وربما كانت الطيارة مكشوفة بغير سقف، وحولها درابزين من خشب الخرط، ويتم الوصول إليها بسُلَّم داخلي[٩]، لكن طيارات دار الجوسق بُنيت داخل البركة، واحتوت على مجالس مذهبة مزينة بقماش دبيق[١٠] مطرز، وكانت تحيط بكل طيارة ستائر دبيقية مذهبة، وكان الجالس في هذه الطيارات يُطل على بستان كبير يحيط بالبركة فيه أربعمئة نخلة، طول كل واحدة نحو ٢,٥م، وقد كُسيت جذوعها من أصلها إلى قمتها بخشب الساج المنقوش بحلقات من النحاس المذهب، مما يعكس أشعة الشمس عندما تمر عليها، فتلمع بانعكاسات جميلة تخلب الأبصار.

ذكر الخطيب البغدادي: «الجوسق المحدث، وهي دار بين بُستانين في وسطها بركة رصاص قلعي، حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعًا في عشرين ذراعًا، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالدبيقي المُطرز وأغشيتها دبيقي مذهب، وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخلٌ، قيل: إن عدده أربع مئة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، وقد لُبس جميعها ساجًا منقوشًا من أصلها وإلى حد الجُمَّارُة[١١] بحلق من شبهٍ مذهبة»[١٢].

• **دار الشجرة:** سُميت بهذا الاسم نسبة إلى شجرة موجودة في وسط بركة ماء مدورة أمام الإيوان، وقد صُنعت هذه الشجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم[١٣] (أي ما يعادل نحو ١,٦٠ طن من الفضة)، وللشجرة ثمانية عشر غصنًا مصنوعة من الذهب والفضة، ويتفرع من كل غصن فروع كثيرة يتدلى منها أنواعٌ مختلفة من الجواهر المنحوتة على شكل ثمار، كما صُنعت أوراق الشجرة من الذهب والفضة، وصُبغت بألوان مختلفة، وعُلقت على الأغصان، فكانت تتمايل مع نسمات الهواء كما تتمايل أوراق الأشجار الحقيقة مصدرة أصواتًا ناعمة، كما ثُبت على أغصان الشجرة تماثيل مختلفة لطيور مصنوعة من الذهب والفضة، ومجوفة بطريقة معينة، فكانت تطلق أصواتًا مختلفة من الصفير والهدير عندما تتخللها نسمات الهواء، «وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة، مدورة فيها ماء صافٍ، وللشجرة ثمانية

٩- رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، مادة «طيارة»، ص١٨٥.

١٠- قماش دبيق: نسبة إلى دَبِيق، وهي «بليدة كانت بين الفرما (بور سعيد الآن) وتنيس، من أعمال مصر، تنسب إليها الثياب الدبيقية».

ياقوت الحموي، معجم البلدان، حرف الدال، مادة «دبيق»، ج٢، ص٤٣٨.

والثياب الدبيقية: «هي ثياب كانت تتخذ بها رقيقة، وكانت العمامة منها طولها مئة ذراع، وفيها رقمات منسوجة بالذهب، يبلغ ما في العمامة خمس مئة دينار، سوى الحرير والغزل».

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، حرف الدال، مادة «دبق»، حاشية الشارح. ص٥٢٣.

١١- الجُمَّارُ: شحم النخيل.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت٣٩٢هـ)، الصحاح، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، حرف الجيم، مادة «جمر»، ص١٩٨.

وشحم النخيل: هو القمة النامية لشجرة النخيل، التي تكون في أعلى الجذع من النخلة، وتستخرج بعد قطعها، وهي مادة سليلوزية بيضاء اللون تُقطع على شكل شرائح رقيقة، ويتم أكلها.

كامل، هبة، فوائد شحم النخل، مقالة منشورة على الموقع الإلكتروني: http://mawdoo3.com

١٢- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، مج١، ص ٤٢١. والشَّبَه: النُّحاس.

١٣- درهم: وحدة وزن أساسية عند العرب، وتعادل ٣,١٨٣٥٧١ غرام.

فاخوري، محمود وخوام، صلاح الدين، موسوعة وحدات القياس العربية الإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠١م، مادة «درهم»، ص٥١.

عشر غصنًا، لكل غصن منها شاخات[١٤] كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مُذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورقٌ مختلف الألوان يتحرك كما تُحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر»[١٥]، «وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم عليها أطيار مصنوعة من الفضة، تُصفر بحركات قد جُعلت لها»[١٦].

٤- التحليل الهندسي للشبكة المائية المغذية لبعض حدائق دور القصر:

كانت دور قصر التاج تستمد مياهها من الفروع الثانوية المنبثقة من نهر موسى أهم فروع (نهر بين)، وهو أحد الفرعين الرئيسين المنبثقين من نهر النهروان اللذين كانا يغذيان شبكة الأنهار التي تتغلغل في قلب مدينة بغداد الشرقية[١٧].

بلغت أبعاد البركة في حديقة دار الجوسق المحدث كما ذكر الخطيب البغدادي (طول البركة ثلاثون ذراعًا في عشرين ذراعًا)، ونعلم أن الذراع الواحدة تعادل تقريبًا ٥٠ سم في وقتنا الحاضر[١٨]، فتكون أبعاد البركة نحو (١٥×١٠م)، ولم تذكر المصادر عمقها، إلا أنه إذا فرضنا أن عمقها كان ٢م على أقل تقدير لأنَّها تزين باحة قصر ملكي وهي مكان لاستراحة ملكية، فهذا يعني أنها كانت تتسع لـ (٣٠٠م^3) من الماء، وكانت المياه تصل إلى البركة الواسعة عن طريق قناة تحيط بالبركة، وكانت الدار تقع بين بستانين زرع فيهما ٤٠٠ شجرة نخيل.

بالعودة للدراسات الحديثة وجدنا دراسة أجراها قسم الإرشاد المائي في هيئة الري والصرف بمحافظة الأحساء، واستمرت لمدة ثلاث سنوات توصلت إلى أن الكمية المناسبة لري النخلة في السنة الواحدة هو ٦٣ مترًا مكعبًا من المياه، وأن النخلة تستهلك مياها أكثر في فصل الصيف تزيد على فصل الشتاء، وتُعطى النخلة ٢٠٠ لترًا يوميًا أي ما يعادل ٤٤ مترًا مكعبًا للهكتار يوميًا خلال أشهر الصيف بداية من شهر مايو حتى نهاية شهر سبتمبر، وفي شهر الشتاء تعطى النخلة ١٥٠ لترًا يوميًا أي ما يعادل ٣٣ مترًا مكعبًا للهكتار يوميًا خلال أشهر الشتاء من بداية شهر أكتوبر حتى نهاية شهر أبريل مع العلم أن عدد النخيل في الهكتار ٢٢٠ نخلة[١٩].

وإذا كان عدد أشجار النخيل في بستاني الدار ٤٠٠ شجرة، فهذا يعني أن مساحة البستانين كانت نحو هكتارين، وإذا كان الهكتار الواحد يستهلك ٤٤ م^3 يوميًا، فهذا يعني أن استهلاك المساحة المزروعة بأشجار النخيل يوميًا من الماء يساوي ٨٨ م^3، أي وجب على المهندس المنفذ لهذه الدار أن يؤمن نحو ٤٠٠م^3 يوميًا من الماء للبستانين والبركة، أي إنه قام ببناء خزانات تجميع للمياه بحجم ٤٠٠م^3، وعلى الأغلب أنه قد قسم هذه الخزانات إلى قسمين للتقليل من حجمها، بُني كل قسم في نهاية كل بستان تخفيه أشجار النخيل الباسقة، لذا فلم يرد ذكرها أثناء

١٤- شاخات: من شاخه وهي كلمة فارسية، وتعني غصن الشجرة. كسرائي، شاكر، قاموس فارسي-عربي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، حرف «ش»، مادة «شاخه»، ص٣١١.

١٥- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، مج١، ص٤٢٢.

١٦- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، مج ١، ص ٤١٦- ٤٢١.

١٧- سوسة، أحمد، تاريخ حضارة وادي الرافدين، وزارة الري، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٣٨.

١٨- فاخوري وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية الإسلامية، مادة «ذراع»، ص١٠٠.

١٩- دراسة علمية، «كمية المياه المستخدمة في ري النخيل في المملكة تفوق احتياجاتها بنسبة ١٠٠٪»، جريدة الرياض، السعودية، العدد ١٤٨٥٢، السبت ٢٦ صفر ١٤٣٠هـ - ٢١ فبراير ٢٠٠٩م، https://www.alriyadh.com/

الحديث عن الدار، وبذلك تم الحفاظ على جمالية المشهد وروعته للجالسين في الطيارات.

ومن كل خزان امتد أنبوب رئيسي بقطر كبير ليصل إلى صفوف أشجار النخيل، فيتفرع منه شبكة من الأنابيب لري أشجار كل بستان بالماء العذب، ثم تندمج الشبكتان مرة أخرى بعد أن تخرج من البستانين لتصبحا أنبوبين رئيسين مرة أخرى يسيران تحت الأرض حتى يصلا إلى القناة المحيطة بالبركة فيصبا فيها، ومن هذه القناة يخرج أنبوب ليزود البركة التي بُنيت الطيارات داخلها بالماء.

كما وجب على المهندس المنفذ أن يؤمن المياه لبركة الماء المدورة التي تزين باحة دار الشجرة أمام الإيوان، لم تذكر المصادر أيّ أبعاد للبركة، ولكن يمكن القول إنها كانت واسعة وعميقة بما يليق بقصر ملكي وبالشجرة الفضية المغروسة في وسطها التي يتفرع عنها ١٨ غصنًا من الفضة، والتي بلغ وزنها ما يعادل نحو ١,٦٠ طن من الفضة.

ثانيًا–قصر ابن طولون في القاهرة[٢٠]:

١– موقع القصر وتاريخ بنائه:

بنى أحمد بن طولون (تولى حكم مصر ٢٥٤–٢٧٠هـ / ٨٦٨–٨٨٤م) قصره فوق ربوة صخرية تُدعى بجبل يشكر الواقع في الجهة الجنوبية من القاهرة (حي السيدة زينب اليوم)[٢١]، إذ بحث عن مكان منعزل فسيح الأرجاء لبناء قصره، فوجد غايته فيما يُعرف اليوم بميدان صلاح الدين الذي عُرف بـ (الرميلة–قره ميدان–المنشية)، وكان هناك مقبرة تمتد على مساحة واسعة، فأمر بحرث ما فيها من قبور، واختط موضعها قصرًا عظيمًا، وحوّل السهل الواقع بين القصر وجبل يشكر إلى ميدان كبير، فسُمي القصر كله بالميدان[٢٢].

تحدث ابن تغري بَرْدي في مخطوطته **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** عن القصر، فأرجع بناءَه إلى عام ٢٦٢هـ / ٨٧٥م، وأوضح أن سبب «بناء ابن طولون القصر والقطائع كثرة مماليكه وعبيده، فضاقت دار الإمارة عليه، فركب إلى سفح الجبل، وأمر بحرث القبور، واختط موضعها وبنى القصر والميدان، ثم أمر لأصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حول قصره وميدانه بيوتًا، واختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط –أعني بمصر القديمة–»[٢٣].

٢– باني القصر:

هو أحمد بن طولون التركي، عمل في خدمة الخلفاء العباسيين (المستعين بالله، المعتز)، ثم ولي على مصر سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م[٢٤]، وبعد وفاته سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٤م تولى حكم مصر والشام والثغور ابنه أبو الجيوش خمارويه، وهو لا يزال في العشرين من عمره بعد وفاة والده، فسكن في قصر أبيه، فغير، وزاد، وهدم منشآت أبيه ليعيد بناءها على نطاق أعظم.

٣– بستان القصر:

أنفق خمارويه ما ادخر والده من أموال على ملذاته ومسراته، وكذا ما كان يأتيه من الخراج بعد أن عكف

٢٠– للمزيد راجع:

الشعار، مها، «عجائب هندسية وتقنية من القصر الطولوني»، مجلة إحياء التراث العلمي العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، (العدد الخاص بوقائع المؤتمر الدولي العلمي الثالث (الافتراضي) لتاريخ العلوم عند العرب)، ٢٠٢٠م، ص ٥٦٩–٥٨٤.

٢١– عكوش، محمود، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، ص١٥.

٢٢– فرغلي، أبو الحمد محمود، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م، ص٨٦.

٢٣– ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ج٣، ما وقع من الحوادث سنة ٢٦٢، ص١٥.

٢٤– المديني البلوي، عبد الله بن محمد، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق وتعليق محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص٤٢.

على كل ألوان المتعة والمسرة[٢٥]، فكان من الأمور التي أحدثها في القصر، والتي أنفق عليها الكثير أن حوّل الميدان المجاور لقصر أبيه إلى بستان رائع الجمال، فهندسه هندسة بديعة، وقسمه إلى أقسام:

القسم الأول-ركن الزهور: أمر بأن يُزرع في ركن منه أنواع الرياحين والورد والزعفران وأصناف الشجر، وحُمل إليه كل صنف من الشجر المطعم، والأكثر إبداعًا هو غرس أنواع وألوان من الريحان المتعددة بحيث تؤلف من **ألوان أزهارها كتابات مكتوبة ونقوش معمولة**، وكان البستاني يتعهدها بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، كيلا يصعب فهمها على القارئ، كما أشار ابن تغري بردي: «لما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون أقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه المجاور للجامع، فجعله كله بستانًا، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران... وزرع في أرض البستان من الريحان المزروع في زي نقوش معمولة وكتابات مكتوبة، يتعهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا يُشكل ذلك على القارئ»[٢٦]، ولكن للأسف لم تذكر المصادر ما هي النقوش والعبارات المكتوبة بأزهار الرياحين.

القسم الثاني-بستان النخيل: ذكر ابن تغري بردي أن خمارويه أمر بجلب أشجار النخيل من خراسان لغرسها في بستان قصره، ثم كُسيت جذوعها بكساء نحاسي مذهب حسن الصنعة، وكانت المياه تفور من أعلى جذوع الأشجار المكسوة لتنحدر، فتسقط في قنوات محفورة حول الشجر ومهيأة لاستقبالها، ثم تمضي المياه في هذه القنوات لسقاية سائر البستان، «وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها، وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فوارة، فينحدر إلى فساقي[٢٧] معمولة، ويفيض الماء منها إلى مجارٍ تسقي سائر البستان»[٢٨].

ويمكن للقارئ أن يتخيل اللوحة الفنية الطبيعية التي كانت الطبيعة ترسمها بمساعدة **مهندسي القصر المهرة** في بستان النخيل، فكانت أشعة الشمس تسقط جذوع الأشجار المكسوة بالنحاس المذهب لتنعكس عنها مارة من خلال فوارات الماء المنسدلة من جذوع الأشجار مشكلة ألوانًا وأضواء خلابة تسر الناظرين.

القسم الثالث-برج الطيور: أمر خمارويه ببناء برج من خشب الساج المنقوش الملون لإسكان أصناف الحمام والطيور المغردة والطواويس والدجاج الحبشي فيه، بعد أن حُفر في حيطان البرج فتحات وُضع فيها قواديس[٢٩] لطيفة لتكون عشًا للطيور تسكنها وتفرخ فيها، وعيدانًا مثبتة في جوانبه لتقف عليها إذا طارت، ومن سواقي المياه التي توزعت في بستان النخيل جرى تمديد قنوات لطيفة وتفريعها في ثنايا البرج لتنساب فيها المياه انسيابًا هادئًا

٢٥- أحمد، أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٠١.

٢٦- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣، ص٥٣-٥٤.

٢٧- فساقي: جمع فسقية، وهي حوض من الرخام ونحوه مستدير الشكل غالبًا في وسطه نافورة تمج الماء فيه.
رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، مادة «فسقية»، ص٢١٤.

٢٨- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣، ص٥٣-٥٤.

٢٩- قواديس: جمع قادوس، وعاء كالجرة تُخرج به الناعورة الماء من السواقي أو الآبار إلى المزارع.
مسعود جبران، الرائد، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، حرف القاف، مادة «القادوس»، ص٦١٤.

لطيفًا، فتشرب الطيور وتغتسل منها، ذكر المقريزي في مخطوطته **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: «وبنى فيه برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص، وذوقه بأصناف الأصباغ، وبلط أرضه، وجعل في تضاعيفه[٣٠] أنهارًا لطافًا جداولها، يجري فيها الماء مدبرًا من **السواقي التي تدور على الآبار العذبة**، ويسقي منها الأشجار وغيرها... فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج، وجعل فيه أوكارًا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان تفرّخ الطيور فيها، وعارض لها فيه عيدانًا ممكنة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت»[٣١].

يبدو أن خمارويه استمد فكرة برج الطيور من البيئة المحيطة به، ولكنه حسنها وجملها بشكل يليق بقصر الحاكم، فأبراج الحمام الطينية الحالية المنتشرة في ريف مصر تشبه كثيرًا من حيث الشكل والتصميم برج طيور القصر الموصوف، وتُشيد بالقرب من مناطق المياه المفتوحة.

صورة أبراج الحمام التقليدية في ريف مصر

٣٠- تضاعيف: تضاعيف الشيء أي أوساطه وثناياه.
مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ط٤، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، باب الضاد، مادة «ضعف»، ص٥٤٠.

٣١- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ج١، ص٣١٤.

٤- التحليل الهندسي للشبكة المائية المغذية للبستان:

نتبين من الوصف السابق **دقة الحسابات الهندسية** التي قام بها مهندسو القصر لتأمين المياه لكلّ أقسام بستان القصر، ونبدأ من **بستان النخيل** لأنه من خلال حديث ابن تغري بردي نتبين أن الشبكة المائية للبستان بكلّ أقسامها تبدأ من هناك.

وقد ذكر المقريزي مصدر المياه المتدفقة بغزارة في كل أنحاء البستان، وآلية رفع الماء إلى هذا المنسوب العالي أثناء وصفه لقنوات المياه الجارية في البستان، فقال: «يجري فيها الماء مدبرًا من **السواقي التي تدور على الآبار العذبة**»[٣٢]، أي إن المياه كانت مستمدة من آبار مياه عذبة، وتُستخرج بالسواقي المعروفة في مصر التي تقوم برفع المياه من منسوب منخفض إلى منسوب عال لتصبه في قناة مبنية مرتفعة (أكثر من ١٥ م)، وتجري هذه المياه في القناة لتصب في خزان مائي تجميعي، ويجب أن يكون ميل هذه القناة **مدروس بدقة** ليؤمن سرعة جريان مناسبة للماء، فلا تكون السرعة كبيرة، فتتسبب باضطرابات شديدة للماء مما يسبب حتًّا لجدران القناة، ولا تكن السرعة قليلة مما يقلل كمية المياه اللازمة لتزويد البستان بالمياه.

صورة ساقية في ريف مصر

٣٢- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، ص٣١٤.

يتراوح ارتفاع جذع شجرة النخيل عادة بين (١٠-٢٥م)[٣٣]، وبفرض أن ارتفاع جذوع أشجار النخيل كان ١٠أمتار، فهذا يعني تحديًا كبيرًا للمهندسين الذين نفذوا هذه الشبكة المائية لأنه وجب عليهم بناء خزان تجميع مائي كبير الحجم ليزود كامل أقسام البستان بالماء باستمرار، وموضوع في مكان عال بشكل كاف (أكثر من ١٥ م) لتأمين الضغط الكافي للماء حتى يستطيع الوصول إلى أعلى جذوع الأشجار متغلبًا على الضياعات الموضعية والخطية المائية المعيقة لحركة الماء، والأرجح أن الخزان وضع على سطح بناء عال جدًا مبني في ركن منزوٍ من البستان للتقليل من كمية الضياعات قدر المستطاع، ولكنه في الوقت نفسه بعيدٌ عن أعين أصحاب القصر وزواره كيلا يشوه جمال المنظر.

وقد ظهرت براعة المهندسين جلية في تمديد شبكة الأنابيب المائية التي كانت على الأرجح تبدأ بأنبوب رصاصي واحد ذي قطر كبير ينزل من الخزان ويسير حتى يصل إلى بستان أشجار النخيل، فيبدأ بالتفرع إلى فروع كثيرة بحيث يصعد كل فرع إلى أعلى جذع الشجرة مختفيًا تحت كساء النحاس المحيط بالجذع، لتخرج المياه من أعلى الجذع على شكل فوارة منحدرة إلى أحواض مائية بنوافير تتوسطها، ثم تفيض المياه منها إلى قنوات خاصة محفورة حول جذوع الأشجار لتسقي سائر البستان مكونة لوحة في غاية الجمال والإبداع.

ومن بستان النخيل كان قسم من المياه يسير بقنوات مكشوفة متفرعة لتؤمن المياه المنسابة بهدوء في قنوات لري ركن الزهور وبرج الطيور.

إن طريقة إرواء البستان بكلِّ أقسامه تدل على تطور هندسة علم المياه ودقة الحسابات الهندسية الهيدروليكية التي قام بها مهندسو القصر، فلتأمين ارتفاع الماء إلى أعلى جذوع شجر النخيل كان يجب معرفة الارتفاع الواجب تأمينه لخزان الماء الجامع لتوفير ضغط كاف لـ:

- التغلب على الضياعات الخطية والموضعية المائية الحاصلة في الأنابيب الممتدة على طول البستان.
- تأمين الضغط الكافي لصعود الماء إلى أعالي جذوع شجر النخيل.

ثالثًا-قصر المأمون بن ذي النون في طليطلة[٣٤]:

تعد دولة بني ذو النون التي اتخذت من طليطلة عاصمة لها من الدول المهمة التي قامت في عهد ملوك الطوائف في الأندلس.

١- موقع القصر وتاريخ بنائه:

يقع القصر خارج أسوار مدنية طليطلة في الأندلس بالقرب من نهر تاجة من جهة الشرق، ويستدل على موقعه من خلال ما ذُكر من أخبار اهتمام المأمون بالعلم والعلماء، «ومن جملة ما يُروى عن المأمون هذا أنه أنشأ حديقة نباتية جامعة على **ضفاف نهر التاجة بالقرب من طليطلة**، وعهد برعايتها إلى الطبيب والزراعي المشهور ابن وافد المعاصر لابن بصال، وقد جلبت النباتات من جميع أنحاء العالم، فغرست فيها، وجربت زراعتها وفوائدها الاقتصادية والطبية»[٣٥]، والجدير بالذكر أن مدينة طليطلة تقع على مرتفع منيع تحيط به أودية عميقة وأجراف عميقة، تتدفق فيها مياه نهر تاجة، ويحيط وادي تاجة بطليطلة من ثلاث جهات مساهمًا بذلك في حصانتها ومنعتها.

٣٣- مرعي، حسن، النخيل وتصنيع التمور في المملكة العربية السعودية. وزارة الزراعة والمياه، المملكة العربية السعودية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص٥٤.

٣٤- للمزيد راجع:
الشعار، مها، «استعمال المواد الثمينة في تزيين القصور العربية- نماذج مختارة-»، مجلة بحوث جامعة حلب- سلسلة تاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب، حلب، سورية، العدد١٦، ٢٠٢٠م.

٣٥- الحجاج، عادل محمد، موسوعة أعلام العرب في علوم الحيوان والنبات، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٥م، ص٥١.

لم تذكر المصادر التي تحدثت عن هذا القصر سنة بنائه، وعليه فإن القصر بُني بعد تولي المأمون الحكم سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م، إلا أنه بقي قائمًا حتى وفاة المأمون بن ذي النون، ويدل على ذلك ما ذكره المقري في مخطوطته **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** أن المأمون كان جالسًا في القبة البلورية (سنتحدث عنها لاحقًا) عندما «سمع منشدًا ينشد:

أتبني بناء الخالدين، وإنما
بقاؤك فيها لو عَلِمْتَ قليلُ
لقد كان في ظل الأراك كفاية
لمن كُلَّ يوم يقتضيه رحيلُ

فنغص عليه حاله، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي، ولم يُجلس في تلك القبة بعدها، وذلك سنة ٤٦٧، تجاوز الله تعالى عنه»[٣٦].

خريطة الأندلس في عهد ملوك الطوائف توضح حدود مملكة طليطلة

٢- باني القصر:

يُعَدُّ المأمون بن ذي النون (تولى الحكم ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) من أعظم ملوك الطوائف في الأندلس وأطولهم عهدًا؛ إذ حكم ثلاثة وثلاثين عامًا، وفي عهده اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقًا حتى بلنسية، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد، وساد بها الأمن والرخاء[٣٧]، وجمع ثروات طائلة، فبنى بعاصمته قصورًا باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها.

٣- مجالس القصر:

تألف القصر من مجالس وقد ورد وصف بعضها في المخطوطات العربية، ومن هذه المجالس:

مجلس المأمون ذو القبة البلورية:

أنفق المأمون أموالًا طائلة على قصره، فقد ذكر المقري أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة «بنى بها قصرًا تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالًا كثيرًا، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل في غلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل»[٣٨]، وفي وصف مفصل لهذه القبة ذكر المقري في موضع آخر: «وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها، وذلك أنه أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالًا طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطًا بها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع، فيرى لذلك منظر بديع عجيب، وقد قيل في هذه البركة:

«شَمْسيّة الأنساب بدريّة
يَحارُ في تشبيهها الخاطرُ

٣٦- المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ج١، ص٥٢٧-٥٢٨.

٣٧- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج٢، ص٩٧-٩٨.

٣٨- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، ص٣٥٣.

كأنّما المأمونُ بدرُ الدُّجى
وهْيَ عَليه الفَلكُ الدائرُ»[1]

أي إن المأمون أمر بعمل بحيرة ماء في حديقة القصر، وبُني في وسطها مكان لجلوسه، يُظلله قبة زجاجية مطلية بالذهب، محمولة على عمود فيه أنبوب ينقل الماء إلى أعلى القبة، فينساب الماء من أعلى القبة على جوانبها مشكلًا غلالة رقيقة شفافة من الماء، فيتمتع المأمون بصوت انسياب الماء وبمنظر انعكاس ضوء النهار على الستارة المائية المحيطة به مؤمنة له الخصوصية الكافية، وفي الليل كانت تُشعل الشموع فتُكسب انعكاسات أضوائها على الغلالة المائية الرقيقة ألوانًا بديعة خلابة.

بحيرتا ساحة القصر:

يتابع ضيف المأمون وصفه لما أبهره ولفت نظره في القصر، فيصف البحيرتين اللتين زينتا ساحة القصر، وقد وضعت منصات في أركان كل بحيرة نُصب عليها تماثيل سباع مصنوعة من الذهب الخالص، وقد أبدع صانع هذه التماثيل؛ إذ صور وجوهها مكشرة غاضبة فاتحة أفواهها، ولكن لا لتزأر، بل لتنساب المياه من أفواهها كأن قطراتها برادة من الفضة المتساقطة.

وفي وسط كل بحيرة وُضع حوض رخام كبير الحجم سُمي المذبح، ربما لأن لونه كان أحمر كلون المذبح الذي ينصبغ بلون دماء الذبائح، وقد نُقشت نقوشٌ بديعةٌ على أطراف الحوض؛ صور حيوانات وطيور وأشجار، وفي وسط كل حوض غُرزت شجرة مصنوعة من الفضة يخرج الماء من نهايات أغصانها كأنه رذاذ مطر محدثة أنغامًا تخلب الألباب، ومن قمة الشجرة يرتفع عمود ضخم من الماء عاليًا، ثم تتساقط مياهه كأنها أنصال مبارد لامعة على الصور المنحوتة، مشكلة منظرًا رائعًا يعجز اللسان عن وصفه من شدة روعته، وقد أبدع **ابن بسام الشنتريني** في وصف هاتين البحيرتين في مخطوطته **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، إذ قال: «ولهذه الدار بُحَيْرَتَان، قد نُصّتْ[39] على أركانهما صُوَرُ أسودٍ مَصوغَةٌ من الذهب الإبريز أحكمَ صياغة، تتخيّل لمتأمّلها كالحةَ الوجُوه[40] فاغرةَ الشُّدوق، ينساب من أفواهها نحو البُحيرتين الماءُ هَوْنًا كرَشيش القَطْر أو سُحَالَة اللُّجَين[41]، وقد وُضع في قعر كلّ بحيرة منهما حوضُ رخام يُسمّى المَذْبَح، محفورٌ من رفيع المرمر، كبيرُ الجِرْم[42]، غريبُ الشكل، بديعُ النقش؛ قد أُبرزتْ في جَنَبَاته صُوَرُ حيوانٍ وأطيارٍ وأشجار، وينحصرُ ماؤهما في شَجَرَتَيْ فضّة عاليتي الأصلين، غريبتي الشكل، مُحكمتي الصّنْعة، قد غُرِزَتْ كل شجرة منها وَسَطَ كل مَذبح بأدقّ صناعة، يترقّى فيهما الماءُ من المذبحين، فيَنْصَبُّ من أعالي أفنانهما انصباب رذاذ المطر أو رَشَاش التندية، فتحدثُ لمَخْرَجه نَغماتٌ تُصبي النفوس، ويرتفعُ بذرْوَتها عمودُ ماء ضخم مُنضغط الاندفاع، ينساب من أفواهها ويُبَلِّل أشخاصَ أطيارها وثمارها، بألسنة كالمبارد الصقيلة، يُقَيّد حُسْنُها الألحاظَ الثاقبةَ، ويُدع الأذهانَ الحادّةَ كليلة»[43].

٣٩- نُصت: رُفعت.

ابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم (٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ج٨، حرف الصاد، فصل النون، مادة «نصص»، ص٣٦٦.

٤٠- كالحة الوجوه: تُكشر في عبوس.

ابن منظور، لسان العرب، ج٣، حرف الحاء، فصل الكاف، مادة «كلح»، ص٤١٠.

٤١- سحالة اللجين: السحالة ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بردا.

ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، حرف اللام، فصل «السين»، مادة «سحل»، ص٣٥٠.

٤٢- الجِرم: الجسد.

ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، حرف الميم، فصل «الجيم»، مادة «جرم»، ص٣٥٩.

٤٣- ابن بسام الشنتريني، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، مج٤، ق١، ص١٣٤.

التحليل الهندسي للشبكة المائية المغذية لمجالس قصر المأمون:

نتبين من الوصف السابق للمجلس ذي القبة البلورية **صعوبة الحسابات الهندسية التي أجراها مهندسو القصر** ليؤمنوا المياه لكلٍ المنشآت الموصوفة أعلاه، يبدو أن مجلس المأمون تحت القبة الزجاجية كان واسع المساحة لدرجة أن المأمون الجالس فيه كانت لا تمسه قطرة واحدة من الماء المتساقط، وبإمكانه أن يشعل الشمع، فلا ينطفئ، والأرجح أن ارتفاع القبة الزجاجية لم يكن يقل عن المترين ونصف المتر أو أكثر لتعطي فخامة تليق بمجلس الحاكم وكذلك قطرها ليستطيع الشخص أن يقف تحتها براحة باعتبار أن قامة الإنسان تعادل ١,٧٥م وسطيًا، ويعني هذا الارتفاع أنه يجب بناء خزان تجميع مائي ليزود القبة بالماء باستمرار، موضوع في مكان عال بشكل كاف (أكثر من٣,٥م) ليؤمن الضغط الكافي للماء حتى يستطيع الوصول إلى قمة القبة متغلبًا على الضياعات الموضعية والخطية الهيدروليكية المعيقة لحركة الماء في الأنبوب الذي يخرج من الخزان ليسير تحت الأرض حتى يصل إلى البحيرة، فينقسم إلى قسمين، قسم يزود البحيرة بالماء، وقسم يكمل مسيرته حتى يصل إلى القبة البلورية الموجودة في وسط البحيرة، فيصعد داخل العمود الحامل للقبة ناقلًا الماء المضغوط إلى قمة القبة بكميات كبيرة كافية لينساب الماء على أطراف القبة، فيغلفها بستارة مائية تخفي الجالسين داخل المجلس البلوري وفي الوقت نفسه تمنحهم منظرًا رائعًا خلابًا .

كما أبدع مهندسو القصر في **تركيب شبكة خفية من الأنابيب المائية** لتغذية بحيرتي ساحة القصر تبدأ على الأرجح بأنبوب واحد ذي قطر كبير من خزان تجميع مياه كبير الحجم، مرفوع على مكان عال جدًا، يخرج الأنبوب من أسفل الخزان ليسير تحت الأرض، فيتفرع إلى فرعين ثانويين، يسير كل فرع إلى إحدى البحيرتين، وحين يصل الفرع إلى البحيرة ينقسم إلى ثلاثة فروع أصغر: فرعان يسيران على طرفي البحيرة ليؤمنا الماء المضغوط الداخل إلى تماثيل السباع المنصوبة على زوايا ذلك الطرف ليخرج الماء من أفواهها بشكل فوارات، بينما يتابع الأنبوب الثالث سيره إلى أسفل الشجرة الفضية، فيصعد نحو الأعلى ليصل إلى قمة الشجرة بعد أن يكون قد تفرع منه فروعٌ صغيرة القطر تمتد في أغصان كل شجرة لتصل إلى نهاية كل غصن، فتندفع المياه المضغوطة بقوة من نهايات الأغصان ومن أعلى الشجرة الفضية.

وللقارئ أن يتصور **مدى دقة الحسابات التي أجراها المهندسون لحساب التدفق المائي اللازم ضخه في شبكة الأنابيب هذه، ولحساب مقدار الضغط اللازم لإيصال المياه إلى كل فرع مع بقاء ضغط مائي كاف لترتفع المياه إلى قمة الشجرة بهذه القوة.**

رابعًا-قصر المنصور في بجاية:

تأسست دولة بني حماد سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٨م في المغرب الأوسط (الجزائر الآن)، وقد حكمها تسعة أمراء[٤٤]، من أبرزهم **الناصر بن علناس** (تولى الحكم ٤٨١-٤٩٨هـ / ١٠٨٨-١١٠٤م) الذي بنى العاصمة بجاية على ساحل البحر المتوسط بعد تهدم العاصمة القديمة القلعة، وخلفه ابنه **المنصور** الذي كان حكمه استمرارًا لعهد والده في الاستقرار والتحضر، فيذكر الحميري في مخطوطته **الروض المعطار في خبر الأقطار** أنه «اقتفى آثار والده في الحزم والعزم والرئاسة»[٤٥].

١- موقع القصر وتاريخ بنائه:

يقع قصر المنصور في منطقة اللؤلؤة، وقد ذُكر أن اللؤلؤة «موضع في بجاية، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة»[٤٦]، إن قِصر مدَّة حكم

٤٤- عويس، عبد الحليم، دولة بني حماد، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص١٠٩.

٤٥- عويس، دولة بني حماد، ص١٣٩.

٤٦- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، حرف اللام، مادة اللؤلؤة، ص٥١٣.

المنصور (٤٩٨-٥٠٠هـ / ١١٠٤-١١٠٦م) يؤكد لنا أن بناء القصر تم في تلك المدَّة.

٢- باني القصر:

هو الأمير المنصور ابن الناصر بن علناس، وقد وُصف بأنه كان «مولعًا بالبناء، وهو الذي حضّر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني والمصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين»[٤٧]، وكانت له مآثر في بجاية من أبرزها القصر.

٣- بركة القصر:

ذُهل الشاعر ابن حمديس الصقلي[٤٨] حين زار القصر لما رأى من روائع فيه، فوصفه بقصيدة رائعة، ومن هذه الروائع بركة القصر التي تميزت بتماثيل السباع المثبتة على أطراف البركة، والمصنوعة من معدن مطلي بالذهب الأصفر البراق، وقد فتحت أفواهها لتزأر، فيتدفق الماء منها بقوة كأنه حبات لؤلؤ يتناثر على سطح الماء، ورغم أنها تماثيل جامدة تظهر من شدة إبداع صانعها للعيون وكأنّها حيّةٌ، مستعدّة للوثوب نحو أيّ شيء يثيرها، فهي جالسة على قائمتيها الخلفيتين متحفّزةً للانقضاض على الفريسة، تستعيد ذكرياتها البطوليّة في مطارداتها، وعندما تنعكس أشعة الشمس عنها تتوهج أجسادها فتحسبها تشتعل نارًا، بينما تتحول المياه المندفعة من أفواهها إلى ألسنة من نار، وتجري الجداول والقنوات بين أيديها فكأنها تُمسك سيوفًا مسلولة قد ذابت بلا نار، وتجمعت فصارت غديرًا.

٤٧- عويس، دولة بني حماد، ص٢٧٩.

٤٨- ابن حَمديس الصقلي (٤٤٧-٥٢٧هـ / ١٠٥٥-١١٣٣م): عبد الجبار بن حمديس ولد في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية من أصل عربي أزدي، هاجر إلى الأندلس، ومدح صاحب إشبيلية المعتمد بن عباد، ثم انتقل إلى إفريقية، فاتصل ببني علناس ورجال دولتهم، ومدح المنصور بن الناصر، ثمّ انتقل إلى بجاية في أواخر عمره، وبها توفي.

ابن حمديس الصقلي، عبد الجبار (٤٤٧-٥٢٧هـ)، ديوان ابن حمديس، تصحيح وتقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت، المقدمة، ص ١ وما يليها.

وضراغمٌ سكنتْ عرينَ رئاسة
تركتْ خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غشَّى النُّضارُ[٢] جُسومَها
وأذابَ في أفواهِها البلّورا
أُسْدٌ كأن سكونَها متحرّكٌ
في النفس لو وجدتْ هناك مثيرا
وتذكرتْ فتكاتها فكأنما
أقعتْ على أدبارها لتثورا
وتخالُها والشمسُ تجلو لونها
نارًا وألسُنَها اللواحسَ[٣] نورا
فكأنما سُلّتْ سيوفُ جداولٍ
ذابتْ بلا نارٍ فعُدنَ غديرا[٤]

وفي **وسط البركة تقف شجرة عجيبة** مصنوعة من الذهب، وقد تدلى في نهاية كلّ غصنٍ من أغصانها ثمرةٌ بديعةٌ هي في حقيقة أمرها قنديلٌ مضيءٌ، في داخله تمثال عصفور جميل قد فرد جناحيه، فيظن الناظر إليه كأنّه حطّ في هذا القنديل من السماء، أو أنه يتهيّأ للهروب من القفص والطيران في السماء، وهذه الطيور هي طيور مغرّدة تستمد تغريدها الجميل من صوت المياه المتدفّقة من مناقيرها التي تبدو وكأنها خيطان من الفضة اللامعة.

وبديعةِ الثّمراتِ تعبر نحوها
عينايَ بحرَ عجائبٍ مسجورا
شجريةٍ ذهبيةٍ نزعتْ إلى
سحرٍ يُؤَثِّرُ في النهى تأثيرا
قد صَولجتْ أغصانَها فكأنّما
قَنَصَتْ لهنّ من الفضاء طيورا
و كأنّما تأبى لواقع طيرها
أن تستقلّ بنهضها وتطيرا
من كل واقعةٍ ترى منقارها
ماءً كسلسالِ اللجينِ نميرا
خرسٌ تُعدّ من الفصَاح فإن شدتْ
جعلتْ تغرّدُ بالمياه صفيرا

و كأنما في كل غصنٍ فضةٌ
لانثْ فأُرسِلَ خيطها مجروراْ

التحليل الهندسي للشبكة المائية المغذية لبركة القصر:

إن وصف ابن حمديس لحديقة قصر المنصور في بجاية يذكرنا بحديقة المأمون في مدينة طليطلة، فهناك تماثيل الأسود الرابضة على جانبي البركة والقاذفة بالماء من أفواهها، والطيور التي تتدفق نوافير مائية من مناقيرها الصغيرة وهي محبوسة في قناديل معلقة على الشجرة الذهبية المنتصبة في منتصف البركة، مما يقودنا إلى التأكيد أن الشبكة المغذية لحديقة هذا القصر كانت تشابه كثيرًا الشبكة المغذية لبركة الشجرة في قصر المأمون في طليطلة، وكأن مهندسي قصر المنصور استمدوا أفكارهم مما قرؤوه من وصف لتلك البركة الأسطورية، فنقلوا **فكرة تماثيل السباع الذهبية المجوفة** التي كانت تستعمل كنوافير للمياه، وذلك بإدخال الماء إليها عبر أنابيب مخفية لا تراها عيون المشاهدين، وتخرج المياه من أفواهها على نوافير نتيجة الضغط المائي الكبير الذي كان يجري تأمينه لها من خزانات مائية توضع في مكان عال، وإن لم يذكرها أحد لإخفائها عن أعين الزائرين، كما نقلوا فكرة **الشجرة الثمينة** التي تسري مياه الحياة عبرها لتتدفق عبر مناقير طيورها المغردة.

أخيرًا، إن ما ذكرناه سابقًا من وصف لبعض الشبكات المائية التي قام بها مهندسون مهرة استطاعوا أن يسحروا سكان القصور وزوارهم بإنجازاتهم الهندسية، وإن كان القسم الأكبر منها خفيًا عن العين إنَّ القليل الظاهر منها كان كافيًا ليشي بمدى الصعوبات التي واجهت هؤلاء المبدعين المجهولين والتي تعرّفناها في أثناء قراءة دقيقة لتفاصيل ما ورد من نصوص في المخطوطات العربية لم يكن قصد كاتبها سوى نقل ما رآه وانبهر به للقارئ.

المصادر والمراجع

– **ابن بسام الشنتريني**، علي، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

– **ابن البيطار**، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م)، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، بغداد، مكتبة المثنى.

– **ابن تغري بردي**، جمال الدين يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

– **ابن حمديس الصقلي**، عبد الجبار (٤٤٧–٥٢٧هـ)، **ديوان ابن حمديس**، تصحيح وتقديم إحسان عباس، دار صادر.

– **ابن منظور الإفريقي**، محمد بن مكرم (٦٣٠–٧١١هـ)، **لسان العرب**، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

– **أحمد**، أحمد عبد الرازق، **تاريخ وآثار مصر الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

– **الجوهري**، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٢هـ)، **الصحاح**، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

– **الحجاج**، عادل محمد، **موسوعة أعلام العرب في علوم الحيوان والنبات**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٥م.

– **الحميري**، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

– **الخطيب البغدادي**، أحمد بن علي بن ثابت، **تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

– **رزق**، عاصم محمد، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

– **سوسة**، أحمد، **أطلس بغداد**، مطبعة مديرية المساحة العامة، بغداد، ١٢٧١هـ / ١٩٥٢م.

– **سوسة**، أحمد، **تاريخ حضارة وادي الرافدين**، وزارة الري، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

– **الشعار**، مها، «استعمال المواد الثمينة في تزيين القصور العربية–نماذج مختارة–»، **مجلة بحوث جامعة حلب–سلسلة تاريخ العلوم عند العرب**، جامعة حلب، حلب، سورية، العدد١٦، ٢٠٢٠م.

– **الشعار**، مها، «عجائب في قصر التاج العباسي»، **مجلة التراث العلمي العربي**، مركز إحياء التراث العلمي العربي–جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، العراق، العدد ٤٣، (ت١–ت٢–ك١) ٢٠١٩م، ص٢١٥–٢٤٦.

– **الشعار**، مها، «عجائب هندسية وتقنية من القصر الطولوني»، **مجلة إحياء التراث العلمي العربي**، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، (العدد الخاص بوقائع المؤتمر الدولي العلمي الثالث (الافتراضي) لتاريخ العلوم عند العرب)، ٢٠٢٠م، ٥٦٩–٥٨٤صفحة.

– **عكوش**، محمود، **تاريخ ووصف الجامع الطولوني**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

– **عنان**، محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

– **عويس**، عبد الحليم، **دولة بني حماد**، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

– **فاخوري**، محمود **وخوام**، صلاح الدين، **موسوعة وحدات القياس العربية الإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠١م.

– **فرغلي**، أبو الحمد محمود، **الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة**، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م.

– **الفيروزآبادي**، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، **القاموس المحيط**، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

– **كسرائي**، شاكر، **قاموس فارسي–عربي**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

– **مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

– **المديني البلوي**، عبد الله بن محمد، **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق وتعليق محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

– **مرعي**، حسن، **النخيل وتصنيع التمور في المملكة العربية السعودية**. وزارة الزراعة والمياه، المملكة العربية السعودية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

– **مسعود** جبران، **الرائد**، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

– **المقري**، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

– **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.

– **مكية**، محمد، **بغداد**، دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، ٢٠٠٥م، ط١.

– **ياقوت الحموي**، شهاب الدين، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

المواقع الإلكترونية

–**دراسة علمية**، «كمية المياه المستخدمة في ري النخيل في المملكة تفوق احتياجاتها بنسبة ١٠٠٪»، **جريدة الرياض**، السعودية، العدد ١٤٨٥٢، السبت ٢٦ صفر ١٤٣٠هـ – ٢١ فبراير٢٠٠٩م، www.alriyadh.com/ https://

– **كامل**، هبة، **فوائد شحم النخل**، مقالة منشورة على الموقع الإلكتروني:mawdoo3.com/ http://

هوامش

١– **المقري**، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج١، ص٥٢٨– ٥٢٩.

٢– **النضار**: الذهب الخالص.

مسعود، الرائد، حرف النون، مادة «النُّضار»، ص٨٠٨.

٣– **اللواحس**: ج لاحس أي شديد.

مسعود، الرائد، حرف اللام، مادة «لاحس»، ص٦٨٠.

٤– **ابن حمديس، ديوان ابن حمديس**، ص٥٤٧.

٥– **ابن حمديس، ديوان ابن حمديس**، ص٥٤٧–٥٤٨.

ملابس الخلفاء في المخطوطات العربية حتى نهاية العهد الأموي

د. مها الشّعّار*
أحمد المرطو

مقدمة:

انصب اهتمام الإنسان قديمًا على تأمين احتياجاته الأساسية كالطعام والشراب والكساء، وربما كانت جلود الحيوانات التي اصطادها من أوائل المواد التي استعملها لتغطية جسمه وتدفئته، وساعد تطور الزراعة في تعرُّف محاصيل زراعية جديدة ومفيدة يمكن استخدامها في الكساء كالقطن والكتان، فأصبحت مصدرًا أساسيًا في عملية الغزل والنسيج والحصول على منسوجات عديدة ومتنوعة كان لها دورٌ مهمٌّ في تطور الصناعة والاقتصاد، إذ بات اللباس والزينة في مقدمة المفردات الاجتماعية التي تعكس نمط سلوك الفرد ومستواه المعيشيّ، وقد تفصح عن شيء من شخصيته وما يكون لتلك الشخصية من أثر مهم في واقع حياته العامة.

* أستاذة في معهد التراث العلمي العربي–جامعة حلب، وطالب دراسات عليا في المعهد نفسه.

ترجع صناعة الألبسة في بلاد الشرق الأوسط إلى أزمنة موغلة في القدم، وقد تطورت وتنوعت سواء في موادها الأولية أم صناعاتها تبعًا لتنوع الحضارة وتقدم المجتمع وتقدم الفنون، ولم يكن العرب بمعزل عن ذلك إلا أن كمية المعلومات التي انتهت إلينا عن أحوالها قبل الإسلام قليلة، ولم تجر عنها دراسات شاملة تكفي لتقديم صورة واضحة عنها، ولكن يمكن القول إنه كان في الجزيرة العربية منسوجات محلية متنوعة[١]، إذ امتاز ملوك العرب قبل الإسلام بلبس أصناف متعددة من ضروب الملابس الفاخرة بما يتلاءم مع أبهة الملك وجلالة السلطان، منهم على سبيل المثال ملك اليمن سيف بن ذي يزن، الذي ذكر ابن عساكر في مخطوطه **تاريخ دمشق الكبير** «أنه عندما أصبح سيف بن ذي يزن ملك لليمن أتاه وفد من قريش على رأسه عبد المطلب، فظهر عليهم وعليه بردان أخضران مرتديًا بأحدهما ومئتزرًا بالآخر»[٢].

بامتداد الفتوحات الإسلامية ووصولها إلى أقاليم وبلدان جديدة تعرف المسلمون حضارات الشعوب الأخرى وعاداتهم، واطلعوا على طرز ملابس وأنماط مختلفة باختلاف الحضارات التي تعرفوا عليها، وهكذا بدأ التأثير الأجنبي يظهر على الملابس كما ظهر في نواحي الحياة الأخرى، وربما كانت المخطوطات العربية المصدر الوحيد الذي يفيدنا في تعرُّف التغيرات التي طرأت على الملبوسات العربية خلال العهود المنصرمة.

١- ألبسة الخلفاء في العهد الراشدي:

ضمت الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام مجتمعات ذات مستويات حضارية متعددة وطرز من الأنسجة والألبسة متنوعة، لكن أغلب السكان كانوا بدوًا يشتملون بالأثواب اشتمالًا؛ لأن تفصيل الثياب وتقديرها ولحمها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها[٣].

يُعد الإسلام حدثًا تاريخيًا ومفصليًا في تاريخ العرب لأثره على كلِّ جوانب حياتهم ومعتقداتهم، ومن ضمنها نوعية المنسوجات وطرز الملابس، وكان هذا التأثير متناسبًا مع العصر الذي يواكبه، ففي عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كان التركيز منصبًا على نشر الدعوة وتثبيت أركان الحكم، وكانت أحاديث عدة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام تحث على عدم الإسراف ونهج البساطة في كلِّ نواحي الحياة، نذكر منها ما ورد في مخطوطة **صحيح البخاري** «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة»[٤]، وعن ابن عمر رضي الله عليهما أن «رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»[٥]، فكان أسلوب حياة الرسول الكريم صلى‌الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم يتسم بالخشونة في العيش، والتعفف في الطعام، والتواضع في اللباس، مما جعل المجتمع الإسلامي يحافظ على البساطة والتقشف في الملابس اتباعًا لتعاليم الرسول محمد صلى‌الله عليه وسلم واقتداء بسنته النبوية الشريفة، وقد ذكر ابن سعد في مخطوطته **الطبقات الكبرى** أن الرسول صلى الله عليه وسلم لبس أصنافًا متعددة من الملابس، ولكن بشيء من التواضع والهدوء

١- العلي، صالح أحمد، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٦.

٢- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م)، تاريخ دمشق الكبير، تحقيق: علي شيري، دار الفكر – بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ج٣ ص ٤٤٦.

٣- رشيد، صبيحة رشدي، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، المكتبة الوطنية بغداد، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨١م، ص ٥٠ وما يليها.

٤- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (١٩٤- ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، كتاب اللباس، ص ١٤٦٦.

٥- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، الحديث ٥٧٨٣، ص ١٤٦٦.

وبما يتلاءم مع مبادئ الدين الإسلامي، فلبس ملابس منسوجة من القطن والصوف والكتان بشتى أصنافها وأنواعها[٦].

سار معظم الخلفاء الراشدين على نهج الرسول الكريم صلى‌الله عليه وسلم في لبس الثياب المتواضعة، **فالخليفة أبو بكر الصديق** رضي الله عنه (١١-١٣ هـ / ٦٣٢-٦٣٤ م) كان متواضعًا في لباسه، يروي المسعودي في مخطوطته **مروج الذهب ومعادن الجوهر** أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه «كان أزهد الناس، وأكثرهم تواضعًا في أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه، وكان لبسه في خلافته الشملة[٧] والعباءة»[٨]، وذكر اليعقوبي في مخطوطته **مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر** أنه «قدم عليه أشراف العرب وملوك اليمن وعليهم التيجان وبرود الوشي والحِبَر، فلما رأى القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم، وذهبوا مذهبه، واقتفوا أثره»[٩]، كما ذكر المسعودي أنه «كان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحُلل، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما عليه وتزيا بزيه، حتى إنه رُؤي في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة»[١٠].

كما ذكر اليعقوبي أنه مما عُرف عن **الخليفة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٣م) التواضع والزهد في كلّ أعماله وأفعاله، فكان يلبس من الثياب ما خشن، فلبس الجبة الصوف، وتشمل مثل سلفه بالعباءة، «كان عمر بن الخطاب رحمه الله تعالى مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه شديدًا في ذات الله، كان يلبس الجبة الصوف، ويشتمل بالعباءة»[١١]، كما روى الراغب الأصبهاني في مخطوطته **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** «أنه شوهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب وعليه قميص فيه اثنتا عشرة رقعة»[١٢]، وذكر الإمام مالك بن أنس رحمه الله في مخطوطته **الموطأ** «قال أنس بن مالك: رأيتُ عمر بن الخطاب، وهو يومئذ أمير المدينة، وقد رقع بين كتفيه برقع ثلاثٍ لبَّد بعضها فوق بعضٍ»[١٣].

وروى اليعقوبي عن ولاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأمصار أنهم تشبهوا به، فلبسوا غلاظ الثياب، «فكان عماله وسائر من يحضره أو يغيب عنه يتشبهون به، وكان العامل من عماله، وهم أمراء الأمصار، يتحفون ويخلعون النعال ولا يلبسون الخفاف ويلبسون غلاظ الثياب»[١٤]، فكان «عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعذل على ذلك، وقيل له: إنك بالشام ووالي أمير المؤمنين وحولنا الأعداء، فغير من

٦- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج١، ص ٣٨٦-٣٩٧.

٧- الشَّملة: كساء يُشتمل به.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت٣٩٢هـ)، الصحاح، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، حرف الشين، مادة «شمل»، ص ٦١٤.

٨- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٨ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ج٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٩.

٩- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م)، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تحقيق: وليم بن ملورد رشمند، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٨٠م، ص١١.

١٠- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٢٣٥.

١١- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص ١١.

١٢- الأصبهاني، حسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، مكتبة الحياة، بيروت، ج٤، ١٣٧٩هـ / ١٩٦١م، ص ٣٦٦.

١٣- مالك بن أنس، الموطأ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي، بيروت، ط١٤٠٦،١هـ / ١٩٨٥م، ج٢، كتاب اللباس، الحديث ١٩، ص ٩١٨.

١٤- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص١١.

زيِّك، وأصلح من شارتك، فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم»[١٥]، وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن «يلبس غليظ الثياب، ويركب الحمارة ببرذعة مرسنة بحبل ليف»[١٦]، ويذكر المسعودي قصة عامله سعيد بن عامر على حمص الذي كان لا يخرج يومًا واحدًا في الشهر إلى الناس، وذلك ليغسل فيه قميصه الوحيد ويجففه، سأله عمر رضي الله عنه «قالوا: له يوم لا يخرج إلينا فيه، قال: نعم، ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يُفل فراستي فيك»[١٧].

أما الخليفة **عثمان بن عفان** رضي الله عنه (٢٣-٣٥ هـ / ٦٤٣-٦٥٥ م)، فقد وصفه ابن سعد بالأناقة في لبسه، قال: «أخبرنا سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد أنه رأى عثمان بن عفان على بغلة له، وعليه ثوبان أصفران، كما قال سُلَيْمٌ أبو عامر أنه رأى عثمان بن عفان يرتدي بردًا يمانيًا ثمنه مئة درهم»[١٨]، وكان يعير ذلك أهمية كبيرة، لهذا كانت ملابسه تتصف بالرقي وشيء من الأبهة لطباع كانت فيه، ومما يؤسف أنه لم تتوافر لدينا معلومات وافية عما كان يرتديه الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فإذا استثنينا القميص الشهير الذي قتل فيه، وأرسل ملطخًا بدمائه إلى الشام ليعلق على منبر مسجدها الجامع، فإن الإشارات التاريخية إلى ما كان يرتديه قليلة جدًا، ومن الإشارات التاريخية القليلة التي انتهت أنه كان أحيانًا يلبس الخميصة، فقد ذكر ابن سعد: «أخبرنا خالد بن مخلد قال: حدثني الحكم بن الصلت قال: حدثني أبي قال: رأيتُ عثمان بن عفان يخطب وعليه خميصة سوداء وهو مخضوب بحناء»[١٩]، والخميصة كساء أسود مربع مزين له علمان فإن لم يكن مُعلمًا فليس بخميصة[٢٠]، وقد ترك رسول الله صلى الله وسلم فيما ترك حين وفاته واحدة منها، ويبدو أن الخميصة كانت لباسًا ثمينًا بدليل الحديث النبوي الشريف «تعس عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض»[٢١].

ولم يكن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ / ٦٦٠-٦٥٥م) يختلف عمّن سبقه في الزهد والتواضع سواء كان ذلك في مأكله أم في ملبسه، فقد شوهد وهو يرتدي القمصان والأزر المرقعة والأكسية الخليطة وما شابه، فقد ذكر ابن سعد: «أخبرنا عبد الله بن نمير عن الأحلج عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: رأيت عليًا عليه قميص رازي إذا مد كُمه بلغ الظفر، فإذا أرخاه بلغ نصف ساعده»[٢٢]، ويُذكر أنه «لم يلبس في أيام خلافته ثوبًا جديدًا، ولا اقتنى ضيعة ولا ربعًا، وتوفي ولم يترك إلا سبعمئة درهم»[٢٣].

٢- أشهر الألبسة في العهد الراشدي:

كانت الألبسة في صدر الإسلام صنفين: منها ما يُقطع ومنها ما لا يُقطع، فالمقطع من الثوب كل ما يُفصل ويُخاط من قمصان وجباب وسراويل، أما ما لا يُقطع منها فكالأردية والأزار والمطارف والرباط[٢٤]، وفيما يأتي ذكر لأهم أنواع الألبسة التي كانت معروفة في تلك الفترة[٢٥]:

١٥- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٢٤٢.
١٦- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص١١.
١٧- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٢٤١ - ٢٤٢.
١٨- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٥٤.
١٩- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٥٤.
٢٠- دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، الدار العربية للموساعات، بيروت،١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، ط١، ص ١٥١.
٢١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، الحديث ٢٨٨٦، ص ٧١٢.
٢٢- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ك، ص٢٥ - ٢٨.
٢٣- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٢٦.
٢٤- رشيد، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، ص ٥٠ وما يليها.
٢٥- عابدين، علية، تطور الأزياء عبر العصور، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ١٦٠.

أ- غطاء الرأس: تنوعت أغطية الرأس في ذلك الوقت، أهمها:

العمامة: العمامة لباس معروف وهي كل ما يُعصب به الرأس، وهي لفظة مفردة والجمع عمائم، ويقال عمم الرجل أي لبس العمامة وعمم كدلالة على الحسن والزينة[٢٦]، وقد ذكر الجاحظ قولاً لعلي رضي الله عنه في مخطوطته **البيان والتبيين**: «جمال الرجل في عِمَّته، وجمال المرأة في خفها»[٢٧]، وفضلاً عن صفة الجمال الخاصة بالعمامة، كانت العمامة ترمز أيضًا للسيادة والشرف والسلطان، فيقال عمم الرجل، أي تسيّد لأن العمائم تيجان العرب كما كانت التيجان عند الفرس[٢٨].

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «العمائم تيجان العرب»[٢٩]، وللعمائم أيضًا وظائف أخرى، فهي (جُنَّة في الحرب، ومكنة في الحر، ومدفأة من القر، ووقار في الندِيِّ، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة، وهي بعد عادة من عادات العرب)[٣٠].

وقد كان سادات العرب قبل الإسلام يلبسون ألوانًا معينة من العمائم تمييزًا من سائر الناس، منها مثلاً العمائم الحمراء، أو العمائم الصفراء التي كانت تحمل من مدينة هراة - إحدى مدن بلاد فارس، وبها اقترنت تسميتها[٣١]، إذ كان يطلق عليها اسم العمائم الهراتية المتميزة باللون الأصفر، حتى يقال أحيانًا: (هريت العمامة لبستها صفراء)[٣٢]، ويبدو أن صفة التمييز في ألوان العمائم استمرت حتى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، فكانت عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء اللون، وتسمى السحاب لخفتها تشبيها بسحاب المطر الذي ينسحب في الهواء إذ ذكر ابن عساكر في مخطوطه «عن أبي الزبير عن جابر قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعليه عمامة سوداء»[٣٣]، كما لبس الرسول صلى الله عليه وسلم العمامة السوداء والخضراء، ولبس سادة العرب العمائم الصفر، ولبس العمامة البيضاء والحمراء، وكانت تزين العمامة أحيانًا بنقوش نباتية أو هندسية[٣٤]، وكانت العمامة تخاط خياطة؛ إذ ذكرها البخاري في مخطوطته **صحيح البخاري** في حديث للرسول الكريم أنها محرمة على المُحْرم، ومن المعلوم أن المُحْرم من الرجال لا يجوز أن يلبس ثيابًا مخيطة. أخبرني سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يلبس المُحرم القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البُرنس...»[٣٥].

- **البُرنُس**: وهي قلنسوة طويلة، وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام[٣٦] كما عرفها الجوهري في مخطوطته **الصحاح**.

القلنسوة: وكانت توضع على الرأس تكويرًا[٣٧].

ب- ثياب البدن: أشهرها:

الإزار: لبسه الرجال في العصر الإسلامي، وهو رداء يلف به البدن من الأسفل، ويختلف في الطول

٢٦- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١٢ م)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، الجزء السادس وثلاثين، حرف العين، فصل الميم، مادة «عمم»، ص ٣١١١.

٢٧- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م)، البيان والتبيين، بغداد، دار الفكر، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٨م، ج٢، ص ٨٨.

٢٨- ابن منظور، لسان العرب [ع م م].

٢٩- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أبي الفتح أحمد (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م)، المستطرف في كل فن مستطرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م، ص ٢٨٨.

٣٠- الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص ٩٧.

٣١- ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت، ط ٥، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج٥، الحرف الهاء، باب الهاء والراء وما يليهما، المادة: هراة، ص ٣٩٦.

٣٢- المرجع السابق.

٣٣- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ج٤، ص ١٨٨.

٣٤- رشيد، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، ص ٥٠.

٣٥- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب العمائم، الحديث ٥٨٠٦، ص ١٤٦٩.

٣٦- الجوهري، الصحاح، حرف الباء، مادة «برنس»، ص ٩١.

٣٧- رشيد، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، ص ٥٢.

والعرض، ويلبس بأشكال مختلفة. عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: «من لم يجد إزارًا فليلبس سراويل، ومن لم يجد نعلين فليلبس خفين»[٣٨].

القميص: كان القميص من قطع اللباس المحببة عند الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد رُوي عن أم سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن من شيء من اللباس أحب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من القميص[٣٩]، وكان يلبس عليه الصلاة والسلام قميصًا من القطن[٤٠]، ويكره أن يكون من الحرير أو الوشي ونحوهما[٤١]، ويتميز بطوله؛ إذ يصل إلى منتصف الساقين، وله كمان طويلان، ولا يظهر من الكف سوى أطراف الأصابع، وكان يزين بشريط من الحرير، عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رجلًا قال: يا رسول الله ما يَلبسُ المحرمُ من الثياب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يلبس المُحرم القميص، ولا السراويل، ولا البرنس، ولا الخفين، إلا أن يجد النعلين فليلبس ما هو أسفل من الكعبين»[٤٢].

الجبة: كان اللباس الخارجي للرجل الجبة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يلبس الجبة المكفوفة الكمين، فقد ذكر ابن سعد أنه «روى عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كنتُ مع عمر رضي الله عنه فقال رأيتُ أبا القاسم وعليه جبة شآمية ضيقة الكمين»[٤٣].

الخميصة: وهي عبارة عن ثوب أسود مربع له كُمان، ويُعَدُّ من اللباس الثمين.

«عن أنس رضي الله عنه قال: لما ولدت أم سليم قالت لي: يا أنس انظر هذا الغلام، فلا يُصيبن شيئًا حتى تغدو به إلى النبي صلى الله عليه وسلم يُحنكه. فغدوتُ به، فإذا هو في حائط وعليه خميصة حُريثية، وهو يسم الظهر الذي قدم عليه في الفتح»[٤٤].

الحبره: هو ثوب موشى، والحبره كانت من أحب الثياب عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

«عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أحب الثياب إلى النبي صلى الله عليه وسلم الحبرة»[٤٥].

الرداء: وهو طويل من الخلف وقصير من الأمام.

ذُكر أن حسين بن علي أخبر «أن عليًا رضي الله عنهم قال: فدعا النبي بردائه فارتدى به ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة فاستأذن، فأذنوا لهم ...»[٤٦].

العباءة: وهي من الألبسة الخارجية استعملها المسلمون، وتلبس فوق الملابس الأخرى، وتكون مفتوحة من الجهة الأمامية[٤٧].

القباء: لباس خارجي للرجال وهو من الثياب الفارسية شائع استعماله بين مختلف الطبقات.

عن المسور بن مخرمة أنه قال: «قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبية، ولم يُعط مخرمة شيئًا»[٤٨].

الملاءة: ارتداها الخلفاء الراشدون[٤٩].

٣٨- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب السراويل، الحديث ٥٨٠٤، ص ١٤٦٨.

٣٩- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني (ت ٤٥٨ه / ١٠٦٦م)، السنن الكبرى، منشورات الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٣٩

٤٠- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٣٩٥.

٤١- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ / ١٠٧٤م)، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، تصحيح: الشيخ محمد الأخوندي، ط٤، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٧م، ص ٣٦٤.

٤٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب لبس القميص، الحديث ٥٧٩٤، ص ١٤٦٦

٤٣- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٣٩٥.

٤٤- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الخميصة السوداء، الحديث ٥٨٢٤، ص١٤٧٣.

٤٥- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة،، الحديث ٥٨١٢، ص١٤٧١

٤٦- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الأردية، الحديث٥٧٩٣، ص ١٤٦٦.

٤٧- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٣٩٣.

٤٨- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب القباء وفروج الحرير وهو القباء، ويقال هو الذي له شقٌ من خلفه، الحديث ٥٨٠٠، ص١٤٦٨

٤٩- عابدين، تطور الأزياء عبر العصور، ص ١٦٠.

نلحظ مما سبق أن العرب المسلمين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين انصرفوا عن الاهتمام بلباسهم، ولزموا جانب التقشف والبساطة، نظرًا لطبيعة الإسلام في أول دعوته من جهة، وتأثر الناس واقتدائهم بالرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من جهة أخرى، إذ لم يتميز خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوائل من سائر المسلمين في شيء إن لم يكونوا أكثر تواضعًا وأقشف عيشًا وأخشن ملبسًا، ذكر ابن طباطبا في مخطوطته **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** أن أحدهم كان «يلبس الثوب من الكرباس الغليظ[٥٠]، وفي رجله نعلان من ليف، وحمائل سيفه ليف، ويمشي في الأسواق كبقية الرعية»[٥١].

صورة عباءة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥٢]

٥٠- الكرباس: هو ثوب غليظ من القطن الأبيض معرب عن الفارسية.

مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، باب الكاف، مادة «كربس»، ص ٧٨١.

٥١- ابن طباطبا، محمد بن علي بن طباطبا (٦٦٠هـ/ت ٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، طبع شالون، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٤م، ص ٣٧.

٥٢- تعرف على مواصفات ملابس النبي محمد صلى الله عليه وسلم، موقع مصراوي، ١٣/ ١/ ٢٠١٨، https://www.masrawy.com/article

٣- ازدهار صناعة الملابس الثمينة في العصر الأموي:

مع مرور الزمن وتوسع الفتوحات في العهد الأموي تكونت دولة واسعة شملت كلّ الأقاليم التي كانت تابعة للساسانيين ومعظم الأقاليم التي كانت من قبل تابعة للروم، فأصبحت تجمعها دولة واحدة، تعلوها كلمة الله، ويرأسها خليفة واحد يسير بهدي القرآن والإسلام، وقد حل بين أقاليم هذه الدولة السلم العام، وأزيلت الحواجز التي كانت من قبل تعرقل التجارة، وأبيحت حرية التنقل والعمل والكسب، وكان لمخالطة قوميات وحضارات مختلفة بترفها وتقاليدها تأثير كبير في كسر حاجز التقشف والورع، فأقبل المسلمون على الألبسة المصنوعة من الحرير الناعم والديباج وغيرها من المنسوجات المترفة، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل أصبحوا من الرواد المصنعين والمطورين لتلك الملابس[٥٣].

ومن أهم أسباب ازدهار صناعة الملابس الثمينة في العصر الأموي:

أ- الفتوحات الإسلامية الواسعة التي أدت إلى زيادة موارد العرب، مما كان السبب الرئيس في ارتفاع مستوى المعيشة وازدياد البذخ والترف في كمية الملبوسات وأنواعها.

ب- ازدياد اقتباس العرب للألبسة الأعجمية بعد تعرفهم على الحضارات التي كانت موجودة في البلاد المفتوحة، فقد ضمت الدولة الإسلامية مجتمعات متعددة مختلفة باختلاف الشعوب والطبقات، التي كان لكل منها طراز خاص من الألبسة، مع بقاء عدد كبير من العرب يلبسون الألبسة العربية المعروفة[٥٤].

ج- حب مظاهر الأبهة عند خلفاء وأمراء المسلمين

٥٣- العلي، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص ٧.

٥٤- رشيد، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، ص ٥٤.

الذين حرصوا على ارتداء الملابس الحريرية الفاخرة، إذ زاد الاهتمام بخامة الحرير التي أصبحت لها الصدارة بعد أن كانت في بادئ الأمر بخلاف ذلك في زمن الخلفاء الراشدين، وذلك لابتعادهم عن مظاهر الترف والأبهة آنذاك والتزامهم حياة الزهد والتقشف[٥٥].

د- ساعدت جهود المصانع الأهلية الموجودة في البلاد المفتوحة على اتساع نطاق فن صناعة المنسوجات، التي كان الحكام يستخدمونها لأغراض سياسية، فيما عُرف بنظام منح الخلع في المناسبات المختلفة، فكان الحكام يرتدون هذه المنسوجات ويمنحونها كهدايا للأمراء والأصدقاء، وكانوا يخلعون على بعض أفراد رعيتهم من تلك الملابس، وتُسَمَّى «الخِلْعة»[٥٦].

هـ - اهتمام الأمراء المسلمين بإنشاء مصانع النسيج التي عُرفت آنذاك بدور الطراز، وكانت تخضع إداريًا للرقابة الحكومية الصارمة، ولفظ «الطراز» يعني الكتابة على النسيج والورق، وهذه الكتابات كانت تقتضيها عادة «الخلع» التي كان يتبعها الحكام والأمراء المسلمون في الخلافة الإسلامية في مكافأة رجال الدولة بالخلع من الملابس الفاخرة، فكان يطلق على مصانع النسيج الأهلية «طراز العامة»، وتهتم بإنتاج منسوجات عامة الشعب، وعلى مصانع النسيج التي تتبع الحكام والأمراء الطراز الحكومي «طراز الخاصة» ودورها إنتاج منسوجات الخليفة وحاشيته، وكلا الطرازين كانا يخضعان للرقابة الحكومية المشددة[٥٧].

تُعَدُّ كلمة «طراز» ذات مدلول واسع، إذ عبرت عن التطريز والكتابة على النسيج وأوراق البردي، ثم اتسع مدلولها ليشمل ما كان مكتوبًا على العمائم والتحف المختلفة، إلى جانب استخدام لفظ «طراز» ليعبر عن مصانع النسيج، وقامت دور الطراز بشكل مشابه لمصانع النسيج في ممالك الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية مع تطوير نظام العمل فيها، وقد استمر العمل بنظام دار الطراز خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، ثم ضعف في العصور اللاحقة[٥٨].

وقد أولى الخلفاء هذه المصانع (دور الطراز) أهمية خاصة، فعينوا مشرفين عليها، ولقب المشرف على الطراز بلقب «صاحب الطراز»، وكان لكل مشرف مساعد ومحاسب يشرف على الأمور المالية ورئيس للعمال لتنظيم العمل وإدارته، وكان بكل دار نسج «أسطى» يشرف على قاعة الحياكة بما فيها من الأدوات، ويشرف على تعليم الصبيان أسرار الصنعة على يد الصناع الذين كان لهم تنظيم خاص بهم يوفر لهم الرعاية الاجتماعية التي تحفظ لهم حقوقهم وتنظم أعمالهم، والتي كان يطلق عليهم تنظيم «طائفة النساجين»[٥٩].

٤- أشهر المنسوجات في العهد الأموي:

اكتسبت المنسوجات الإسلامية في ذلك الوقت استحسانًا عالميًا؛ لجودتها وجمالها، وكان ذلك نتيجة لمشاركة الدولة في الرقابة على الخامات، وبناء المصانع الخاصة والعامة، وضمان معايير الجودة، وأصبح الصوف في المرتبة الثانية أهمية بعد الكتان، كمادة خام، واستخدم النساجون أنوالاً رأسية ونسجوا لُحمًا (خيوطًا عرضية أو أفقية) أكثر في الأقمشة؛ كنوع من الزخرفة، وكانت الأقمشة تزخرف بأشكال مطبوعة أو تطرز بخيوط من حرير، وضمت النقوش

٥٥- بيكر، المنسوجات الإسلامية، ص ٧٤.

٥٦- علي الرفاعي، حسين، الصناعة في مصر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م، ص ١٥٦.

٥٧- علي الرفاعي، الصناعة في مصر، ص١٥٧ .

٥٨- ماهر، الفنون الإسلامية، ص ٧٠.

٥٩- ماهر، الفنون الإسلامية، ص ٧٠.

الخطوط العربية الزخرفية الفنية والأشكال النباتية والهندسية؛ وكذلك رموزًا تجريدية نباتية وآدمية وحيوانية[٦٠]، لذا اتسمت الأزياء في العصر الأموي بطابع تقليد الأعاجم مع احتفاظهم ببعض الألبسة التقليدية، فكان الخلفاء في العصر الأموي يلبسون البردة تشبهًا ببردة الرسول صلى الله عليه وسلم في المواكب، وكان **معاوية بن أبي سفيان** يلبس العمامة السوداء التي كانت شائعة في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن فترة الخلافة الأموية امتازت بالترف والبذخ الاقتصادي، فانعكس ذلك على حياتهم الاجتماعية، فلبسوا الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي، وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك، فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم، واتخذوا كثيرًا من ألبسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة بقوا يلبسون العمائم، ويعلقون السيوف على العواتق[٦١].

كانت أبسط الطرائق للحصول على المنسوج هو نسيج السادة، وهو الأكثر انتشارًا، وينشأ نسيج السادة عن تقاطع خيوط السدى واللحمة، وذلك على النول البسيط سواء الرأسي أم الأفقي، ثم ابتكرت أنواع مختلفة من الطرائق الصناعية الأخرى، مثل: نسيج القباطي والزردخان، والدمشقي، والمبطن من اللحمة واللحمات الزائدة، والديباج، وهي طرائق مركبة يلزمها النول المركب، ويتطلب مهارة فائقة وعددًا أكبر من الصناع[٦٢].

وقد شهدت صناعة المنسوجات تطورًا كبيرًا ولا سيَّما في مصر، إذ ازدهرت صناعة المنسوجات ازدهارًا كبيرًا بعد فتح العرب لها (٦٤١م / ٢١هـ)، فقد عمل المسلمون على تشجيع صناعة المنسوجات وتطويرها وتنميتها حتى بلغت أوج الكمال والإتقان، وأصبح إنتاج الأقمشة الرقيقة من أهم مميزات الفنون التطبيقية الإسلامية عامة، وكان لما أولته الحكومات الإسلامية المختلفة من عناية بصناعة المنسوجات، أكبر الأثر في ازدهار تلك الصناعة في العصور الوسطى[٦٣].

ومن التقاليد الإسلامية التي أسهمت إسهامًا مباشرًا في الارتقاء والازدهار بمستوى صناعة النسيج في مصر تصنيع كسوة الكعبة بها، وبدأت الكتابة تظهر على المنسوجات المصرية في العصر الأموي، ويُعَدُّ الخليفة الأموي **مروان الثاني** أول مَن ظهرت في عهده كتابات عربية على النسيج، ويدل على ذلك قطعتان من النسيج إحداهما في متحف فيكتوريا وألبرت في لندن، والأخرى بمتحف المنسوجات في واشنطن عليهما اسم «مروان»، وغالبية ما وصلنا من المنسوجات في ذلك العصر كان يصنع في مدن وقرى صعيد مصر ولا سيَّما في القيس والفيوم وأخميم، وقد تميزت هذه المنسوجات بأنها مصنوعة من الصوف أو الكتان أو منهما معًا، واستخدمت في تنفيذ الزخارف طريقة اللحمات غير الممتدة (القباطي)، إذ تستخدم اللحمات الملونة للعناصر الزخرفية وتنتهي عند حدود الزخرفة، وبذلك تظهر الشقوق عند حدود الزخارف، ولكن النساج حاولوا تلافي ذلك بنسج كل لحمتين على سداة واحدة، أو حياكة الشقوق بخيوط بعد عملية النسج، وأحيانًا كانت تترك الشقوق دون توصيل أو حياكة[٦٤].

وقد غلبت على ذلك العصر العناصر الزخرفية القبطية التي استخدمت على النسيج القبطي مثل الحيوانات والطيور بأسلوب بدائي ومحور عن الطبيعة، والرسوم النصفية الآدمية، ورسوم

٦٠- بيكر، المنسوجات الإسلامية، ص ٨٤.

٦١- حسين، تحية كامل، تاريخ الأزياء وتطورها، الجزء الأول، مكتبة النهضة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ١٤٤.

٦٢- بيكر، المنسوجات الإسلامية، ص ٧٢.

٦٣- عابدين، تطور الأزياء عبر العصور، ص ١٦٥.

٦٤- بيكر، المنسوجات الإسلامية، ص ٨٧.

الفرسان ذات الطابع القبطي، إضافةً إلى الرسوم النباتية من أنصاف مراوح نخيلية، وفروع وثمار مثل عناقيد العنب وقرون الرخاء وشجرة الحياة وسلال الفاكهة، والرسوم الهندسية مثل الجامات والمعينات الصغيرة، والأشرطة الأفقية والدوائر المتماسة والمتقاطعة، والخطوط المنكسرة والمنحنية والضفائر، فكل هذه العناصر ذات أصول ساسانية وبيزنطية[٦٥].

ذكر المسعودي في مخطوطته **مروج الذهب ومعادن الجوهر** أن صناعة المنسوجات الحريرية كانت تُعد من أهم الصناعات التي اشتهرت في العصر الأموي ولا سيَّما في عهد **سليمان بن عبد الملك**، «وكان سليمان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعًا جِبابًا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خُدامه إلا في الوشي، حتى الطباخ؛ فإنه كان يدخل إليه في صدره وشي، وعلى رأسه طويلة وشي، وأمر أن يكفن في الوشي»[٦٦]، إذ لم تكن صناعة الحرير موجودة أصلاً في بلاد الشام، فكانت تجلب إليها الأقمشة الحريرية من بلاد الصين عبر طريق الحرير، إلا أن الرومان نقلوا سر صناعة الحرير في عهد الإمبراطور جستنيان، فاستطاع الرهبان استجلاب شرانق الحرير من الصين داخل مصفاة مجوفة، فما إن وصل دود القز إلى بلاد الشام حتّى أقبل السوريون على تربيته، واستخراج الحرير منه، وانتشرت معامل الحرير في بيروت، ثم حمص وحماة[٦٧]، ولكن تعسف الإمبراطورية البيزنطية في احتكار جهود المصانع لصالح الدولة بعد أن علموا ما وصلت إليه صناعة الحرير من نجاح أدى بدوره إلى خمول تلك المصانع، وبقيت تلك الصناعة خاملة حتى عهد بني أمية الذين أنهضوها من خمولها، فقيل إن معاوية أول خلفائهم الذي أنشأ في قصره المسمى بالخضراء في دمشق معملاً للحرير فعرفت منسوجاته بالطرز، وشاعت في كل الأقطار، وكان الخلفاء يهدونها لعمالهم، وما لبثت صور وحلب أن فتحت المجال لصناعة الحرير بفتح معامل لها[٦٨].

وقد تسابق الصناع إلى إجادة هذه الصناعة، وتهافت الأعيان ورجال الدولة إلى اقتناء منتجاتها، واشتهرت دمشق بجمال هذه الصناعة ومتانتها كما ذكر البدري في مخطوطته **نزهة الأنام في محاسن الشام** عن صناعة المنسوجات في بلاد الشام قائلاً: «ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله، ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصدر لأحياء القصور وأموات القبور، وبها أيضًا القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه، وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير، وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون»[٦٩]، وذكر ابن بطوطة في مخطوطته

٦٥- نور الدين، عبد الحليم، وزيري، أيمن، جلال، محمد، صناعة النسيج في مصر عبر العصور، مطبعة مصر، القاهرة، ط٤، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ص ١٣٣.

٦٦- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص ١٤٥.

٦٧- دوكوسو، غستون، «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، مجلة المشرق، بيروت، ١٣٢٩هـ/ ١٩١٢م، العدد ١٥، ص ٢٨٢.

٦٨- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن حسن بن خلدون (ت ٨٠٩هـ)، مقدمة ابن خلدون، مطبعة دار الشعب، القاهرة، ط٣، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٧م، ج٢، ص ٢٣٧.

٦٩- البدري، أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٢١٤.

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «ويصنع في بعلبك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره»[٧٠]، كما عُرفت قرية أعناك «بليدة من نواحي حوران من أعمال دمشق، يُعمل فيها بسط وأكسية جيدة» حسب ما ذكر ياقوت الحموي في مخطوطته **معجم البلدان**[٧١].

من أنواع الثياب في ذلك العصر، ثياب عُرفت بأسماء معينة، منها المنير والمعين والمشهم، ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية وحسن طرازها، عُرفت هذه المنسوجات باسم المدينة، فيقال لها (داماسكو) أو الدمشقي، وكان هنالك تفنن في نقشه وصبغه، مما يدل على رسوخ قدم هذه الصناعة؛ إذ ذكر في **خطط الشام** «اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق، ونقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت إليهم»[٧٢].

ومما يجدر ذكره أن الأصناف السابقة الذكر لم ينتهِ المؤرخون إلى تحديد المدّة الزمنية التي أطلقت فيها هذه الأسماء على صناعة المنسوجات الشامية.

٥- أشهر الألبسة في العهد الأموي:

فيما يأتي عرض موجز لأهم أصناف الألبسة في العهد الأموي، ابتداءً من لباس الرأس وانتهاء بلباس القدمين:

أ- غطاء الرأس:

العمامة: بقيت العمامة ضمن أزياء العرب الأساسية ولا سيَّما السادات منهم، وفي ذلك قول للأحنف بن قيس التميمي يقول: «لا تزال العرب عربًا ما لبست العمائم، وتقلدت السيوف»[٧٣]، وكانت العمامة تُصنع في الغالب من القماش المخلوط سواء كان من الصوف أم من القطن، وتلك العمائم كانت يلبسها العوام، أما عمائم الخلفاء الأمويين فكانت تصنع من الخز[٧٤] الخام أو من الخز مع الإبريسم[٧٥] أو من الخز مخلوطًا بسائر الأقمشة الأخرى كالصوف مثلًا.

وكانت العمائم المقتصرة على الإبريسم فقط خير دليل على الترف الذي وصل إليه الخلفاء الأمويُّون، وأخذوا يهتمون بألوانها، ويتنافسون بجودتها، فقد لبس الخليفة هشام بن عبد الملك عمامة من الخز، وكذلك كانت عمامة الخليفة الوليد بن يزيد من الخز[٧٦]، أما في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك فصنعت الثياب بما فيها العمائم من الوشي[٧٧]، وثياب الوشي هي الثياب المتداخلة الألوان والمطرزة، ويُنقش عليها بأجود أنواع الخيوط وبسائر النقوش الفاخرة[٧٨] حتى قيل إنه كان لا يدخل عليه أحد إلا في ثياب الوشي، وكانت عمامته من ذلك القبيل[٧٩] كما ذكرنا سابقًا.

وكان ذلك حال بقية الخلفاء الأمويين في لبس

٧٠- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ص ٦١.

٧١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، حرف الهمزة، باب الهمزة والعين وما يليهما، المادة «أعناك»، ص ٢٢٢.

٧٢- علي، محمد كرد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج٤، ص ٢٠١-٢٠٣.

٧٣- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص ١٠٤.

٧٤- الخز: نسيج سدته من الحرير واللحمة تكون من نوع آخر، ومن الممكن أن يكون سدته ولحمته من الحرير الخالص.
مجموعة من المؤلفين، معجم الوسيط، باب الخاء، مادة «خز»، ص ٢٣١.

٧٥- الإبريسم: أحسن الحرير. عبارة عن قُماش من الحرير، وهو من أجود أنواع الحرير وأفخمه يُستخرج بطريقة خاصة.
مجموعة من المؤلفين، معجم الوسيط، حرف الهمزة، مادة «الإبريسم»، ص ٢.

٧٦- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٣٤١.

٧٧- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧م)، الأغاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٥م، ج٢، ص ٧٦٦.

٧٨- ابن منظور، لسان العرب، [و ش ي].

٧٩- المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ١٤٥.

العمائم، فهي عندهم إما أن تكون من الخز وإمّا الوشي، وذلك تماشيًا مع متطلبات العصر الأموي الذي اتسم بالانفتاح على بلدان الأمم الأخرى، فقد عُدَّ هذا ضربًا من ضروب التطور ليلائم أبهة الملك وجلالة السلطان، فكانت العمامة تعد مظهر من مظاهر الهيبة عند الخلفاء الأمويين، وكانوا يتفننون في لبسها، ويتباهون فيها لأنها ترمز للسيادة والشرف، ونستثني منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي عرف بورعه، فقد كانت له عمامة غليظة، ولعلها من القماش الاعتيادي؛ إذ قدرت قيمتها مع سائر ملابسه الأخرى بدراهم قليلة[٨٠].

لوحة تمثل العمامة[٨١]

القلنسوة: من ملابس الرأس الأخرى التي لبسها الخلفاء الأمويُّون القلنسوة، والقلنسوة لباس معروف تُصنع من مادة القطن أو سائر الأقمشة الأخرى[٨٢]، وأحيانًا من مادة الشعر[٨٣]، وهي إن كانت مقتصرة على الرأس فقط سميت قلنسوة، وإن زادت على ذلك بحيث شملت باقي أجزاء الجسم، وأصبحت كالرداء الذي رأسه منه، سميت عندئذ بُرْنُسًا[٨٤]، لكن لم ترد الإشارة إلى لبس الخلفاء الأمويين مثل هذا النوع من اللباس، في حين اقتصر لبس الخلفاء الأمويين على القلنسوة المقتصرة على الرأس وفيها شيء من الطول بحيث تغطي الرأس بأكمله دون سائر الوجه، وكان لبس القلنسوة على الخلفاء مرادفًا للبس العمامة، فأحيانًا يلبسونها وحدها دون العمامة، أو يلبسون العمامة دون القلنسوة، أو في أحيان أخرى تلبس العمامة، وتشد على القلنسوة ليكون لبسهما معًا، لكن القلانس إن كانت وحدها كانت ذات هيئة حسنة وبارزة في الطول أو حدة الرؤوس تمييزًا من القلانس العامة، ولعل الخليفة الوليد بن يزيد كان من أكثر الخلفاء اهتمامًا بالقلنسوة، فكانت قلنسوته فاخرة تلائم ملابس الخز والوشي التي كان يلبسها، وقد أهداها يومًا لأحد المضحكين، فكان يلبسها في العيد، ويقول: (كسانيها أمير المؤمنين)[٨٥].

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد كان يلبس أحيانًا القلنسوة وحدها دون العمامة[٨٦]، وفي أحيان أخرى يلبس العمامة فوق القلنسوة[٨٧].

٨٠- المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٠.

٨١- محمد الحريري البصري (٤٤٦هـ - ٥١٦هـ / ١٠٥٤م- ١١٢٢م)، مقامات الحريري، رسمها يحيى بن محمد الواسطي، المؤرخ سنة ٦٣٤هـ، المكتبة الوطنية النمساوية، فيينا، ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م، ص ١٨.

٨٢- الأصفهاني، الأغاني، ج٢، ص ٧٦٦.

٨٣- الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، ص ٣٣٢.

٨٤- دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص ٧٠.

٨٥- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ج١، ص ٢١٩.

٨٦- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢٠٩.

٨٧- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص ٢٦٠.

لوحة تمثل القلنسوة[٨٨]

ب-ملابس البدن:

الجبة: وهي ضرب من ضروب الثياب الخارجية التي تلبس على البدن، وتكون ذات كمين طويلين، وهي لفظة مفردة جمعها جبب و جباب[٨٩]، ولكنها إذا كانت مفتوحة من المقدمة لا تكون عندئذ جبة، بل تسمى دُرَّاعة[٩٠]، وكانت الجبة معروفة عند العرب وقد لبسها الخلفاء وأعيان القوم وأشرافهم ووجهاؤُهم في فترات مختلفة[٩١]، وقد لبس الخلفاء الأمويُّون أنواع الجباب المنقوشة والمطرزة من الخز والوشي تماشيًا مع التطور الحاصل في المستوى المعيشي آنذاك.

ولبس الخليفة عمر بن عبد العزيز مختلف أنواع الجباب، منها الجباب المحشوة البيضاء[٩٢]، والجباب الموشحة، أو الجباب المبطنة، وأحيانًا كان يلبس جباب الخز[٩٣]، ولكن جميع ذلك كان قبل أن يتولى الخلافة حين كان أميرًا على المدينة، لكن عندما آلت إليه الخلافة أمر أن يُشترى له جباب الصوف[٩٤]، تماشيًا مع ما كان يسير عليه الخلفاء الراشدون ولا سيَّما الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما باقي الخلفاء الأمويين فقد تميزوا بالجباب المترفة والمطرزة، وعُرف عن الخليفة الوليد بن يزيد حبه لبس جباب الوشي[٩٥].

لوحة تمثل الجبة[٩٦]

الإزار: بالكسر لباس معروف، وهو الملحفة التي تلف لتغطي أسفل البدن من منتصف الجسم إلى منتصف الساقين، ولا تكون مخيطة، إنما هي قطعة قماش خصصت لهذه الحال[٩٧].

الرداء: قطعة من القماش البرد أو غيره مكمل للإزار، ويكون كما أشرنا من الصنف نفسه، وهو أيضًا غير مخيط، ويغطي ما على عاتق الرجل وظهره فوق ثيابه الأخرى، أي إنه كالمعطف الذي يعتطف به الرجال[٩٨].

الحلة: «قال خالد بن جنبة: الحلة رداء وقميص وتمامها العمامة، ولا يزال الثوب الجيد يقال له في

٨٨- محمد الحريري البصري، مقامات الحريري، ص ٦١.
٨٩- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ج ب ب].
٩٠- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [د ر ع].
٩١- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢٠٤.
٩٢- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٥٣٥.
٩٣- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢٧٢
٩٤- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.
٩٥- الأصفهاني، الأغاني، ج٢، ص ٧٧٥.
٩٦- محمد الحريري البصري، مقامات الحريري، ص ٢٢.
٩٧- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ء ز ر].
٩٨- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ر د ي].

الثياب حلة، قال والحلل الوشي والحبرة والخز والقز والقوهي والمروي والحرير، وقال اليمامي: الحلة كل ثوب جيد تلبسه غليظ أو رقيق، ولا يكون إلا ذا ثوبين، وقال ابن شميل: الحلة القميص والإزار والرداء لا تكون أقل من هذه الثلاثة، والحلل برود اليمن، ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين، وقيل ثوبين من جنس واحد»[٩٩]، وهذا ما تتكون منه الحلة.

وكانت العرب تلبس الحلة، ومنهم الخلفاء كلباس رسمي أو غير ذلك، وأكثر ما كانت تلبس الحلل اليمانية بشتى أصنافها من سائر البرود، وذُكر أن **معاوية بن أبي سفيان** كان يلبس الحلة اليمانية أثناء جلوسه لخواص الناس وعوامهم في مظهر من مظاهر الأبهة والسلطان، إذ ذُكر في مخطوطة **الإمامة والسياسة**: «ثم خرج وعليه حلة يمانية، وعمامة دكناء، وقد أسبل طرفها بين كتفيه، وقد تغلى وتعطر فقعد على سريره»[١٠٠]، أما حلة الخليفة **عمر بن عبد العزيز** فكانت حلة متواضعة قدر ثمنها بدراهم قليلة، ثم إنه لم يملك سواها[١٠١]، في حين امتلك الخليفة **الوليد بن يزيد** أنواع الحلل الفاخرة الموشاة بالذهب، وكان يلبسها في مجالس الأنس، حتى إنه كان يكرم منها من يطربه، ويدخل في نفسه البهجة والسرور كما يذكر الأصفهاني في مخطوطته **الأغاني**، «إذ طلع الوليد بن يزيد على الناس وهو نشوان يجر مطرفاً من الخز عليه»[١٠٢].

وقد لا تلبس الحلة متكاملة من قبل الخلفاء كأن يلبس الرداء دون الإزار أو يلبس الإزار دون الرداء، وعندئذ لا يطلق على ذلك الجزء حلة إنما يسمى باسمه رداء أو إزارًا، فكان الخلفاء يلبسون أحيانًا الرداء وحده مثلاً في عيدي الفطر والأضحى كرسم أخذوه من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم[١٠٣]، وذلك الرداء هو بردة الرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت رداءً حضرميًّا طوله أربع أذرع وعرضه ذراعان وشبر، وما أصابه من تلف قد أصلح، ذكر ابن سعد قال: «حدثنا عروة بن الزبير أن ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يخرج فيه إلى الوفد، رداء حضرمي طوله أربع أذرع وعرضه ذراعان وشبر، فهو عند الخلفاء قد خلق وطووه بثوب يلبسونه يوم الأضحى والفطر»[١٠٤].

ويبدو أن الخلفاء الأمويين قد اعتادوا لبس إحدى قطع الحلة دون الأخرى إلا الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** لما عرف عنه لبسه العدة المتكاملة[١٠٥] حفاظًا على هيبته وحسنه ووقاره، فكان الخليفة **الوليد بن عبد الملك** يشار إليه أحيانًا بأنه لبس أصناف الملابس دون الرداء، أي إنه لم يلبس الحلة كاملة[١٠٦]، والخليفة عمر بن عبد العزيز كان أحيانًا يترك لبس الإزار، ويقتصر أحيانًا على لبس الرداء[١٠٧].

القميص: لباس معروف عند العرب، وقد لبسه الرسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وعدَّه بعض العلماء من أجزاء الحلة إضافةً إلى الإزار والرداء، لكن الغالبية منهم أورده كقطعة لباس مفردة تلبس، وليس لها علاقة بسائر قطع اللباس الأخرى[١٠٨].

٩٩- ابن منظور، لسان العرب [ح ل ل].

١٠٠- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م)، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، منشورات الشريف الرضي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٠٧.

١٠١- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢١١.

١٠٢- الأصفهاني، الأغاني، ج٢، ص ٧٦٦ – ٧٦٧.

١٠٣- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٣٩٤.

١٠٤- المصدر السابق.

١٠٥- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، دول الإسلام، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٥م، ص ٣٦.

١٠٦- المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ١٣٠.

١٠٧- الأصفهاني، الأغاني، ج٢، ص ٧٧٥.

١٠٨- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ق م ص].

وقد اقتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فكان قميصه كسائر قمصان الرسول صلى الله وعليه وسلم والخلفاء الراشدين، وكان لا يملك سوى قميص واحد فقط يرتديه أثناء صلاة يوم الجمعة، أو ربما في سائر الأوقات الأخرى، إذ يروى أن مسلمة بن عبد الملك دخل عليه يعوده في مرضه فوجد عليه قميصًا قد اتسخ، فأشار مسلمة إلى زوجة عمر، وهي فاطمة بنت عبد الملك، أن تغسل قميص عمر، فقالت: (والله ما له قميص غيره)[١٠٩].

أما بالنسبة لباقي الخلفاء الأمويين فإن القمصان التي كانوا يرتدونها كانت من النوع الفاخر تماشيًا مع ما كانوا يرتدونه من ألبسة الخز والوشي، ولا سيَّما سليمان بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك[١١٠]، كما جاء أن الخليفة الوليد بن يزيد كان يلبس قميصًا من القصب من النوع الفاخر يتناسب مع سائر ثيابه الأخرى من الخز والوشي[١١١].

لوحة تمثل القميص[١١٢]

المُطرف: بضم الميم وكسرها واحد والجمع مطارف، وهي أردية من خز مربعة في طرفها علمان، وقيل إن المطرف هو ثوب كان الرجال و النساء يلبسونه على حد سواء[١١٣]، وتشير بعض النصوص الواردة عن المطرف إلى أنه من الثياب التي يعتطف بها كرداء يلبس فوق الثياب الأخرى، ومن هذه النصوص أن الخليفة عبد الملك بن مروان رمى مُطرفًا كان عليه لأحد الشعراء كجائزة له، إذ ذكر الزمخشري في مخطوطته **المستقصى في أمثال العرب** قال: «جاء عبد الله بن الحجاج الثعلبي لعبد الملك بن مروان في قصيدة يسأله العفو:

أدنو لترحمني وتقبل توبتي
وأراك تدفعني فأين المدفع

فقال عبد الملك إلى النار، فقال:

ضاقت ثياب الملبسين فأولني
عرفًا وألبسني فثوبك أوسع

فرمى عبد الملك إليه بمطرف خز»[١١٤].

ويبدو أن الخلفاء الأمويين اعتادوا لبس مثل هذا النوع من الألبسة، فكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يلبس المُطرف قبل أن يولى الخلافة وتركه بعد أن أصبح خليفة، واقتصر على لبس ما خشن من الثياب[١١٥]، أما الخليفة الوليد بن يزيد فكان يرتدي المُطرف منذ أن كان وليًّا للعهد، ولبسه أيضًا في خلافته[١١٦].

الرَّيطة: بالفتح لفظة مفردة والجمع ريط ورياط، وهي الملحفة التي يلتحف بها، وقيل هي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ومن نسيج واحد، إذ إن الريطة والملاءة مترادفتان، وكلتاهما تعني الملحفة إذا كانت

١٠٩- السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م، ص ٢٣٤ – ٢٣٥.

١١٠- المسعودي، مروج الذهب، جـ٣، ص ١٧٠.

١١١- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج٣، ١٣٩٨هـ / ١٩٨٠م، ص ٥٥٥.

١١٢- محمد الحريري البصري، مقامات الحريري، ص ٣٨.

١١٣- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [م ط ر].

١١٤- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٤م)، المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٧م، ج١، ص٢٤٠.

١١٥- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص ١٠٤.

١١٦- الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص ٩.

الملاءة تتكون من قطعة واحدة تدعى ريطة، أما إذا كانت الملاءة تتكون من قطعتين فتسمى ملاءة، والملاءة ضرب من ضروب الثياب، وتتكون من قطعتين، وهما الإزار والريطة[١١٧].

لبس الخلفاء هذا النوع من اللباس الراشدون منهم و الأمويون، فقد ورد أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه عند وفاته كان في ريطة بيضاء[١١٨] مما يدل على أنه كان يرتديها في حياته، وعُرفت آنذاك أنواع مختلفة من الرياط كالرياط الكوفية التي كان يلبسها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه[١١٩]، والرياط المصرية كالتي أهداها معاوية بن أبي سفيان لقيس بن عباد أحد فقهاء أهل البصرة الكبار[١٢٠]، مما يشير إلى اقتناء معاوية لمثل هذا النوع من الرياط، ويبدو أن الرياط المصرية التي امتازت بجودتها هي التي كانت سائدة عند الخلفاء والأمراء الأمويين، إذ ورد أن مسلمة بن عبد الملك كان يلبسها عند دخوله على الخليفة عمر بن عبد العزيز[١٢١]، كما يُروى أن الخليفة الوليد بن يزيد كان يلبس ريطة رقيقة وهي ما تميزت به الرياط المصرية وكان يطويها فوق كتفيه[١٢٢]، كما أن الخليفة الوليد بن يزيد كان يرتدي أحيانًا الملاءة، أي يرتدي إزارًا وريطة معًا[١٢٣]، وعلى العموم فإن الريطة وحدها تصنع من قماش رقيق ولين[١٢٤].

الدُّرَّاعة: تكون على هيئة جبة مشقوقة من الأمام، ولا تكون دراعة إلا من الصوف[١٢٥]، ولم ترد الإشارة إلى لبس الخلفاء الراشدين لمثل هذا النوع من الملابس، لكن ورد أن أغلب خلفاء بني أمية لبسوا الدُّرَّاعة ولكنها لم تكن من الصوف إنما من سائر الأقمشة الفاخرة المعروفة، ومع ذلك كان يطلق عليها أيضًا اسم الدراعة، ولعل السبب في ذلك يكمن في التطور الذي أصاب نوعية الملابس في العصر الأموي حينما أراد الخلفاء الأمويون أن تكون ملابسهم من الأقمشة الفاخرة، فالخليفة الوليد بن عبد الملك كان يرتدي الدراعة[١٢٦]، ولعلها من القماش الفاخر تماشيًا مع طباعهم في لبس الخز والوشي ونحوهما، والخليفة هشام بن عبد الملك ارتدى دراعة من الخز الأحمر[١٢٧]، والوليد بن يزيد ارتدى الدراعة الموشاة بأفخر أنواع الوشي[١٢٨].

مما سبق نجد أن الدراعة الموشاة بالوشي والخز ونحوهما كانت معروفة ومتداولة آنذاك في دار الخلافة الأموية.

لوحة تمثل الدراعة[١٢٩]

١١٧- ابن منظور، لسان العرب، الجزء العشرين، حرف الراء، فصل الياء، مادة «ريط»، ص ١٧٩٢.

١١٨- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١٧٥ - ١٧٦.

١١٩- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ١٦.

١٢٠- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٤٣٧.

١٢١- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص ٢٠٤.

١٢٢- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٣٤١.

١٢٣- الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص ٤٧.

١٢٤- ابن منظور، لسان العرب[ر ي ط].

١٢٥- دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص ١٥٧.

١٢٦- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٥م)، تأريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٩م، ص ١٩٩.

١٢٧- ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ط١، ص١٤٣.

١٢٨- الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص ١٨٤.

١٢٩- مقامات الحريري، ص٣٨.

القبـاء: وهو الثوب الذي يلبس فوق الثياب وفيه شـق مـن الخلـف[١٣٠]، وهو مـن الملابس القديمة عند العرب ومن جملة الملابس التي لبسها الخلفاء، إذ ورد أن الخليفة عليًّا رضي الله عنه كان يلبس القباء الثخين ولا يبـالي للحر الشديـد[١٣١]، وهنالك عـدد من الخلفاء الأمويـين لبس القباء، فالخليفـة الوليد بـن عبد الملك ارتـدى قبـاءً سفرجليًا[١٣٢]، في حـين كان قباء الخليفة عمر بن عبد العزيز متواضعًا وفيه رقع[١٣٣]، وقد ورد أن الخليفة هشام بن عبد الملك ارتدى القباء نفسه الذي كان يلبسـه قبل خلافتـه إلا أنه كان من النوع الفاخر، إذ كان قبـاءً من فنك[١٣٤]، والفنـك دابة يستخرج منها أفخـر أنواع الفـراء وأعدلها[١٣٥]، أمـا الخليفة الوليد بـن يزيد فارتدى قباءً من الخـز مع ما كان يرتديه من ملابس أخرى من النوع والشاكلة نفسيهما[١٣٦].

السراويـل: السراويل لباس معـروف وهو لباس الساقين[١٣٧]، وقد يستبدل بالإزار الذي غالبًا ما اعتاد الخلفـاء لبسه كأحد أجزاء الحلة، فقد ورد أن الخليفة عثمـان بن عفان رضـي الله عنه لم يلبس السراويل قط لا في الجاهليـة ولا في الإسـلام[١٣٨]، ممـا يـدل على أنه كان يقتصـر في لباسـه علـى الحلة المتكونة مـن الإزار والـرداء في أغلب الأحيان، وربما كان بعض خلفاء بني أميـة يلبسـون السراويل عندما يتركـون لبس الإزار، وكان الخليفـة سليمـان بن عبد الملك يرتـدي سراويل من الوشي[١٣٩]، وكانـت سراويل الخليفة عمر بن عبد العزيـز يمنية[١٤٠]، والوليد بن يزيد كانت سراويله من الوشي[١٤١].

ج-لباس القدمين:

كانـوا يلبسـون تارة النعـل أو أحيانًـا الخف التي تكون أغلظ من النعل[١٤٢]، وربما لبسوا أيضًا الأحذية، وتلـك الأصنـاف تعد عندهـم من مكمـلات اللباس كما تعـد عند الزعماء والأشراف والوجهـاء، وقد ورد عن الأحنـف بـن قيس قولـه: (استجيـدوا النعـال، فإنها خلاخيـل الرجـال)[١٤٣]، وكانـت العـرب تلهـج بذكر النعال، والفرس بذكـر الخفاف[١٤٤]، وقيل إن أول من لبـس النعال من ملوك العرب هـو جذيمة الأبرش[١٤٥]، وقـد ورد أن الخليفـة عمـر بـن الخطـاب كان يلبس الخفـاف[١٤٦]، وأحيانًا يلبس نعلـين مخصوفتين[١٤٧]، وقـد ورد أيضًـا أن الخليفـة عبد الملك بـن مروان كان يفضل لبس الخفاف الصفـر[١٤٨]، أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فلبس خفين متواضعين على شاكلة ما كان يرتديـه من ألبسة متواضعـة[١٤٩]، على عكس ما لبسه الخليفـة الوليد بـن يزيد من خفـاف الوشي على غرار ألبسته الأخرى من الوشي[١٥٠].

١٣٠- دوزي، المعجـم المفصـل بأسمـاء الملابس عنـد العرب، ص ٣١١ - ٣١٢.
١٣١- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ١٠٦.
١٣٢- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٢٥٦.
١٣٣- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٣٣٤.
١٣٤- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٤٨١ - ٤٨٢.
١٣٥- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ف ن ك].
١٣٦- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٣٤١.
١٣٧- دوزي، المعجـم المفصـل بأسمـاء الملابس عنـد العرب، ص ١٨٢.
١٣٨- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٣٧٨.
١٣٩- الجاحظ، البيان والتبين، ج٢، ص ٢١.
١٤٠- ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ص ٥٣٥.
١٤١- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ٥٥٥.
١٤٢- ابن منظور، أحمد، لسان العرب [ن ع ل].
١٤٣- الجاحظ، البيان والتبين، ج٣، ص ٩٨.
١٤٤- الجاحظ، البيان والتبين،ج٣، ص ١٠١.
١٤٥- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص ٤٨٧.
١٤٦- الذهبي، دول الإسلام، ص ١٠.
١٤٧- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص ٩٥.
١٤٨- الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، ص ٩٨.
١٤٩- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٤٠٢.
١٥٠- الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص ٧٧٥.

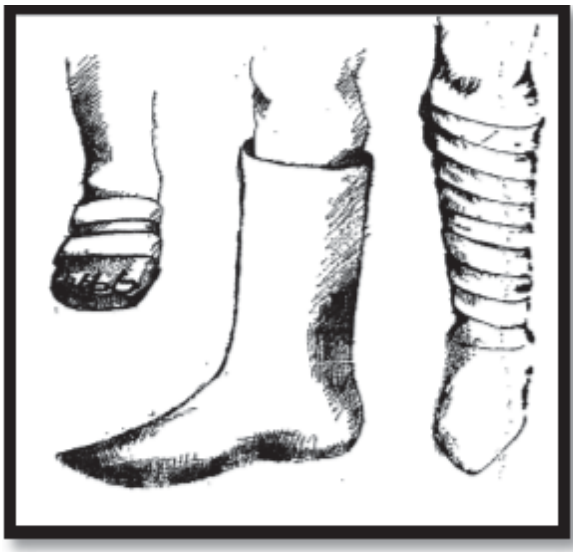

لوحة تبين ألبسة القدمين[١٥١]

الخاتمة:

إن التطوير والتحديث ومواكبة المتغيرات يحتاج إلى ثلاثة عوامل مهمة ألا وهي **الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي**، ولا بد لأي حضارة تريد أن تسجل اسمها بالخط العريض في تاريخ البشرية أن تحقق العوامل الثلاثة السابقة، وهذا بالتأكيد ما حدث للحضارة العربية الإسلامية، إذ حققت ما حققت في جميع المجالات، ووضعت أسسًا متينة انطلق منها العالم إلى أفق أبعد مما يمكن تخيله.

إن أي حضارة في بداية نشأتها يكون تركيزها منصبًا على تثبيت أركانها من أجل ضمان استمراريتها، وتركيز جهودها بما يهم ويخدم مصلحته الأساسية، ألا وهي النهضة بتلك الحضارة، وبهذه العقلية أسّس الرسول الكريم **محمد** صلى الله عليه وسلم أركان الدولة الإسلامية، فكان اهتمامه منصبًا على نشر الدعوة وإعلاء كلمة الحق والنور في أرجاء المعمورة، كما كان له أثرٌ مهمٌّ وأساسيٌّ في تربية الصحابة وتأديبهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم باعتبارهم من سيحملون الراية من بعده، وبالفعل فقد كان الصحابة والخلفاء الراشدون خير خلف لخير سلف، فحملوا الراية، وأدوا الأمانة.

بالنظر إلى الاعتبارات السابقة فإن تحقيق **الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي** كان صعبًا في زمن الخلفاء الراشدين، إذ عانى **الخليفة أبو بكر** رضي الله عنه حروب الردة، كما انشغل **الخليفة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه بالفتوحات الإسلامية، وكذلك الحال بالنسبة للخليفتين **عثمان وعلي رضي الله عنهما**.

ويمكن إضافة عامل آخر منع الخلفاء الراشدين من التطور في مجال المنسوجات والملابس بشكل خاص ألا وهو اعتبارهم أنه نوع من البذخ والترف الذي نهى عنه **الرسول الكريم محمد** صلى الله عليه وسلم، فاشتهروا بالزهد والبساطة والانشغال بالآخرة عن الدنيا ومفاتنها، الأمر الذي أدى بدوره إلى عدم التطور الكبير في هذه المجالات في العهد الراشدي.

كان من الطبيعي أن تتوج كل تلك التضحيات من **الرسول الكريم** صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والصحابة بظهور دولة متماسكة الأركان تتمتع بكلِّ العوامل المهمة لتحقيق قفزة نوعية في مختلف المجالات والاختصاصات، وكانت تلك دولة هي الدولة الأموية بقيادة **معاوية بن أبي سفيان**، فبتولي معاوية سدّة الحكم وتثبيته لأركان الدولة بدأ **الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي**، الأمر الذي أدى إلى التطور في مجالات مختلفة، ولعل من أهم تلك المجالات التي تطورت مجال صناعة النسيج والمنسوجات.

من أهم عوامل التي ساعدت على ازدهار هذه الصناعة التنوع بالمواد الأولية وسهولة الحصول عليها، وتوفر اليد العاملة والخبيرة والمبدعة، كما

١٥١- الربيعي، خالدة، تاريخ الأزياء وتطورها، ص ١٣٨.

توفر الأموال بشكل مريح في مجتمع أسهم في تطورها، ولعل أهم عامل أسهم في تطورها هو التنوع الثقافي والفكري الحاصل في المجتمع الإسلامي آنذاك نتيجة للفتوحات الإسلامية وسهولة التنقل بين أرجاء الدولة على اتساعها، الأمر الذي أسهم في تنشيط الحركة التجارية والصناعية.

كما أن حالة البذخ والترف التي وصل إليها خلفاء بني أمية أسهمت أيضًا بشكل كبير بتطور هذا المجال، فكما لاحظنا تنافسهم بمظاهر الترف والأبهة في مجالس الأنس والشعر، ولا يمكن أن نتجاهل الزينة التي كانوا يظهرون بها على الوفود وعلى عامة الشعب أثناء الخطب وحرصهم على الظهور بأجمل حلة ممكنة، فأصبحت الملابس الفخمة تُهدى للأشراف القوم والشعراء وغيرهم، كما أصبحت من مظاهر التي تدل على مدى تقدم الدولة وترفها.

المصادر والمراجع

١- **ابن بطوطة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩ هـ)، **رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٢- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن حسن بن ابن خلدون (ت ٨٠٩ هـ)، مقدمة ابن خلدون، مطبعة دار الشعب، القاهرة، ط٣، ١٣٨٥هـ/١٩٦٧م، ج٢.**

٣- **ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٢١ه/٢٠٠١م، ج١.**

٤ - **ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد ت ٣٢٨هـ، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣م، ج١.**

٥- **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ/١١٧٦ م)، تاريخ دمشق الكبير، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م، ج٣.**

٦- **ابن طباطبا، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، طبع شالون، ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٤م.**

٧- **ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م)، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، منشورات الشريف الرضي، ط١، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م.**

٨- **أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٧م)، الأغاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٥م، ج٢.**

٩- **الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أبي الفتح أحمد (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م)، المستطرف في كل فن مستطرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٤م.**

١٠- **الأصبهاني، حسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، مكتبة الحياة، بيروت، ج٤، ١٣٧٩هـ/١٩٦١م.**

١١- **البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (١٩٤- ٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م، كتاب اللباس.**

١٢- **البدري، أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.**

١٣- **البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني (ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٦م)، السنن الكبرى، منشورات الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.**

١٤- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)، البيان والتبيين، بغداد، دار الفكر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٨م، ج٢.
١٥- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م)، دول الإسلام، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٥م.
١٦- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ/١١٤٤م)، المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م، ج١.
١٧- السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١ هـ/١٩٥٢م.
١٨- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الإجلاء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج٣، ١٣٩٨ هـ/١٩٨٠م.
١٩- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ/١٠٧٤م)، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، تصحيح: الشيخ محمد الأخوندي، ط٤، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ/١٩٤٧م.
٢٠- العلي، صالح أحمد، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ/٢٠٠٣م.
٢١- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م، ج١.
٢٢- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١.
٢٣- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٨ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٥م، ج٢.
٢٤- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥م)، تأريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ/١٩٩٩م.
٢٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م)، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تحقيق: وليم بن ملورد رشمند، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٣٩٩ هـ/١٩٨٠م.
٢٦- دوكوسو، غستون، «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، مجلة المشرق، بيروت، ١٣٢٩ هـ/ ١٩١٢م، العدد ١٥.
٢٧- رشيد، صبيحة رشدي، الملابس وتطورها في العهود الإسلامية، المكتبة الوطنية بغداد، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨١م.
٢٨- عابدين، علية، تطور الأزياء عبر العصور، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٢٩- علي الرفاعي، حسين، الصناعة في مصر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٥٣ هـ/١٩٣٥م.
٣٠- حسين، تحية كامل، تاريخ الأزياء وتطورها، الجزء الأول، مكتبة النهضة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.
٣١- علي، محمد كرد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م، ج٤.
٣٢- مالك بن أنس، الموطأ، صححه ورقمه وخرج

أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي، بيروت، ط١٤٠٦،١ هـ/١٩٨٥م، ج٢.

٣٣- محمد الحريري البصري (٤٤٦- ٥١٦ هـ/١٠٥٤-١١٢٢م)، مقامات الحريري، رسمها يحيى بن محمد الواسطي، المؤرخ سنة ٦٣٤هـ، المكتبة الوطنية النمساوية، فيينا، ٦٣٥ هـ/١٢٣٧م.

٣٤- نور الدين، عبد الحليم، وزيري، أيمن، جلال، محمد، صناعة النسيج في مصر عبر العصور، مطبعة مصر، القاهرة، ط٤، ١٤٣٦ هـ/٢٠١٥م.

٣٥- ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت، ط ٥، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م.

المعاجم

١- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ/ ١٣١٢ م)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

٢- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٢ هـ)، الصحاح، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م.

٣- دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، الدار العربية للموساعات، بيروت،١٤٣٣ هـ/٢٠١٢م، ط١.

٤- مجموعة من المؤلفين، معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط٤، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤م.

المواقع الإلكترونية

تعرف على مواصفات ملابس النبي محمد صلى الله عليه وسلم، موقع مصراوي، ٢٠١٨/١/١٣، https://www.masrawy.com/article

نهاية الإدراك في دراية الأفلاك لقطب الدِّين الشِّيرازيّ (ت ٧١٠ هـ)

الباب الثّالث عشر منه: «في معرفة خطّ نصف النّهار المُسَمَّى بخطّ الزَّوال أيضًا، وفي سمت القبلة» ودراسته

د. مصطفى موالدي*

أ. نجاح حاج إبراهيم

مقدمة:

اهتم العلماء العرب بدراسة علم الفلك، وعملوا على تطويره، ومنهم قطب الدين الشيرازي (٦٣٤-٧١٠هـ/١٢٣٦-١٣١١م) في مخطوطته «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك»، إذ عالج كثيرًا من الموضوعات الفلكية، فنجد في الباب الثالث عشر شرح كيفية تحديد خط نصف النهار المسمى بخط الزوال لأهميته في تحديد اتجاه القبلة.

بيّن الشيرازي أن الشرط الأساسي لتحديده وجود السطح الموزون المستوي الذي يعلم بعدم انحراف خيط الشاقول المعلق برأس مثلث متساوي الساقين تقع قاعدته على السطح الموزون، ثم ذكر أن تعيين خط نصف النهار يتم برسم دائرة حول سطح موزون ومراقبة ظل مقياس مخروطي حاد الرأس ينطبق مركز قاعدته على مركز دائرة الموزون طوله أقل من نصف قطر الدائرة المرسومة على السطح، فيعرف موضع دخول ظله وخروجه، ليكون الخط الواصل بين موضعي دخول الظل وخروجه ومركز الدائرة هو خط نصف النهار، وبين أن معيار تعامد المقياس مع السطح الموزون هو انطباق سطح المقياس ذي القاعدة الرصاصية الثقيلة على السطح الموزون.

كما ذكر أن خط نصف النهار يمكن أن يحدد بخط الظل عندما يكون طول المقياس نصف القطر ويكون أكبر ارتفاع للشمس /٤٥°/، ثم عرف الدائرة الهندية بالدائرة المرسومة على سطح موزون والمقسمة إلى /٣٦٠°/، وذكر أهميتها في تحديد زاوية سمت خط الظل المتحرك مع حركة الشمس والمنطبق على خطوط تقسيمها، ثم حدد أفضل الأوقات لأخذ الظل عندما يكون ارتفاع الشمس بمقدار رمحين، وتكون الشمس في المنقلب الصيفي.

ثم أشار إلى أن أفضل الطرق لتحديد خط نصف النهار هي طريقة كوشيار التي استخدم فيها الظل، ثم طريقة استخدم فيها الصفيحة الخلفية للأسطرلاب.

وأما تحديد القبلة فكانت قضية مهمة للمجتمعات الإسلامية، لأن المسلمين مطالبون بمعرفة اتجاه القبلة لأداء صلاتهم اليومية ولتحديد اتجاه المساجد، ولا سيَّما عندما وصل المسلمون إلى أماكن بعيدة عن مكة، وبعد إدخال علم الفلك في العالم الإسلامي، بدأت الحلول القائمة على المعرفة الرياضية والفلكية في التطور في أوائل القرن التاسع الميلادي، إذ أثبتت طريقة مراقبة الظل منذ القرن الثالث عشر الميلادي أو قبل ذلك.

* د. مصطفى موالدي أستاذ في معهد التُّراث العلْميّ العربيّ – جامعة حلب. نجاح حاج إبراهيم باحثة في المعهد نفسه.

-التعريف بمؤلف المخطوطة:

«هو محمود بن مسعود بن مصلح قطب الدين الشيرازي (٦٣٤-٧١٠هـ/ ١٢٣٦-١٣١١م) عالم بالفلك والرياضيات، مفسر، ولد بشيراز، وهو من بحور العلم»[١]، «وكان من أذكياء العالم، ولقبه عند الفضلاء: الشارح العلامة، حتى صار العلامةُ، إذا أُطلق، لا يُفهم غيره»[٢].

-منهج الدراسة:

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الاسترادي (تاريخي)، أي استرداد الماضي تبعًا لما تركه السابقون من كتب ومخطوطات، وتوثيق كل فكرة في البحث توثيقًا علميًا، إضافة إلى المنهج الاستقرائي الرياضي.

-وصف المخطوطات المستعملة في تحقيق المخطوطة:

استخدمنا في التحقيق ثلاث نسخ:

١- نسخة مكتبة (staas bibliothk-674 pet)، ومصورة بمكتبة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب تحت رقم (١٥٩)، ورمزنا لها بـ(ب):

هي في / ٢٣٣ / ورقة، ويقع النص المحقق بين صفحتي [(ب)١٣٣ظ) و((ب)١٣٥و]، كل صفحة تحتوي على / ٢١ / سطرًا، وكل سطر يحتوي على / ١١ / كلمةً وسطيًا، والنسخة بقلم معتاد جيد، مكتوب على وجه الورقة الأولى **اسم الناسخ وتاريخ النسخ (انتقل إلى توبة المخدوم المعظم العالم سلطان الحاج وكهف الحرمين غياث الدنيا والدين أمين إبراهيم ضاعف الله جلاله في نواحي ذي العقدة سنة ست عشرين وسبعمئة)**، ترك لصفحات المخطوطة هامش متناسق عليه تصويبات واستدراكات بخط الناسخ، وكذلك عبارات يقولها المؤلف، كما نجد عناوين رئيسية لبعض فصول وأقسام الكتاب، ومكتوب على وجه الورقة الأولى «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» لقطب الدين الشيرازي رحمة الله عليه، رسالة الهيئة من كلام مولانا قطب الدين الشيرازي.

بدايتها: (أفضل الورى علامة العالم سيد فضلاء بني آدم قدوة المحققين سلطان العلماء في العالمين حجة الحق على الخلق أجمعين مفخر أفاضل الأنام ملك القضاة والحكام قطب الملة الحق والدين محمود بن مسعود الشيرازي).

ونهايتها:«فلنختم الكتاب حامدين الله تعالى على آلائه العظام ونعمائه الجسام ومصلين على زبدة الليالي والأيام محمد خير الأنام وعلى آله البررة الكرام مصابيح الظلام ومفاتيح الكلام».

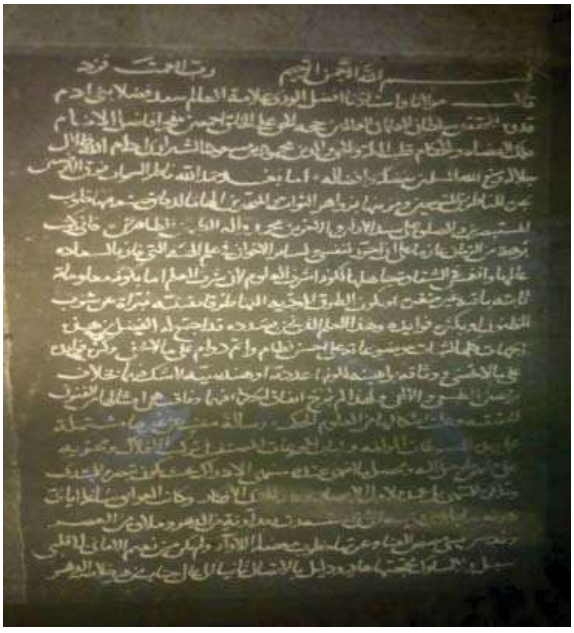

اللوحة الأولى من مخطوطة «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» مخطوط (staas bibliothk pet-٦٧٤) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٩)، وهي (ا)ظ.

١- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، أيار ١٩٨٠، ط٥، ج٧، عدد صفحات الجزء ٣٥٣، ص ص ١٨٧-١٨٨.

٢- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج٢، ص٢٩٩.

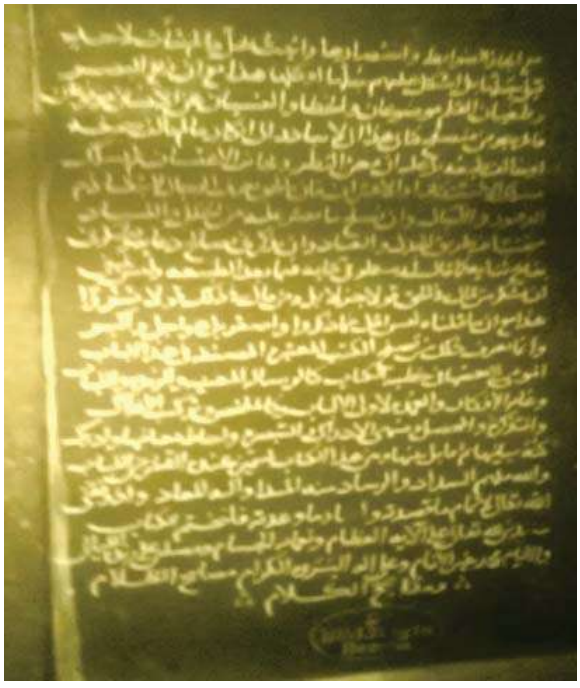

اللوحة الأخيرة من مخطوطة «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» **مخطوطة** (staas bibliothk–٦٧٤ pet) **مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٩) (٢٣٣ ظ).**

٢– نسخة مكتبة فيض الله، رقم المصدر ١٣٤٩، تاريخ النسخ مقابلة ٦٨٥هـ، كتبت في حياة المؤلف مقابلة ومصححه على نسخته، ورمزنا لها بـ(د).

يبدأ القسم المحقق [من ١١٩(د)ظ إلى ١٢١(د) و]، كل صفحة تحتوي على / ٢٦ / سطرًا، وكل سطر يحتوي على / ١١ / كلمةً وسطيًّا، والنسخة بقلم معتاد جيد، مكتوب على وجه الورقة الأولى **اسم الناسخ وتاريخ النسخ (الله حسبي من كتب لله بدر رستم بن أحمد الشرواني، أوقف شيخ الإسلام فيض الله أفندي غفر الله له ولوالديه أن لا يخرج من المدرسة التي أنشأها بالقسطنطينية سنة ١١١٢)**، ترك لصفحات المخطوط هامش متناسق عليه تصويبات واستدراكات بخط الناسخ، وكذلك عبارات يقولها المؤلف، كما نجد عناوين رئيسية لبعض فصول الكتاب، وعناوين وخطوطًا بلون أحمر، وتقع المخطوطة الكاملة في / ٢٠٧ / ورقة، تقع بين صفحتي (١و) و(٢٠٧و).

بدايتها: «أما بعد حمدِ الله فاطرِ السماوات فوق الأرضيين، عبرةً للناظرين المتوسمين، ومُزينها بزواهرِ الثوابتِ والمتحيرين».

نهايتها: «فلنختم الكتاب حامدين الله تعالى على آلائه العظام ونعمائه الجسام ومصلين على زبدة الليالي والأيام محمد خير الأنام وعلى آله البررة الكرام مصابيح الظلام ومفاتيح الكلام».

اللوحة الأولى من مخطوطة «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» من نسخة مكتبة فيض الله، رقم المصدر ١٣٤٩، (١) ظ، (٢) و.

اللوحة الأخيرة من مخطوطة « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» مكتبة فيض الله، رقم المصدر ١٣٤٩، (٢٠٢) ظ.

٣- نسخة المكتبة البريطانية برقم (٧٤٨٢/ ADD) ورمزنا لها بـ «أ».

هي في ١٤٨ ورقة، طول كل منها / ٢٩ / سنتمترًا حجم وسط، يقع القسم المحقق بين صفحتي [(أ)٩٠ظ، (أ)٩١و]، وكل صفحة تحتوي على / ٢٨ / سطرًا، وكل سطر على / ٩ / كلمات وسطيًا، ترك لصفحات المخطوط هامش بعرض / ٤ / سم من أحد الأطراف، و / ٢ / سم من طرف آخر، عليه رسوم وتصويبات وشرح وتعليقات، على وجه الورقة الأولى عبارات تملك مختلفة، **وعليها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، (بدأ المخطوط الجناب العالي الأميري الكبيري الزيني مرجان المالكي الأشرفي، وأكمله في القاهرة في ١٧ ربيع ثان٨٧٢ / ١٥ نوفمبر ١٤٦٧ عبد الغفار بن موسى بن أحمد بن محمد بن حسين بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله العمري الجزري الشافعي)**.

بدايتها: قال مولانا وسيّدنا سلطان الحكماء والمحقّقين أفضل المتقدّمين والمتأخرين كاشف المعضلات مبدع المعاني مخترع الغرائب والنوادر قطب الحق والدين الشيرازي أدام الله جلاله، وحرس عن عين الكمال كماله، أما بعد حمد لله فاطر السماوات فوق الأرضين عبرة للناظرين المتوسمين ومزينها بزواهر الثوابت والمتحيرين...

نهايتها: اتفق تمامه على يَدي العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب والتقصير المحتاج إلى عفو ربه القدير عبد الغفّار بن موسى بن أحمد بن محمد بن حسين بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله العمري نسبًا الجزري مولدًا الشافعي مذهبًا غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين خصوصًا لمن نظر فيه ودعا لهم بالمغفرة، وذلك بالقاهرة المحروسة بالظاهرية العتيقة بتأريخ يوم الأحد السابع عشر من ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين والثمانمائة.

اللوحة الأولى من مخطوطة «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» نسخة المكتبة البريطانية برقم (ADD/7482) (١ظ).

اللوحة الأخيرة من مخطوطة «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» نسخة المكتبة البريطانية برقم (ADD/٧٤٨٢) (١٤٦ظ).

منهج التحقيق

ومن أجل تسجيل الاختلافات بين النسخ **اعتمدنا بشكل رئيسي على مخطوطة مكتبة فيض الله**، رقم المصدر ١٣٤٩، تاريخ النسخ مقابلة ٦٨٥هـ، كتبت في حياة المؤلف **مقابلة ومصححة على نسخته**، رمزها (د) كأساس للمقارنة للأسباب الآتية:

أولا- وضوح خط المخطوطة.

ثانيا-هي النسخة الأقرب إلى نسخة المؤلف والأكثر دقة.

وهدف هذا الاختيار تسجيل الاختلافات بين المخطوطات، وإثبات النص.

اعتمدنا في تحقيق هذا الجزء من المخطوطة على أسس التحقيق المنهجي للمخطوطات والوثائق التاريخية وقواعده.

وسنثبت النص بطريقة متوافقة مع أسلوب العصر، وفيما يأتي القواعد التي نتبعها في إثبات النص:

١- الأقواس والرموز:

-<...> القوسان المكسوران يحصران ما نضيفه ضمن المخطوطة.

-(...) ما بين القوسين له حاشية.

-[...] يدل ما نقترح حذفه.

- / ابتداء صفحة المخطوطة.

-و: وجه صفحة المخطوطة.

-ظ: ظهر صفحة المخطوطة.

-«...» للإشارة إلى كلام المؤلف.

٢- الهوامش:

-يشار إلى التعليق برقم الحاشية.

-يفصل بين الرواية المثبتة وغير المثبتة بنقطتين.

-يفصل بين رموز المخطوطات الواحدة عن الأخرى بفاصلة (،).

٣- طرق الإحالة:

نحيل على المخطوطات بالإشارة إلى رقم الورقة متبوعًا بـ «و»(وجه) أو «ظ»(ظهر).

٤- الشكل:

ضبطنا شكل بعض الكلمات لتجنب الالتباس مثل يُرى، وكذلك الآيات القرآنية والأفعال المبنية للمجهول.

٥- علامات الترقيم:

أضفنا علامات الترقيم للنص مثل: النقطة (.) والنقطتين (:)، والفاصلة (،) وعلامات التنصيص«»، وإشارة الاستفهام، وذلك لتسهيل قراءة النص وفهمه، ولتجنب الغموض.

٦- تقسيم النص:

حافظنا على تقسيم الباب إلى فقرات.

٧- الكتابة:

سنعمد الإملاء الحديث والكتابة الحديثة، ولا سيَّما الهمزات دون الإشارة إلى ذلك في الحواشي السفلية.

٨- محتوى الحواشي:

١.-الرواية المثبتة والروايات الواردة في النسخة الأخرى.

٢.-بدايات صفحات المخطوطات.

٣.-أُضيف شرح للمفردات الغريبة من المعاجم العربية.

النص المحقق:

«الباب الثالث عشر: في معرفة خط نصف النهار المسمى بخط الزوال أيضًا وفي سمت القبلة»:

يحتاج في هذا الباب إلى السطح الموزون، وطريق تحصيله أن نسوي مكانًا، بأن يأخذ مسطرة مصححة، ونضع وسطها على نقطة في وسط ذلك المكان، وندير المسطرة عليه إلى أن يماس المسطرة في جميع الدور، ولا يبين بينهما ضوء، ثم يزن هذا الوجه الصحيح

بالأفاذيـن، ويسمـى بالكونيا (أيضًـا)[٣] / [٤]، وهذه صورها بأن توضع قاعدة أيّها حضر على ذلك الوجه.

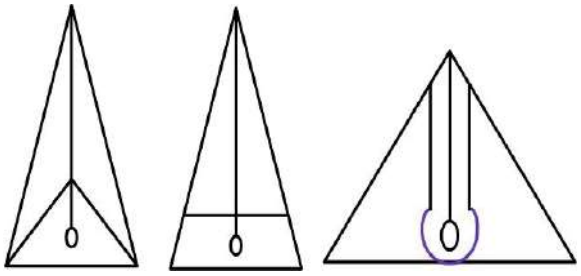

الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوطة في المكتبة البريطانية برقم (ADD/٧٤٨٢) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم(٢٢٤).

ونعدّ مطابقة خط الشاقول لعمود المثلث، ونعدل ما انخفض من السطح، ونسوي ما ارتفع إلى أن يصير بحيث إذا دارت قاعدة المثلث على جميع السطح لا يميل الخط عن العمود، فهذا هو المسمى **بالسطح الموزون**، وهو المعتمد عليه / [٥] عند الرصاد وأهل العمل.

لا ما هو المشهور، وهو أن يسوي أرضًا بحيث لو صبّت فيها ماء سال من جميع الجهات بالسوية، وإذا ألقي في موضع منها شيءٌ متدحرج كالبندقة مثلًا وقف مهتزًا مرتعدًا لا يميل إلى جهة ما، فإنه لا يجدي بطائل على ما لا يخفى.

ثم السطح الموزون (إن لم يكن على الأرض بل كان على حجر ونحوه مثبتة بحيث لا يتغير وضعه ولا وزنه، ونخطّ على السطح الموزون)[٦] دائرة أصغر من أعظم دائرة تخط فيه بمقدار أصبع، ليتبين موضع دخول الظل وخروجه، ونعمل مقياسًا من نحاس أو خشب مخروطًا (بالشهر)[٧] مستدق الرأس، لئلا يكون الظل غليظًا، وينبغي ألّا تكون دقته في الغاية لئلا يخفى ظله، ونجعل سعة قاعدته بحيث إذا وضعناه على السطح ثبت قائمًا عليه غير متزلزل، بأن يحفر في وسط قاعدته إن كان من خشب لا من نحاس ونحوه حفرًا، ويقلب فيه شيئًا من (رصاص)[٨] ليثقُل فيثبت.

والمشهور أن طول المقياس ينبغي أن يكون ربع قطر الدائرة المرسومة على السطح أو أكثر بشرط ألّا يصل إلى نصف القطر، وإنما اشترط ذلك لأن طوله لو كان مثل نصف القطر، وظل كل شيء مثله إذا كان الارتفاع خمسة وأربعين لما قدّمنا في باب الظل أن ظل ثمن الدور يساوي المقياس، لما وصل طرف الظل إلى محيط الدائرة في البلاد والأوقات التي لا يصل الارتفاع فيها إلى خمسة وأربعين، ولما تم العمل بهذا الوجه، **والأولى** أن يقال: يجب أن يكون طول المقياس بمقدار / [٩] ما يقصر ظله / [١٠] عن محيط الدائرة وقت نصف النهار، ويتجاوز عنه في جنبتي نصف النهار.

ثم ندير على المركز المذكور دائرة مساوية لقاعدة المقياس أو / [١١] أكبر منها بقليل بحيث إذا وضعنا القاعدة عليها انطبقت عليها، أو نراها محيطة بالقاعدة من جميع الجهات وموازية لها، ويكون حينئذ مركز قاعدة المقياس منطبقًا على مركز الدائرة، والمقياس قائمًا على السطح، **وهذا هو المعتبر المعمول عليه في كون المقياس قائمًا لا امتحانه بالشاقول**، ولا

٣- أيضًا: ناقصة (أ).
٤- بداية (د)١٧٤ ظ.
٥- -بداية (ب)١٩٥ظ.
٦- إن. .الموزون: ناقصة(ا).
٧- بالشهر: بالسهر (د)، (ب).
الشهر: في حديث عائشة خرج شاهرًا سيفه راكبًا راحلته يعني يوم الردة، أي مبرزًا له من غمده، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦.ج٣، ص٣٨١. ، ج٤، ص٤٣٣
٨- رصاص: رصائص(أ).
٩ -بداية (أ)١٢٨و.
١٠ - بداية (د)١٧٥ و.
١١ - بداية (ب)١٩٦و.

بـأن يقدّر ما بـين رأس المقياس والمحيـط بمقدار واحد من ثلاث نقط من المحيط وإن اشتهرا، **ثم نرصـد قبل نصـف النهار** وصـول طرف الظل إلى محيـط الدائرة من جهـة المغرب، فعنـد وصوله إليه قبـل دخوله فيها ننصّف عرض الظل، ونعلم عليه، فإن منتصفه **هو نقطة الدخـول**، وكذا نعمـل في الطرف الآخر، فـإن منتصفه نقطـة **خروج الظل**، وننصف إحدى القوسين، ونصل بين منتصف إحداهما والمركز بخط مستقيم فإنه يكون خـط نصف النهار، أعني الفصـل المشترك بين دائرتي الأفـق ونصـف النهـار، وذلـك لأن الظلـين متساويان لكونهما مساويين لنصف قطر دائرة واحدة، والأظلال المتساوية إنما تكون لارتفاعات متساوية.

وهـذا وإن برهـن عليـه لكنـه لا يتقاصـر[١٢] عـن الأوليـات عند من تصور زيادة الظل ونقصانه بحسب نقصـان الارتفـاع وزيادتـه، فارتفاعـا هذيـن الظلين متساويان فجيبـا تمامهما متساويان، وهما مساويان للخطـين الخارجـين من مركـز المقياس علـى استقامة الظلـين، (لأن الظلـين)[١٣] علـى الفصـل المشترك بين **دائرتـي** الارتفاع والأفـق، وكذا الخطـان المذكوران، ونهايتا هذيـن الخطين هما مسقطا حجري الارتفاعين أعنـي جيبهما، والخـط الواصل بين هاتـين النهايتين هـو مساوٍ لوتر الدائر مـن الفلك بين وقتي الارتفاعين في المـدار ومـوازٍ لـه، لأن الخطـوط الواصلـة بـين أطـراف / [١٤] الخطوط المتساويـة المتوازية كالجيبين في مثالنا لتساويهمـا وتوازيهما لكونهما عمودين على الأفق متساوية متوازية. ولأن كل نقطتين في مدار واحد متساويتي مقدار الارتفاع مختلفتي جهتيه من المشرق والمغرب فـإن بعديهما عـن نصف النهـار متساويان، لينصـف نصـف / [١٥] النهـار القطعة من المـدار التي بـين النقطتين، إذ لتسـاوي ارتفاعهما تكـون مقنطرة ارتفاعهما المقاطعة للمدار واحدة، ولتقاطعهما ومرور نصـف (النهار)[١٦] بقطبيهما ينصف قطعهما لما تقدم في / ح /، فسطح نصف النهار ينصف وتر **الدائر من الفلـك** بين الارتفاعين، والخط الموازي له الواصل بين نهايتي جيبي تمامي الارتفاعين، فينصف أيضًا الخط الواصـل بين طـرفي الظلـين لتشابه المثلثـين، لتوازي قاعدتيهمـا على مـا يظهـر بالتطبيق، لتسـاوي زاوية الرأس فيهمـا وكونهما متساوي الساقـين، وإذا كان نصف النهار ينصف الخط الواصل بين طرفي الظلين، فالخـط الواصل بـين منتصفه و(مركـز)[١٧] المقياس يكون في سطح نصف النهار وهو المطلوب.

ونحـن إنمـا نصـفنا القوس لأنـه لا يحتـاج إلى عمـل آخـر، **بخلاف تنصـيف الخـط الواصـل** فإنه يحتـاج إلى إخراجـه، ولنـا أن نقـرر المطلـوب بوجـه آخـر **ونقول**: فـلأن نصف النهار ينصـف القطعة من المقنطرة التي بين دائرتـي الارتفاع كما تقدم تقريره، ونصـف (النهـار)[١٨] ودائرتا الارتفـاع مرت بقطبي الأفـق والمقنطـرة المتوازيـين، فينفصـل فيمـا بينهما مـن المتوازيـة قسـي متشابهـة لمـا بـيّن في الأكـر[١٩]،

١٢– قَصَرَ عن الأمر يَقْصُرُ قُصُورًا: عجز وكفّ عنه، ويقال: قصر الشيء علـى كذا: لم يجاوز بـه إلى غيره. (أَقْصَرَ) عن الشيء: كفّ ونزع عنه وهو يقدر عليـه والشيء: جعله قصيرًا. (قَصَّرَ) فلان عـن الأمر: تركه وهو لا يقدر عليه. وفي الأمر: تهاون فيه.. (اقْتَصَرَ) على الشيء: اكتفى به ولم يجاوزه. والشيء: أخذ من طوله. وأثر الشيء: تتبعه. (تَقَاصَرَ) عن الأمر: كفّ عنه وعجز.)
مجموعـة مـن المؤلفـين، المعجـم الوسيـط، مكتبة الشـروق، ط٤، ٢٠٠٤، ص٧١٣.

١٣– لأن الظلين: ناقصة(ب).

١٤ –بداية (ب)١٩٦ظ.

١٥ –بداية (د)١٧٥ ظ.

١٦– النهار: ناقصة(ا).

١٧– مركز: طرف(ب).

١٨– النهار: ناقصة(ا).

١٩– إذا مرت دوائر عظام في كرة بقطبي دوائر متوازية كانت القسي الواقعـة إمـا من المتوازية بـين العظـام فمتشابهة، وإما مـن العظام بين المتوازية فمتساوية، ثاوذوسوس، «كتاب الأكر»، ملخص في الرياضيات، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية، Add MS23570، ص١٠٢.

فيكـون القوسان مـن المقنطرة المتساويتـان شبيهتين بنظيرتهما من الأفق / [٢٠] فهما أيضًا متساويتان.

ولتساويهمـا وكـون الأفـق / [٢١] موازيًـا للدائـرة المرسومـة على السطح الموزون لكون مركزهما وهو أصل المقياس واحد، إذا وصل بين المركز وطرفي كل من القوسين بخطين مستقيمين، يفصلان من الدائرة المرسومة قوسين متساويتـين، لأن الخطـوط الخارجـة مـن مركـز الدوائر المتوازية تفصل فيما بينهما من محيطاتها قسيًّا متشابهة، فـإذن نصف النهار ينصف القوس التي بين طرفي الظلين، فالخـط المـار بالمركـز المنصف للقوس المذكـورة يكون في سطح نصف النهار وخطه، وهو المطلوب.

ولا يخفـى بعـد الإحاطـة بمـا ذكرنـا أن طـول المقياس لـو كان نصف القطر، فـإذا وصل طرف الظل إلى محيـط الدائرة كان الظـل في سطح نصف النهار إن كان غايـة الارتفـاع ثمن الـدور لما تقـدم، **والخط المار** بمركـز الدائرة المرسومة وفي سطحهـا عمودًا على خط نصف النهار يكـون في سمت دائرة أول السموت، وهو خـط المشـرق / [٢٢] والمغرب وخط الاعتـدال، ويربعان الدائرة، ثم يقسم كل ربع تسعين قسمًا متساوية ليعرف مقاديـر السموت من خطوط الظل الواقعة على المحيط، لأن مـا بين نقطتي المشـرق والمغرب وخط الظل من تلك الأقسام **سمت، وهذه الدائرة تعرف بالهندية.**

واعلـم أن **أصـلح الأوقـات لأخذ الظـل** أن يكون ارتفـاع الشمس قيد رمحين[٢٣]، لأنهـا إذا كانت قريبة من الأفق كانـت الأظلال طوالًا متشتتـة الأطراف، فلا تتحقق أطرافها عند الحس، وإذا كانت قريبةً من نصف النهار، تكون الأظلال مع كونها مشبعة في الظلمة بطيئة التقلص، فلا يتحقق آن دخـول الظل، ولا آن خروجه، فـلا يتحقـق تساوي زماني البعد عـن نصف النهار ولا خط نصف النهار، **وأما الأمر المتوسط:** فتجتمع فيه سرعـة الحركة وصبـغ الظل، ويسلـم / [٢٤] عن تشتت طـرف الظل وبطء حركته، وأن تكون أيضًا الشمس في الانقـلاب الصيفـي أو قريبًا منه، لئلا يكـون لميلها عن الموازيـة للمعدل في زمان سيرها فيمـا بين دخول الظل وخروجه قدرٌ يعتد به فيخل بالمقصود، لابتناء البرهان علـى أن الشمـس تـدور في اليـوم الواحـد علـى دائرة موازيـة للمعـدل في الحس، ولأن ضياءهـا (حينئذ)[٢٥] أشـد من ضيائها في الجدي لما تقدم من اجتماع الأشعة في الصيـف دون الشتـاء، وإذا كان الضـوء أكـثر كان (الفضل)[٢٦] بين الشعاع والظل أظهر.

ويجب أن تعلم مع (ما)[٢٧] (قد)[٢٨] علمت أنه كما يكون **للأظلال المتساوية ارتفاعات متساوية، كذلك يكون للارتفاعات المتساوية أظلال المتساوية**، وإذا كان كذلـك فلو رصد في يوم واحد ارتفاعان متساويان للشمس عـن جنبتي غاية ارتفاعهـا، ويخط على سطح مـوزون سمتـا ظليهما عـن مقياس واحد، (ثـم)[٢٩] تنصّـف الزاوية الحادثة بينهمـا بخط، كان ذلك الخط في سطح نصف النهار، ولميته معلومة مما تقدم.

وأمـا تنصـيف الزاويـة: فبـأن يُفـرز مـن الظل مقداران متساويان من أصل المقياس، ويوصل بينهما بخـط، ثم يُنصف ذلـك الخط، ويوصل بـين المنتصف

٢٠ –بداية (أ)١٢٨ظ.

٢١ –بداية (ب)١٩٧و.

٢٢ –بداية (د)١٧٦ و.

٢٣– قيـد رمح: وهو مني قِيد رمـح، بالكسر، وقاد رمح أي قدره، وفي حديـث الصـلاة: حين مالـت الشمس قيـد الشراك، الشـراك أحد سيور النعل التي على وجهها، وأراد بقيد الشراك الوقت الذي لا يحوز لأحد أن يتقدمه في صلاة الظهر، يعني فوق ظل الزوال فقدره بالشراك لدقته، وهو أقل ما تبين به زيادة الظل حتى يعرف منه ميل الشمس عن وسط السماء، وفي الحديث رواية أخرى حتى ترتفع الشمس قيد رمح. ابن منظور، لسان العرب[ق ي د] .

٢٤ –بداية (ب)١٩٧ظ.

٢٥– حينئذ: ناقصة(ا).

٢٦– الفضل: الفصل(أ)، (ب).

٢٧– ما: ناقصة (ب).

٢٨– قد: ناقصة (أ).

٢٩– ثم: ناقصة(ا).

والزاوية بخط، والأسهل أن تجعل نقطة الزاوية مركزًا، وترسم دائرة تقطع الظلين، وتُنصف القوس التي بينهما، وتوصل كما مر.

قال كوشيار[٣٠]: نسوي[٣١] موضعًا من الأرض حتى يصير سطحه موازيًا للأفق، وندير فيه دائرة، ويغرز في المركز إبرة / [٣٢] مستوية القائمة، ونقدر قيامها على السطح من ثلاثة مواضع متباعدة على محيط الدائرة، ثم إذا كان بالقرب من نصف النهار رصدنا رأس ظل الإبرة وهو متناقص، بأن يعلم على مواقعه كما يدور علامات متقاربة / [٣٣] جدًا برأس إبرة أخرى، ويستقصي[٣٤] فيه حتى يأخذ الظل في الزيادة، ثم نصل بين أقرب العلامات من المركز وبين المركز بخط مستقيم، فيكون خط نصف النهار.

وجه آخر: وهو أن نسوي الأرض والدائرة والشخص كما قلنا، إلا أن الدائرة تكون مساوية لدائرة الارتفاع التي على ظهر الأم من أسطرلاب يحضّر، وطول الشخص بحيث لا ينقص ظله عن محيط الدائرة عند نصف النهار، ثم يستخرج سمت ارتفاع عن أحد جنبتي نصف النهار، ونعلّم عند وجود ذلك الارتفاع على موقع الظل من محيط الدائرة علامة، ونأخذ من دائرة الارتفاع على الأسطرلاب بالبركار مثل تمام السمت، ونضع أحد رجلي البركار على العلامة، والرجل الأخرى حيث وقع من محيط الدائرة في جهة الارتفاع شرقيًا كان أو غربيًا، ويخرج (من)[٣٥] موقعه خطًا إلى مركز الدائرة، فيكون خط نصف النهار، فإن كان الارتفاع هو الارتفاع الذي لا سمت له كان سمت الظل خط المشرق والمغرب، والخط الخارج من منتصف نهايته إلى مركز الدائرة خط (نصف)[٣٦] النهار، ولاستخراج هذا الخط وجوه كثيرة إلا أن كلها دون هذين الوجهين في الاستقصاء والقرب من الصواب، إذا أخذناه من حيث العمل، فأما من حيث العلم فكلها صحيحة مبرهنة، هذا كله لفظه، وإنما نقلته على ما هو عليه ليعتبر أنه هل يصح ما قاله أم لا، إذ الظاهر أنهما لا يكونان في القرب من الصواب مثل الوجهين المتقدمتين، يظهر بالاعتبار لمن وفق له.

وأما **سمت القبلة**: فهي نقطة تقاطع أفق البلد المفروض والدائرة السمتية المارة بسمتي <رأسي> البلد ومكة، والخط الواصل بين مركز الأفق وتلك النقطة هو خط سمت القبلة / [٣٧] وهو سهم لقوس يبنى أساس المحراب[٣٨] عليها، ومنصف لها، فالمصلي إذا جعله بين رجليه ساجدًا عليه يكون قد صلى على محيط دائرة على بسيط الأرض، مارةً بموضع سجوده وما بين قدميه ووسط البيت، أو يكون قد استقبل الخط الواصل بين البيت والنقطة التي تسامته من السماء المسماة سمت رأس مكة، لا أنه (قد)[٣٩] يكون قد استقبل البيت بمعنى أن الخط / [٤٠] المستقيم الخارج من بصره يقع على البيت، لأن أفق مكة يكون تحت أفق المصلي فلا يسامت (نظره)[٤١] البيت بل الخط المذكور، ومنه يطّلع (على)[٤٢] فساد تفسير سمت القبلة بأنها

٣٠- كوشيار الجيلي (٠٠٠-٣٥٠هـ/٩٦١م) أبو الحسن مهندس فلكي من العلماء صنف مجمل الأصول في أحكام النجوم والزيج الجامع والمدخل في صناعة أحكام النجوم والأسطرلاب، الزركلي، الأعلام، ...، المرجع سبق ذكره، ج٤، ص٥، ص٢٦.

٣١- نسوّي: نعدل. باب الواو والياء فصل السين، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، مكتبة النور، دمشق، باب الزاي، ص٦٠٦.

٣٢- -بداية (د)١٧٦ ظ.

٣٣- -بداية (ب)١٩٨و، -بداية (أ)١٢٩و.

٣٤- يستقصي: يتتبّع ويتحرّى.

٣٥- من: ناقصة (أ)، (ب).

٣٦- نصف: ناقصة(ب).

٣٧ -بداية (ب)١٩٨ظ.

٣٨- المحراب: صدر البيت وأكرم موضع فيه وهو أيضًا الغرفة، ابن منظور، لسان العرب، [ح ر ب].

٣٩- قد: ناقصة (د).

٤٠ -بداية (د)١٧٧ و.

٤١- نظره: نظيره(أ).

٤٢- على: ناقصة (أ)، (د).

نقطة في الأفق إذا واجهها الإنسان كان مواجهًا للكعبة، اللهم إلا أن تأوّل المواجهة وتنزّل على ما قلنا.

وأما سمت القبلة عن البلد المسماة بقوس الانحراف أيضًا: فهو قوس من الأفق بين تقاطعه مع السمتية المذكورة وبين إحدى النقط الأربع، أعني المغرب والمشرق والجنوب والشمال، وهو مقدار ما يجب أن ينحرف المصلى عن مواجهة إحدى النقط ليواجه البيت كما ذكرنا، **وتمام الانحراف:** هو قوس منه أيضًا بين نقطة سمت القبلة وإحدى النقط.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه لا بد في معرفة سمت القبلة وسمتها عن بلد آخر من معرفة طول مكة وعرضها، وطول (البلد المفروض وعرضه، أما طول مكة حماها الله فعن جزائر الخالدات سبعة وسبعون جزءًا وسدس جزء)[٤٣]، وعن ساحل البحر الغربي سبعة وستون جزءًا وسدس جزء، وعرضها أحد وعشرون جزءًا وثلثا جزء، فكل بلدة يكون طولها أقل من طول مكة فمكة شرقية عنها، وكل بلد يكون طولها أكثر من طول مكة / [٤٤] فمكة غربية عنها، وإن كان عرضها أقل من عرض مكة فمكة شمالية عنها، وإن كان أكثر منه فجنوبية، ثم البلدة المفروضة مع مكة / [٤٥]لا يخلو من أن تكونا مختلفتين، إما في العرض فقط، أو في الطول فقط، أو في كليهما، **فإن كان الأول:** كانتا تحت نصف نهار بعينه، ولا يكون لإحداهما سمت عن الأخرى، بل يكون سمتهما على خط نصف النهار، فتوجُّه المصلي نقطة الجنوب إن كان عرض مكة أقل، ونقطة الشمال إن كان أكثر، وإن **كانت الثاني:** كانتا تحت مدار واحد يومي، وقد ظنّ قوم ومنهم **كوشيار** وقد صرّح به في مواضع: أن السمت بينهما يكون على خط المشرق والمغرب، والقبلة إلى حقيقة المشرق إن زاد طول مكة، وإلى حقيقة المغرب إن نقص، وهو ظن باطل وخطأ فاحش، إذ لاختلاف طوليهما يكون أول السموت لإحداهما يماس المدار المذكور على نقطة غير التي يماسها أول السموت للأخرى، لقطع أولى السموت للمعدل على نقطتين مختلفتين، فيتقاطع أولا السموت لهما على غير نقطتي المشرق والمغرب، فلا يكون خط مشرقهما ومغربهما واحدًا، ولا السمت بينهما ذلك، ولا القبلة (إلى)[٤٦] حقيقة المشرق والمغرب، بل كانت عن يسار مشرق الاعتدال لتلك البلدة إن كان طولها أقل من طول مكة / [٤٧]وعن يمين مغرب الاعتدال إن كان طولها أكثر، لأن سمت رأس مكة يستحيل أن يكون على دائرة أول السموت للبلدة المفروضة، وإلا لكان عرضها أقل من عرض تلك البلدة، إذ كل نقطة عليها غير سمت الرأس عرضها أقل، وأن يكون بين دائرة أول السموت والمعدل بطريق الأولى، فيقع سمت رأس مكة بالضرورة خارجًا عن أول السموت ويلزم ما ذكرنا.

نعم ما ظن إنما يصح في مساكن خط الاستواء وإن اختلفت في الطول حتى صار نصف نهار القبة أفقًا للمشرقيين والمغربين، لا لكون خطوط مشرقهم ومغربهم جميعًا في سطح معدل النهار / [٤٨] على ما سبق إلى الوهم، لأنه في غير خط الاستواء كذلك، بل لأن سمت رؤوس الجميع على المعدل إذ هو بمنزلة أول السموت لهم، **وإن كان الثالث**: فلا يكونان لا تحت نصف نهار ولا مدار يومي بعينهما ويحتاج فيه وفي الثاني إلى معرفة قوس الانحراف، **ولها طرق كثيرة لا يليق إيرادها ههنا فلنقصر على وجوه سهلة منها:** أن الشمس تكون مارة بسمت مكة عند كونها في **الدرجة الثامنة من الجوزاء، والثالثة والعشرين من** السرطان وقت انتصاف النهار هنالك، لأن ميل

٤٣- البلد ..جزء: ناقصة(ا).
٤٤ -بداية (أ)١٢٩ظ.
٤٥ -بداية (ب)١٩٩و.
٤٦- إلى: ناقصة (ب)، (د).
٤٧ -بداية (د)١٧٧ ظ.
٤٨ -بداية (ب)١٩٩ظ.

هذين الجزأين يساوي عرض مكة المذكور، والفضل بين نصف نهارها و(بين)[٤٩] نصف نهار سائر البلدان يكون بقدر التفاوت بين الطولين، فليؤخذ التفاوت، ويؤخذ لكل خمسة عشر جزء ساعة، ولكل جزء أربع دقائق. فيكون ما اجتمع ساعات البعد عن نصف النهار، ويرصد في ذلك اليوم ذلك الوقت قبل نصف النهار إن كانت مكة شرقية، أو بعده إن كانت غربية، فسمت الظل ساعتئذٍ يكون سمت القبلة.

ومنها: أن نضع أحد الجزأين اللذين يسامتان مكة من البروج وهما / ر كا / من الجوزاء و / كب لط / من السرطان على وسط السماء في أسطرلاب بلدنا، **ونعلم على المري**، ثم ندير العنكبوت بقدر ما بين الطولين إلى المغرب إن كان بلدنا شرقيًا من مكة، وبالخلاف إن كان غربيًا منها، فحيث انتهت الأجزاء من مقنطرات الارتفاع رصدنا بلوغ الشمس إليه، ونصبنا مقياسًا، فظله في ذلك الوقت هو سمت القبلة، وهو قريب من الأول.

ومنها: أن نعد أجزاء ما بين الطولين والعرضين من أجزاء الدائرة الهندية، ونخرج / [٥٠] من / [٥١] منتهى الأجزاء خطين يوازي أحدهما نصف النهار والآخر لخط المشرق والمغرب / [٥٢] فيتقاطعان لا محالة، ونصل بين المركز ونقطة التقاطع بخط مستقيم، وينفذ إلى المحيط، فإنه يكون خط سمت القبلة.

ومنها: أن يقسّم خط نصف النهار بأقسام متساوية، ويأخذ منها بقدر تفاضل ما بين عرض البلد ومكة مع كسر إن كان، ونقيم عمودًا على طرفه الشمالي إن كان عرض البلد أقل من عرض مكة، وعلى الجنوبي إن كان أكثر، وفي جهة المشرق إن كان طول مكة أكثر، وفي جهة المغرب إن كان أقل، ونقسّمه بمثل ما قسّمنا به الخط الأول، ثم يأخذ منه بمقدار ما بين الطولين من هذه الأجزاء ومع كسر إن كان، ونصل بين ما انتهى إليه وبين النقطة الأخرى من نصف النهار بخط، فيحصل مثلث قائم الزاوية ويكون سمت القبلة على الخط الثالث الذي هو وتر القائمة، وهذه الطريقة وما قبلها تقريبية، ولا تتمشى في البلد الذي يساوي عرضه عرض مكة ولا طولها، لابتنائهما على تفاضل ما بين الطولين والعرضين.

ومنها: أن نأخذ كرة صحيحة الاستدارة عليها عظيمة مقسومة بثلاثمئة وستين جزءًا بمنزلة أفق البلد، وهي أ ب جـ د، ونقيم عليها نصفَ نصف النهار وهو / أ هـ جـ /، و / هـ / سمت رأس البلد، ونفصل منه / ح جـ / بقدر عرض البلد، بأن نأخذ بالبركار من أجزاء الأفق من نقطة الشمال مثل (العرض)[٥٣]، فـ / ح / قطب المعدل فيرسم عليه عظيمة / ب ر د /، قاطعًا للأفق على د ب المغرب والمشرق، ولنصف النهار على / ر / فإن وجدنا ما بين **ر** و هـ سمت الرأس مثل ارتفاع القطب فقد صح العمل، وإلا فلا، ثم البلدان إن اختلفا عرضًا فقط، فخط نصف النهار وهو خط سمت القبلة فيستخرجه، وهو الذي لا بد منه في جميع الوجوه.

وإن اختلفا طولًا فقط: فيرسم على / ح / وببعد / **هـ** / [٥٤] **موازيه(/ه ع ص /)**[٥٥] فيمر بسمت رأس مكة، ونفصل من المعدل من عند نصف النهار مقدار ما بين الطولين في الجهة التي مكة فيها، فيكون شرقي نصف النهار إن كان طول مكة أكثر مثل / رط /، وإلا غربيه إن كان أقل من طول البلد، ونرسم عظيمة تمر بنقطتي / ح /، / ط /، وقطبها على المعدل وهي / ح ع ط / مع سمت رأس مكة، ونرسم عظيمة تمر بسمتي الرأس وهما / هـ /، / ع /، وتقطع الأفق على / ف / فـ / أ ف / قوس السمت / [٥٦] وهي معلومة من أجزاء الأفق المقسوم، و / ف /

٤٩- بين: ناقصة(ا).
٥٠ -بداية (أ)١٣٠و.
٥١ -بداية (د)١٧٨ و.
٥٢ -بداية (ب)٢٠٠و.
٥٣- العرض: ناقصة(ب).
٥٤ -بداية (ب)٢٠٠ظ.
٥٥- هـ ع ص: ع ص(د)، (أ).
٥٦ -بداية (ب)٢٠١و.

نقطـة السمـت، ولأنها قطعت الأفـق على / ف / دون / ب / ،[/ ص /]، </د/>، فلا يكـون سمت القبلة على خط المشرق والمغرب على ما ظُنَّ، ولا على الفصل المشترك بين الموازية والأفق.

وإن اختلفا طولًا وعرضًا: فليكن[٥٧] فضل ما بين الطولين / ر ل / ، /[٥٨] **وعرض مكة** / ر ك / ، ونرسم على / ح / وببعد / ك / موازية / ك م ن / ، وعظيمة / ح م ل / فـ / م / سمت رأس مكـة، ثم نرسم عظيمة / هـ م س / فـ / ا س / قوس السمـت وهي معلومة من أجـزاء الأفق، وإذا صارت قوس السمت معلومة فإما أن يفصـل مقدارهـا من الدائـرة الهنديـة، ونخط خط السمـت، أو يوضع نصف نهـار الكرة على خط نصف النهـار وسمت الرجـل منها على مركـز الهندية، فنعلم نقطـة السمت ونخـط الخط وهو ظاهـر، وإنما أوردت هـذا الوجـه وإن كان يوهـم أن فيه صعوبـة لغرابته، ولأنـه لا /[٥٩] يتقاصـر عـن غـيره في السهولـة، يظهر لمـن له أدنى دربة بأعمال اليـد، وهذا آخر المقالة الثالثة والحمد لله واهب العقل، وباسط الجود والفضل.

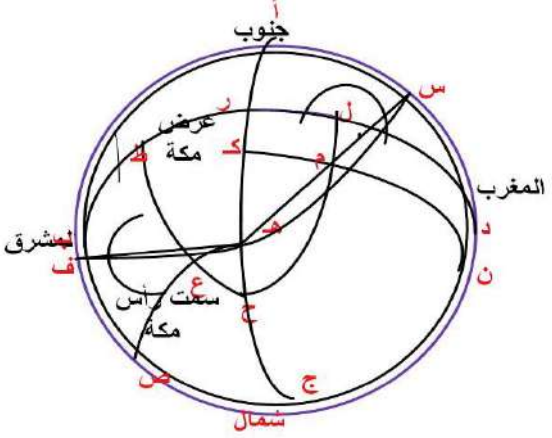

الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوطة في المكتبة البريطانية برقم (٧٤٨٢/ ADD) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٢٤).

٥٧-: فليكن: فليكون(أ).

٥٨ -بداية (د)١٧٨ ظ.

٥٩ -بداية (أ)١٣٠ظ.

الدراسة العلمية للباب الثالث عشر: «في معرفة خط نصـف النهار المسمى بخط الزوال أيضًا، وفي تحديد سمت القبلة».

سندرس الموضوعات الآتية:

١- صنع السطح الموزون.

٢- تحديد خط نصف النهار.

٣- تحديد خط نصف النهار حسب كوشيار.

٤- طريقة أخرى لتحديد خط نصف النهار.

١- صنع السطح الموزون:

نحتـاج في هـذا البـاب إلى السطـح المتـوازن، وللحصـول عليـه نسـوي مكانا بـأن نأخـذ مسطرة صحيحـة الاستقامـة، ونثبـت وسطهـا علـى نقطة في منتصـف ذلـك المـكان، وندير المسطـرة عليـه إلى أن يماس السطح المسطـرة في جميع الـدور، فلا يسمح بمـرور ضـوء بينهمـا، ثـم تختـبر صحـة الانطبـاق بوضـع قاعدة الأفاذين، ويسمـى الكونيا التي تظهر صورهـا عليها (جسم مثلث متسـاوي الساقين يعلق مـن رأسه خيط مستقيـم مع شاقـول)، على السطح المـوزون بالطريقة السابقة الذكـر بحيث ينطبق **خط الشـاقول** على عمود المثلث، ثم نعـدّل ما انخفض من السطـح، ونسوي ما ارتفـع إلى أن يصبح على سوية واحـدة بحيـث إذا دارت قاعدة المثلـث على جميعه لا يميـل الخـط عـن العمـود، **فيكـون هذا السـطح هو المسمى بالسطح الموزون.**

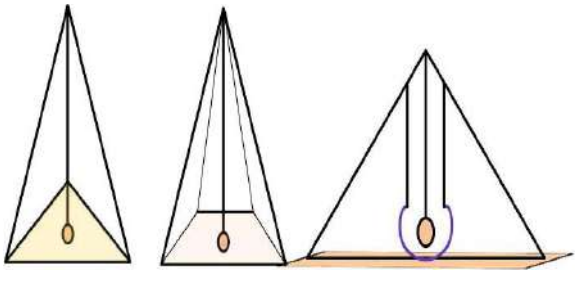

الحصول على السطح الموزون (رسم الباحثة).

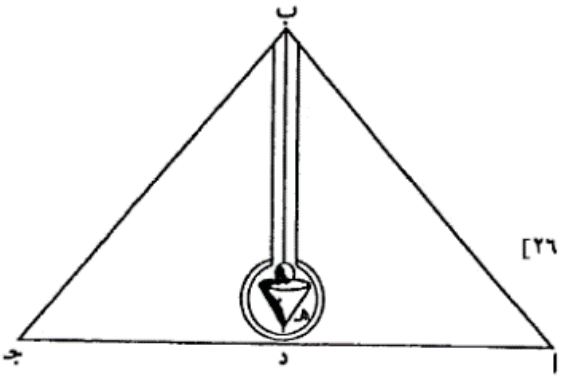

العرضي، مؤيد الدين، تاريخ علم الفلك العربي العرضي كتاب الهيئة، تحقيق جورج صليبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ط١، ص٣٥٣.

وهو المعتمد عليه عند الرصاد والمشتغلين بالفلك لا كما اشتهر، بأن نسوي أرضًا، بحيث لو سكبّت فيها ماء سال من جميع الجهات بالتساوي، أو إذا ألقي في موضع منها شيءٌ مستدير قابل للتدحرج كالبندقة مثلًا توقف مهتزًّا لا يميل ولا يستقر إلى جهة، فإنه لا يجزم بأن السطح موزون.

والسطح الموزون إن لم يكن على الأرض بل كان على حجر أو مكان مرتفع مثبت بحيث لا يتغير وضعه ولا وزنه، ورسمنا عليه **دائرة أصغر من أكبر دائرة ترسم فيه بمقدار أصبع**، ليتضح موضع دخول الظل وخروجه، ثم نعمل مقياسًا من نحاس أو خشب مخروطًا مستويًا كالسيف المشهور من غمده قائمًا على وجه الأرض حاد الرأس لئلا يكون الظل غليظًا، ولا يكون رفيعا لدرجة أن يختفي ظله، **وتكون قاعدته ثقيلة بحيث إذا وضعناه على السطح** ثبت قائمًا عليه غير مهتز، بأن يحفر في وسط قاعدته إن كان من خشب لا من نحاس أو أي معدن آخر حفرة، ويسكب فيه القليل من الرصاص ليثقل فيقف ثابتًا، والمعروف أن **طول المقياس يجب أن يكون ربع قطر الدائرة المرسومة على السطح أو أكثر**، بشرط أن **لا يبلغ طوله نصف القطر**، لأن طوله لو كان مثل نصف القطر، وظل كل شيء مثله عند بلوغ الشمس ارتفاع/ ٤٥° / كما ذكر في باب الظلال أن **ظل ثمن الدور** $45^\circ = \frac{360^\circ}{8}$ **يساوي طول المقياس**، فلن يصل طرف الظل إلى محيط الدائرة في البلاد والأوقات التي لا يبلغ ارتفاع الشمس فيها / ٤٥° / ، ولما صح العمل بهذه الطريقة.

والأصح أن يفترض أن يكون طول المقياس بحيث ينقص ظله عن محيط الدائرة وقت منتصف النهار، ويزيد عليه عند كون الشمس في طرفي نصف النهار أي وقت شروق وغروب الشمس.

ثم نرسم على مركز السطح الموزون **دائرة صغيرة نصف قطرها يساوي نصف قطر قاعدة المقياس** أو أكبر منها بقليل، بحيث إذا وضعنا القاعدة عليها ينطبق محيط قاعدة المقياس على محيط الصغيرة، أو تكون الدائرة محيطة بالقاعدة من جميع الجهات وتوازيها، ويكون **مركز قاعدة المقياس حينئذ منطبقًا على مركز الدائرة**، والمقياس قائمًا على السطح، **وهذا هو المعيار الذي يعرف به صحة كون المقياس قائمًا** لا امتحانه بانحراف الشاقول، ولا أن يكون بعد رأس المقياس عن ثلاث نقط من الدائرة المحيطة متساويًا، أي وقوع رأس المقياس على محور الدائرة، وإن اشتهرت هاتان الطريقتان.

الشاقول أو الفادِن أو المِطْمَر، وتسمى أيضًا بلوميت، وتستعمل من قبل بنائي الحجارة دليلًا عموديًا عند بناء الجدران.

شاقول

https://ar.wikipedia.org/wiki/

٢- تحديد خط نصف النهار:

نرصد قبل منتصف النهار وصول طرف الظل إلى محيط الدائرة من جهة المغرب، وهو يتناقص ويتقلص حتى دخوله في الدائرة المحيطة بالمقياس، فنضع علامة عند مدخله، وننصف عرض رأس الظل، ونخط في وسط ظل المقياس خطًّا على طوله إلى أن يصل إلى المحيط، **فتكون نقطة تلاقيه مع المحيط نقطة الدخول**. وكذلك نعمل في الطرف الآخر حيث يتزايد الظل وينبسط حتى يخرج من الدائرة فيعلم على مخرجه علامة هي **نقطة خروج الظل**، ننصف إحدى القوسين بين نقطتي الدخول والخروج، ونصل بين منتصف إحداهما والمركز بخط مستقيم، فيكون **خط نصف النهار** هو الفصل المشترك بين دائرتي الأفق ونصف النهار، لتساوي الظلين لأنهما مساويان لنصف قطر دائرة واحدة، والأظلال المتساوية تكون لارتفاعات متساوية، حيث اعتمد هذا البرهان على المبادئ الأولية القائمة على تصور أن **زيادة الظل ونقصانه تتبع نقصان ارتفاع الشمس وزيادته والتي تعتبر من المبادئ التي سلم بها، والتي قد لا تحتاج إلى البرهان، لذلك يكون ارتفاعا** الشمس عن جانبي سمت الرأس على نقطتين من محيط المدار اليومي للشمس في وقتي الظلين متساويين.

وبرهانه: يكون **قوس /ا ج/** مثل **قوس /ب د/ لأنه يتشكل من الظلين وقطريهما وسهم القياس مثلثين /ح ه ز/،/ط ه ز/ إحدى زواياهما قائمة وهما التي يحيط بهما سهم المقياس والظل /** ه ز ح /، /ط ز ه / وسهم المقياس مشترك بين المثلثين، والظلان متساويان فحسب ما ذكر في كتاب أصول أقليدس تكون الزاويتان اللتان يحيط بهما الظلان وقطرا الظلين / ه ح ز /، / ه ط ز /، متساويتين، وهاتان الزاويتان هما مقدارا قوسي الارتفاعين **/ا ج/، /ب د/** لأن الظل وقطره كلاهما في سطح دائرة الارتفاع، فإذا مددناهما لقيا محيط دائرة الارتفاع على محاذاة مركز الشمس ومحيط الأفق، فيكون الارتفاعان **/د ذ/، /جـ خـ/** أو العمودان النازلان من موضعي الشمس متساويين لأنهما جيبا قوسين متساويتين، **فتجيباهما / ط ذ/، /ح خ/، متساويان وهما يساويان للخطين الخارجين من مركز المقياس على منحى الظلين لأن الظلين يقعان على الفصل المشترك بين دائرتي الارتفاع والأفق،** والخطان الممتدان من مركز المقياس على الفصل المشترك إلى الأفق كذلك، ونهايتا خطي التجيبين هما مسقطا الارتفاعين على الفصل المشترك أي جيبهما، **والخط الواصل بين النهايتين /ذ خـ/ يساوي وتر قوس الدائر من الفلك /د جـ/** بين زمني ارتفاعي الشمس ويوازيه، لأن الخطوط المحصورة بين أطراف القطع المستقيمة المتساوية المتوازية كأطراف الجيوب المتساوية والمتوازية لتعامدهما على الأفق تكون متساوية متوازية.

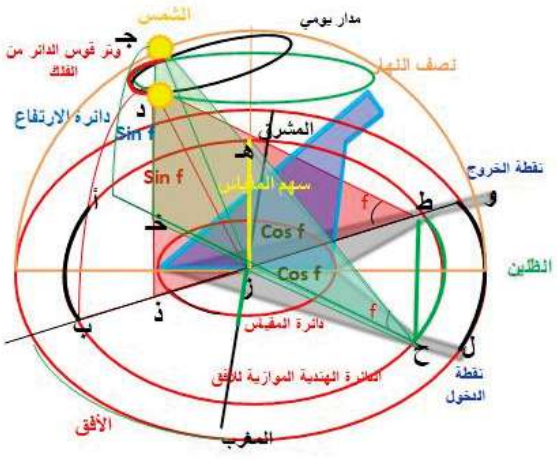

تعيين خط نصف النهار (رسم الباحثة).

ولأن موضعي الشمس في الارتفاعين هما فصلان مشتركان بين المدار اليومي والمقنطرة الموازية للأفق لوقوع الشمس عليهما في هذين الوقتين، وكل نقطتين

في مدار واحد ومتساويتي مقدار الارتفاع مختلفتي جهتيه من المشرق والمغرب يكون بعداهما عن نصف النهار متساويان، لأنه لتساوي ارتفاعهما تقعان على مقنطرة ارتفاع واحدة، **ومِنْ ثَمَّ** تنصف دائرة نصف النهار القطعة من المدار الموازي للمعدل بين النقطتين، لمرور نصف النهار بقطبي المار اليومي قطب العالم وقطب المقنطرة سمت الرأس، فينصف خط نصف النهار **أقواسهما المنفصلة** من تقاطعهما حسب القاعدة /ح/: «كل عظيمة تمر في كرة بأقطاب دائرتين متقاطعتين، فإنها تنصف كل قطعة منهما»، **ومِنْ ثَمَّ** سطح نصف النهار **ينصف وتر الدائر من الفلك بين الارتفاعين** من المدار الموازي للأفق /جـ د/، وينصف نصف النهار الخط الموازي له /ذ خـ/ الواصل بين نهايتي تجيبي الارتفاعين من الدائرة الهندية الموازية للأفق وللمقنطرة، وينصف الخط الواصل بين طرفي الظلين /ط ح/ لتشابه المثلثين المتساويي الساقين /ز و ل/، /ط ح ز/ لتوازي قاعدتيهما ووجود زاوية رأس /ز/ مشتركة فيهما كما يظهر بالشكل.

وإذا كان نصف النهار ينصف الخط الواصل بين طرفي الظلين، فيكون الخط الواصل بين نقطة المنتصف ومركز المقياس في سطح نصف النهار وهو المطلوب، **فإذا وصل الظل إلى هذا الخط فقد دخل وقت الزوال**، ونحن نصّفنا القوس بين الارتفاعين لئلا يحتاج إلى إجراء أو إثبات آخر لبيان صحته، بخلاف تنصيف الخط الواصل بين الظلين فإنه يحتاج إلى خطوات لتوضيحه.

ولإثبات المطلوب بطريقة أخرى نقول:

بما أن نصف النهار ينصف القطعة من المقنطرة /جـ د/ التي بين دائرتي الارتفاع كما سبق، ونصف النهار ودائرتي الارتفاع دوائر عظمى تمر بقطبي الأفق والمقنطرة المتوازيين، ولمرور دائرة نصف النهار ودوائر الارتفاع بأقطاب الدوائر الموازية للأفق تكون القوسان المحددة بهذه الدوائر الثلاث من الدائرة الموازية للأفق متشابهة فيما بينها لما ذكر في كتاب «**الأكر**»: «**من أنه متى مرت بقطبي دوائر متوازية دوائر عظام فإنها تفصل فيما بينها من <الدوائر> المتوازية أقواسا متشابهة**»، **فتكون القوسان المتساويتان من المقنطرة الموازية للأفق /جـ د/شبيهتين بنظيرتهما من الأفق /ل و/ فهما أيضًا متساويتان**، فتكون القوسان اللتان من الأفق متساويتين، ولتساويهما ولأن الأفق يوازي أيضًا الدائرة (الهندية) المرسومة على السطح الموزون لأن **مركزهما مشترك هو** مركز قاعدة المقياس، **فإذا وصل بين المركز وطرفي كل من قوسي الأفق** بخطين مستقيمين فصلا من الدائرة (الهندية) الموازية المرسومة على الأفق قوسين متساويتين، **لأن الخطوط الخارجة من مركز الدوائر المتوازية تفصل بينها من محيطاتها أقواسًا متشابهة، فإذن نصف النهار ينصف القوس التي بين طرفي الظلين /ط ح/، فالخط المار بالمركز والمنصف للقوس المذكورة يقع في سطح نصف النهار، وهو خطه وهو المطلوب.**

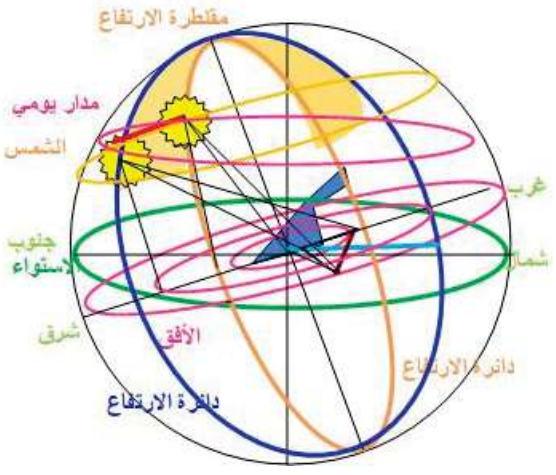

دائرة النهار تنصف القوس بين الارتفاعين والخط الواصل بين الظلين (رسم الباحثة).

طريقة ثالثة: ولو أخذنا طول المقياس نصف القطر فإذا وصل طرف الظل إلى محيط الدائرة، كان الظل **على خط نصف النهار** وفي سطح نصف النهار إن كان أكبر ارتفاع للشمس / ٤٥° / لأن المثلث المتشكل قائم على الأفق في المنتصف، أي إن الظل هو الذي يشير إلى خط نصف النهار.

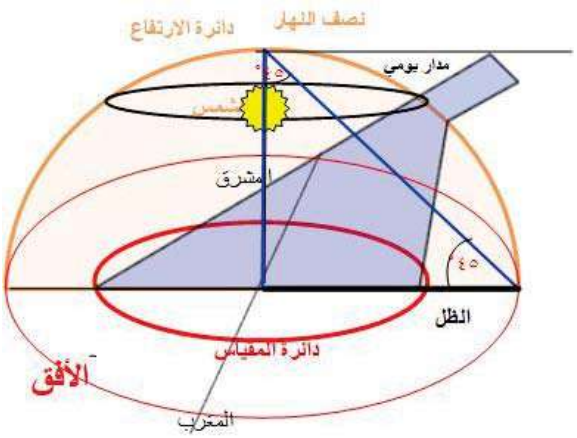

الظل على خط نصف النهار إن كان أكبر ارتفاع للشمس / ٤٥° / (رسم الباحثة).

والخط المار بمركز الدائرة المرسومة وفي سطحها عمودًا على خط نصف النهار يكون في سمت دائرة أول السموت، **وهو خط المشرق والمغرب** أو خط الاعتدال المشترك بين الأفق وأول السموت، ويقسم الخطان الدائرة إلى أرباع، ويقسم كل ربع إلى / ٩٠° / قسمًا متساوية، لتحصيل مقادير سموت خطوط الظل الواقعة على محيط دائرة المقياس، وهي مقادير انحراف دائرة ارتفاع الشمس عن دائرة أول السموت (وهي التي سمتها / ٠° /)، **لأن مقدار الزاوية بين خط المشرق والمغرب وخط الظل المتحول على خطوط تقسيم الدائرة هو السمت، وتعرف هذه بالدائرة بالهندية.**

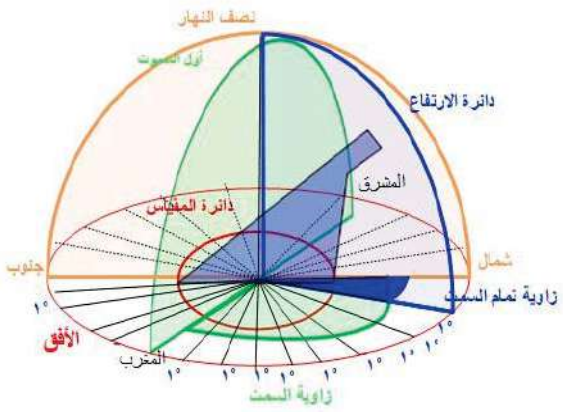

زاوية السمت في الدائرة الهندية (رسم الباحثة).

وأفضل الأوقات لأخذ الظل عند كون ارتفاع الشمس طول رمحين، لأنها إذا كانت قريبة من الأفق كانت الأظلال طويلة مشتتة الأطراف، فلا يعرف تمامًا مواضع أطرافها للناظر، **وأما إذا كانت قريبة من نصف النهار** ورغم كونها مشبعة في الظلمة لكنها تكون بطيئة التقلص، فلا تكون حركة الظل مسرعة وتستغرق وقتًا في مراقبة حركة الظل لأن التماس بين الدائرة وطرف الظل ليس نقطة، ولذلك صار مرور الظل يستغرق مدة، ولا يعرف تمامًا لحظة دخول الظل ولا لحظة خروجه، **فلا يعرف تمامًا تساوي زمني البعد** عن نصف النهار حينئذ، ولا يعرف خط نصف النهار.

والأمر الأوسط بينهما هو الذي تجتمع فيه سرعة الحركة وتمام ظلمة الظل، ويسلم الظل فيه من تشتت أطرافه فيظهر حاد الطرف ولا تكون حركته بطيئة عندما تكون الشمس فيه في الانقلاب الصيفي أو بالقرب منه، فيكون تغير **ميلها سريع** فلا يؤثر تغيره في ارتفاع الشمس، ولا تميل الشمس فيه عن مدارها الموازي للمعدل، لأن تغير ارتفاع الشمس

لو حدث يوقع اختلاف بين زمن دخول الظل وزمن خروجه بمقدار معتبر يخل بالبرهان السابق، لاعتماد البرهان على توازي المدارات ومعدل النهار في الرؤية، وعلى كون الشمس حين وصول رأس الظل إلى محيط الدائرة قبل الزوال وبعده على مدار واحد من المدارات اليومية ليكون الارتفاعان المتساويان على بعد واحد من نصف النهار، لأن المدارات بالحقيقة لا توازي معدل النهار إلا إذا وصلت الشمس قرب المنقلبين في نصف النهار فيقع الظلين حينئذ على الفصل المشترك بين دائرتي الارتفاع والأفق، إضافة إلى أن ضياءها في المنقلب الصيفي السرطان أشد من ضيائها في الجدي لاجتماع الأشعة في الصيف دون الشتاء، وإذا كان الضوء أشد يكون الفرق بين الظل والشعاع أوضح.

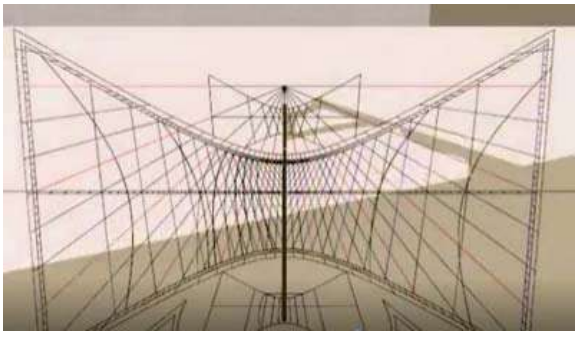

الظل في الانقلاب الصيفي بعد شروق الشمس قرب الأفق مشتت الأطراف لا يشير إلى نقطة.

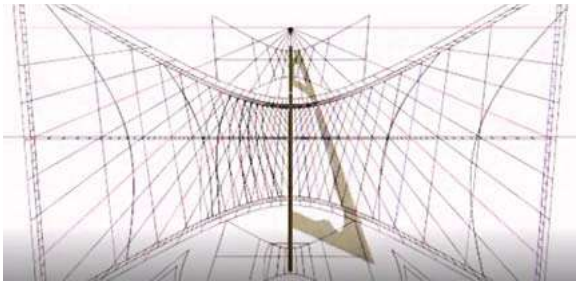

تحول الظل قرب الانقلاب الصيفي قبل منتصف النهار.

https://www.youtube.com/watch?v=Y_as-BOqyTs Al Shatir Sundial Presentation

وكما يكون للأظلال المتساوية ارتفاعات متساوية، كذلك يكون للارتفاعات المتساوية أظلال متساوية، وبناء عليه لو رصد في يوم واحد ارتفاعان متساويان للشمس عن جانبي أكبر ارتفاع لها، ثم رسم سمتا ظليهما عن مقياس واحد (الزاوية المحصورة بينهما وبين خط المشرق والمغرب على الأفق)، ثم نصّفت الزاوية الحادثة بينهما بخط، فيقع ذلك الخط في سطح نصف النهار، والسبب سبق ذكره.

وطريقة تنصيف الزاوية: أن نحدد ظلّين يبعدان بعدًا متساويًا عن أصل المقياس، ونصل بينهما بخط، ثم ننصف ذلك الخط، ونصل بين المنتصف والزاوية بخط، **والأسهل أن نجعل رأس الزاوية مركزًا لدائرة تقطع الظلين**، ثم ننصف القوس التي بينهما كما سبق.

٣- تحديد خط نصف النهار حسب كوشيار:

يقول كوشيار: إنه لتحديد خط نصف النهار نعدل موضعًا من الأرض، ونجعله سويًا لا عوج فيه، حتى يصير سطحه موازيًا للأفق، ونرسم فيه **دائرة**، ثم يغرز في المركز إبرة قائمة بشكل تام على ثلاث نقاط متباعدة على محيط الدائرة، ثم إذا اقتربنا من نصف النهار رصدنا رأس ظل الإبرة وهو يتناقص، بأن نضع على مواقعه وهو يدور علامات متقاربة جدًا برأس إبرة أخرى، ونقوم بذلك إلى أن يبدأ الظل في الزيادة، ثم نصل بين أقرب العلامات من المركز وبين المركز بخط مستقيم، فيكون خط نصف النهار، وتعتمد هذه الطريقة على الاستفادة من تغير طول الظل واتجاهه خلال النهار.

ظهور الظل المستوي ممتدًّا نحو الغرب

توقف طول الظل عند خط الزوال.

تعيين خط الزوال.

ثم يبدأ ازدياد طوله باتجاه المشرق

عشر طرق لمعرفة الاتجاهات كيف تعرف الاتجاهات https://www.youtube.com/watch?v=eXFY1Ti14eA

٤-طريقة أخرى لتحديد خط نصف النهار:

وهو أن نسوي الأرض والدائرة والشاخص كما قلنا بحيث تكون الدائرة المحيطة بالمقياس هي دائرة الارتفاع التي على الوجه الخلفي للصفيحة الأم للأسطرلاب المعد للقياس، وبحيث يسمح طول الشاخص بوصول ظله إلى محيط الدائرة عند وصول الشمس منتصف النهار، ولا يكون أقل منها، فتوجه عضادة صفيحة الظهر للوحة الأم للأسطرلاب باتجاه الشمس لمعرفة ارتفاعها.

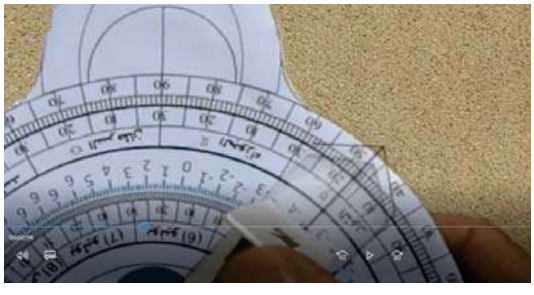

قياس ارتفاع الشمس.

https://www.youtube.com/watch?v=rDkl2W0lyyQ استخدام الأسطرلاب

أو نحدد موضع الظل الموافق لهذا الارتفاع من مربع الظل الذي يبعد عن خط المشرق والمغرب بمقدار زاوية السمت، ونضع علامة على موضع الظل من محيط الدائرة المحيطة بالمقياس، ثم نقيس زاوية **تمام السمت** من الوجه الامامي للأسطرلاب باستخدام الفرجار، ثم نفتح الفرجار بقدر **تمام السمت** ونركز إبرة الفرجار على علامة الظل على محيط الدائرة، ونرسم بالساق الأخرى للفرجار قوسًا بمقدار تمام السمت تقطع محيط الدائرة في جهة ارتفاع الشمس إن كان في الشرق أو في الغرب، (لأن خط الظل يبعد عن خط نصف النهار بمقدار تمام السمت)، ثم نضع علامة عند نقطة التقاطع، ونصل بينها وبين مركز الدائرة بخط، فيكون هذا الخط هو خط نصف النهار.

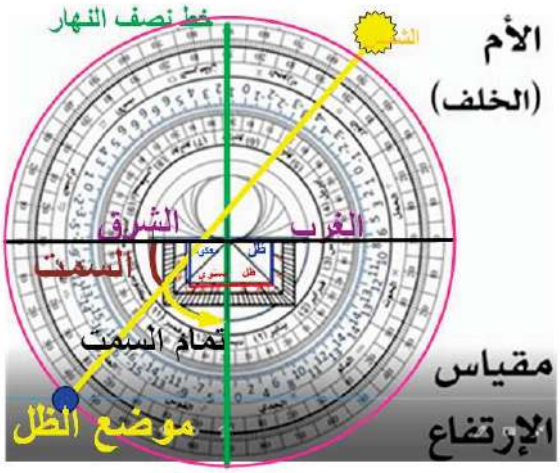

تحديد تمام سمت الظل وخط نصف النهار من الوجه الخلفي للصفيحة الأم للأسطرلاب.
https://www.youtube.com/watch?v=XWZfdf4imz8&list=RDCMU
علماء المسلمين وتصميم الأسطرلاب

فـإن كان الارتفـاع هو الارتفاع الـذي لا سمت له، يكـون سمـت الظل هو خـط المشرق والمغـرب، فيكون الخـط الخارج من منتصفه إلى مركـز الدائرة هو خط نصف النهار، **ولاسـتخراج هذا الخط طرق كثيرة أقربهـا إلى الحقيقة وأكثرها مصـداقية الطريقتان السابقتان.**

دراسة تاريخية:

حـدد الشيرازي معيار السطح المـوزون، وبيّن أنه لتحديـد خـط نصف النهـار من الدائـرة الهندية يجب ألَّا يتجـاوز طول المقياس ربع قطر الدائرة، وأن يكون شكلـه مخروطيًـا، **وذكر أن الشـمس إذا كانت قرب نصف النهار تكون بطيئة التقلص،** فلا يعرف تمامًا لحظة دخول الظل ولا لحظة خروجه، وأنسب الأوقات للرصد عندما تكـون الشمس فيه في الانقلاب الصيفي منتصـف النهـار أو بالقرب منه، فيكـون **تغير ميلها سريعًا** فلا يؤثر تغيره في ارتفاع الشمس.

بينمـا ذكر البتاني(٢٤٠-٣١٥هـ) أن خط نصف النهار غير محدود لسرعة مرور الشمس في الميل فيه، ولكن يعرف أقـرب الأوقات إليه، وأن أفضل الرصد قرب المنقلبين لإبطاء حركة الشمس فيما بين رصدي الظل، **وأنه لمعرفة خط نصـف النهار وهو سـمت الجنـوب قال:** «إذا كان لك موضـع الشمس معلومًا فاعرف سمـت أي الارتفاعـات أردت في بعض أوقات النهـار وارصـد الارتفـاع المفروض **حتى إذا صـار الارتفـاع مثلـه،** فتعلـم علـى ظـل المـوري في محيط الدائـرة علامـة تكون علـى وسط عرض ظـل العمود المـوري، ثـم اقسم الربع الـذي تقع فيه هـذه النقطة من الدائرة بتسعين جـزءًا، واعدد من تلك النقطة إلى خـلاف جهة سمت ذلك الارتفاع بقدر سمت الارتفاع، فمـا وقع عليه من تلك الأقسـام فهو نقطة المشرق أو المغـرب بحسـب ما عملت عليه مـن الوقت في الارتفاع إمـا قبـل نصـف النهـار أو بعـده، فأخـرج مـن تلك العلامـة خطًـا يجوز علـى مركز الدائـرة، وربّع عليه الدائـرة بخط آخر يجوز على المركز على زوايا قائمة فتعـرف حينئذ خط نصـف النهار بهـذا الخط وخط المشرق والمغرب بالخط الذي قبله».[٦٠]

بينمـا ذكـر البـيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ/٩٧٣-١٠٤٨م) أنه لمعرفة خط نصف النهار: «لابد في معرفة ذلـك من تسويـة طائفة على وجه الأرض بالغاية التي إن صـب عليها شيء مائع كالمـاء والرطوبات السائلة أو أرسـل عليهـا متى خرج كالزئبـق أو وضع على أي موضـع منها مترجـرج كالبندقة وقف مهتـزًا مرتعدًا ولم يمـل إلى ناحية منهـا دون أخرى إذا كان المستعمل دقيق البدء».

٦٠- البتـاني، محمـد بن سنـان بن جابـر الحراني، كتـاب الزيج الصابئ، مدينة رومية العظمى،١٨٩٩، ص٣٦.

وذكر لتحديد نصف النهار عدة طرق:

– ينصب على موضع منه عمود مستو ينتصب عمودًا على السطح المستوي، ثم نرصد ارتفاع نصف النهار حتى إذا ما وقف على أعظم الارتفاعات (الوصول إلى أقصر ظل يكون لأكبر ارتفاع) في ذلك اليوم، أخرج من أصل العمود على منتصف عرض ظله خط، فشقه إلى طرفه بالطول على استقامة خط الزوال.

–**أو يقسم المقياس ب/١٢/** قسم بالتساوي **ويقدر منها ظل نصف النهار** في ذلك اليوم ويدار ببعده (نصف القطر يساوي طول المقياس) على مغرز المقياس دائرة، ثم نرصد الظل إلى أن يماس طرفه محيط هذه الدائرة ونخرج من موضع المماسة خطًا مستقيمًا، فيكون خط الزوال.

–**ومنها:** أن يُحسب **في اليوم المفروض الظل من الارتفاع الذي لا سمت له (الشمس على أول السموت)** ويقدر من أجزاء المقياس دائرة <نصف قطرها طول المقياس> ويرصد طرف الظل حتى يدخل الدائرة إن كان المقياس قبل نصف النهار أو حتى يخرج منها إن كان المقياس بعده، ويخرج من المدخل أو المخرج أيهما كان **الموجود قطر في الدائرة فيكون خط الاعتدال< ومعامده هو خط نصف النهار>**»[٦١].

–وعرّف البرجندي(ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٨ م) السطح الموزون:

«أي الذي لا يقاطع الأفق وإن أخرج في جميع الجهات إلى غير النهاية، وذلك بأن يدار على الأرض مسطرة مستوية السطحين .. بحيث تماسها في جميع الدور ولا يتبين بينهما ضوء **ثم توضع قاعدة الكونيا عليها وهو اسم جسم مثلث للنجارين والبنائين متساوي الساقين يعلقون من زاوية رأسه خيط مع شاقول، بحيث إذا دارت قاعدة الكونيا على جميعها لا يميل خيط الشاقول عن الأفق، وهو عمود على سطح الأفق لما علم بالتجربة أن الأثقال مائلة بالطبع إلى مركز العالم**»[٦٢].

في القسم الثاني من هذا الباب سنقوم بإيجاد خط سمت القبلة وانحرافه عن خط نصف النهار أو خط المشرق والمغرب.

٢–سمت القبلة:

هي نقطة تقاطع أفق البلد المفروض ودائرة الارتفاع المارة بسمتي: رأس البلد ومكة، والخط الواصل بين مركز الأفق وتلك النقطة هو خط سمت القبلة الذي يمثل محور قوس يبنى أساس المحراب عليها وينصفها، فالمصلي إذا جعله بين رجليه ساجدًا عليه يكون قد صلى على محيط دائرة منطبقة على سطح الأرض، مارة بموضع سجوده، وما بين قدميه ووسط البيت الحرام، أو استقبل الخط الواصل بين البيت والنقطة من الفلك الأعلى التي تكون عمودية أو على محاذاة رؤوسهم في السماء دون ميل والمسماة سمت رأس مكة، وهي التي تواجهه إذا قصد مكة على استقامة، لا أن الخط المستقيم الخارج من بصره قد وقع على عين البيت أمامه لأن أفق مكة واقع تحت أفق المصلي، فلا يقع البيت في مواجهة نظره وإلا اضطر الشخص إلى الانحناء إذا كان موقع مكة أخفض وإنما يواجه خط السمت.

ومنه يظهر خطأ تفسير سمت القبلة بأنها نقطة في الأفق إذا واجهها الإنسان كان مواجهًا للكعبة، اللهم إلا إذا فسرت المواجهة كما ذكرنا.

٦١–البيروني، محمد بن أحمد أبي الريحان، القانون المسعودي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ١٩٥٦، ط١، جزء ١، ص ص ٤٧٣–٤٧٧.

٦٢–البرجندي، عبد العلي بن محمد بن حسين، شرح التذكرة، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية، Or 1306. ص٧٣٤، ص٧٢٦ .

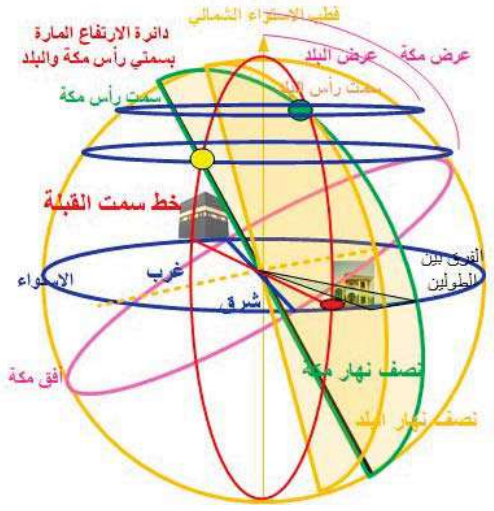

تحديد سمت القبلة (رسم الباحثة).

وأما سمت القبلة عن البلد: والمسمى بقوس انحراف سمت البلد أيضا، فهو قوس من الأفق محصور بين نقطة تقاطعه مع دائرة الارتفاع وبين احدى النقط الأربع المغرب أو المشرق أو الجنوب أو الشمال، وهو مقدار ما يجب أن ينحرف المصلي عن مواجهة إحدى هذه النقط ليواجه البيت.

تمام الانحراف: هو قوس من الأفق أيضًا بين نقطة سمت القبلة وإحدى النقط.

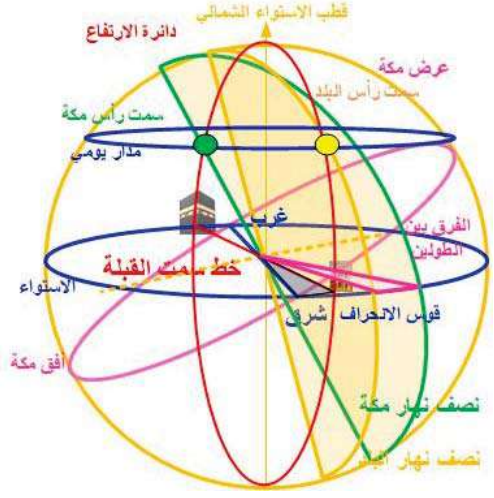

سمت القبلة عن البلد المسمى بقوس الانحراف عن خط شرق غرب (رسم الباحثة).

وبعد هذه التعاريف لا بد في معرفة سمت القبلة وسمتها عن بلد آخر من معرفة طول مكة وعرضها، وطول البلد المفروض وعرضه، **أما طول مكة** حماها الله: فتبعد عن الجزر الخالدات/ ١٠ ′ ٧٧ °/، وعن ساحل البحر الغربي/ ١٠ ′ ٦٧ °/، وعرضها / ٤٠ ′ ٢١ °/.

فكل بلدة يكون طولها أقل من طول مكة فمكة شرقية عنها.

وكل بلد يكون طولها أكثر من طول مكة تكون مكة غربية عنها.

وإن كان عرض البلد أقل من عرض مكة فمكة شمالية عنها، وإن كان أكثر منه فجنوبية.

ثم البلدة المفروضة مع مكة إما أن تكونا مختلفتين في العرض فقط، أو في الطول فقط، أو في كليهما:

-فإن تساوى طولاهما واختلف عرضاهما: كانتا تحت نصف نهار نفسه يمر بسمتي رأسيهما وهو دائرة ارتفاع لهما، ولا يختلف سمت إحداهما عن الأخرى، بل يكون سمت قبلتها على خط نصف النهار، فيتوجه المصلي نحو نقطة الجنوب إن كان عرض مكة أقل وكان البلد شماليًّا، وإلى نقطة الشمال إن كان أكثر وكان البلد جنوبيًّا، **لأنه إذا استخرج خط نصف النهار كان هو خط سمت القبلة.**

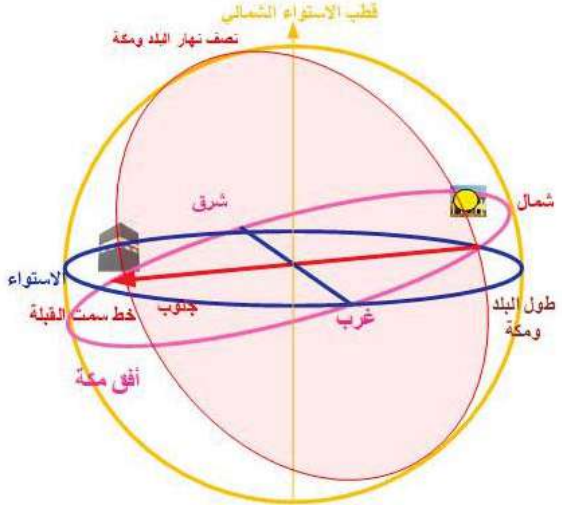

طولا البلد ومكة متساويان وسمت القبلة هو خط نصف النهار (رسم الباحثة).

-وإن اختلف الطولان وتساوى عرضاهما:

كانتا تحت مدار يومي واحد بعده عن معدل النهار مثل عرض البلد. وقد ظنّ قوم ومنهم **كوشيار**[٦٣] كما صرّح في مواضع: أن سمت قبلة ذلك البلد بينهما يكون على خط المشرق والمغرب أو خط الاعتدال، والقبلة إلى نقطة المشرق جزمًا إن زاد طول مكة، وإلى المغرب تمامًا دون انحراف إن كان طولها أقل، وهذا باطل وخطأ فاحش، لأنا نعلم أن كل مدار يكون بعده عن معدل النهار مثل عرض البلد فإن كان في جهة **القطب الظاهر مر بسمت الرأس وماس دائرة السموت فوق الأفق في نقطة منتصف النهار**، وإن كان في جهة القطب الخفي مر بسمت الرجل وماس أول السموت أيضًا، على أن يكون قوس بعد المدار عن المعدل من دائرة الميل ومن دائرة نصف النهار أيضًا، وقوس عرض البلد بين المعدل وسمت الرأس من نصف النهار أيضا، لكن **لاختلاف طوليهما يماس المدار أولى سموتهما على نقطتين مختلفتين** لأن أول السموت لإحداهما تماس المدار المذكور على نقطة غير التي تماسها أول السموت للأخرى، فتقطع أولى السموت المعدل على نقطتين مختلفتين، فلا يكون خط مشرقهما ومغربهما واحدًا، **ولا السمت بينهما هو خط المشرق والمغرب، ولا القبلة إلى المشرق ولا للمغرب تحقيقًا وجزمًا**، بل تكون القبلة عن يسار مشرق الاعتدال البلد إن كان طول البلد أقل من طول مكة، وعن يمين مغرب الاعتدال إن كان طولها أكثر، لأن سمت رأس مكة يستحيل أن يكون على دائرة أول السموت للبلد المفروض وإلا لكان عرض مكة أقل من عرض البلد، لأنه لا يمكن أن يقع سمت رأسها على دائرة أول سموت البلد بسبب اختلاف الطول، فنفرض أنه وقع على نقطة أخرى منها غيرها، لكن كل نقطة على دائرة السموت غير سمت رأسها يكون عرضها أقل، فيكون سمت رأس مكة بين دائرة أول السموت والمعدل ليطابق الفرض بالأولى، فإذا يقع سمت رأس مكة بالضرورة خارج أول السموت، ويقطع أول السموت على نقطتين إحداهما شرقية عنها والأخرى غربية.

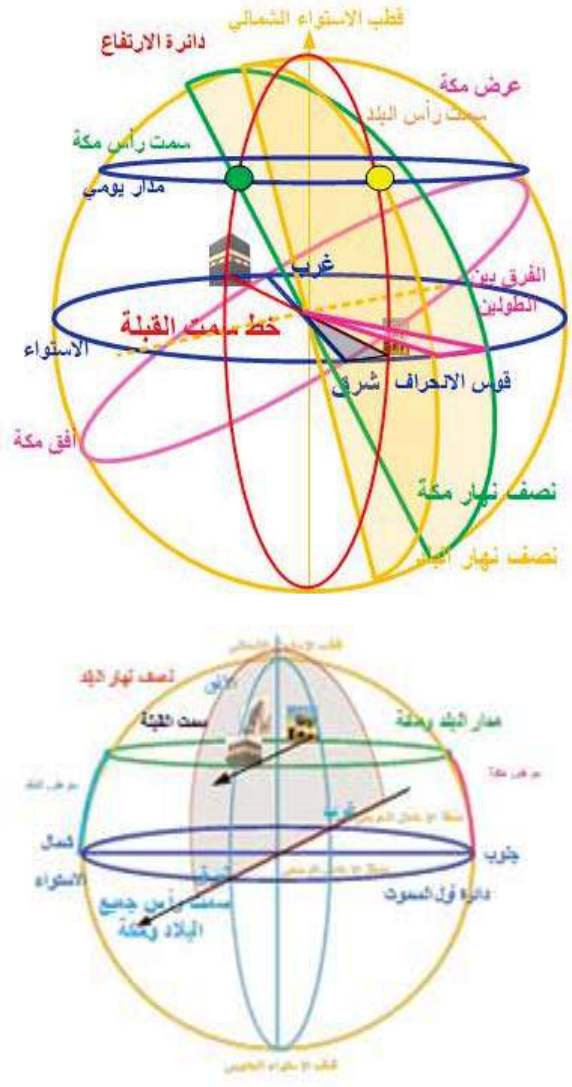

عرض البلد يساوي عرض مكة ومكة جنوبية عن البلد (رسم الباحثة).

63- **Gīlānī** Kūshyār ***Risāla-yi asṭurlāb,*** Editor: Muḥammad Bāqir, Publisher: Brill, Publication date:2021 ,P216a,p216b

ويكون كلامه صحيحًا في مساكن خط الاستواء حيث يكون خط المشرق والمغرب هو خط سمت القبلة مهما اختلفت أطوال البلدان وأهل مكة لأن نصف نهار القبلة هو أفق للمشرقين والمغربين، وليس ذلك لأن جميع خطوط مشرقهم ومغربهم في سطح معدل النهار كما توهم كوشيار إذ يتحقق ذلك في غير أفق خط الاستواء، بل لأن سمت رؤوسهم على نقطة الاعتدال في جميع البلاد وعلى المعدل لأن المعدل هو أول السموت لهم، فيكون **سمت مكة هو خط المشرق والمغرب**، ففي كل ارتفاعين متساويين عن جانبي نصف النهار تكون الشمس على دائرة ارتفاع واحدة، ويكون أحد الظلين على استقامة الآخر والقوس بين الظلين نصف دائرة.

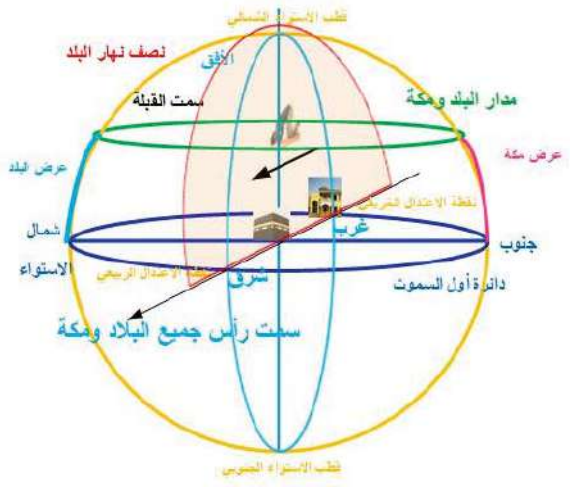

سمت مكة في مساكن خط الاستواء هو خط المشرق والمغرب (رسم الباحثة).

مثال: المواقع <الاستوائية>، التي مسافاتها الزاوية إلى مكة تكاد تساوي/ ٩٠° /على حافة نصف الكرة الأرضية المتمركز في مكة، في هذه المواقع يقع إحداثي سمت رأس القبلة دائمًا بالقرب من شروق الشمس أو غروبها، أول رصَد القبلة (٢٨ مايو في تمام الساعة ١٢:١٨ جنوبيًا) **يحدث بعد ست دقائق من شروق الشمس** في بوسطن ومونتريال، وقبل دقيقتين من شروق الشمس في أوتاوا[٦٤]، **فيكون اتجاه القبلة نحو شروق الشمس أو نحو غروبها.**

-وإن اختلف الطول والعرض لكليهما: فلا يكونان لا تحت نصف نهار ولا مدار يومي نفسه، ونحتاج في هذه الحالة وفي الحالة الثانية إلى **معرفة قوس الانحراف**، ولها طرق كثيرة من غير المناسب إيرادها ههنا، فنقتصر على ذكر السهلة منها.

من الطرق: تمر الشمس برأس أهل مكة عند كونها في / ٨° / من الجوزاء، و / ٢٣° / من السرطان من البروج وقت **انتصاف النهار لأن ميل هذين الجزأين يساوي عرض مكة** (لأن عرض مكة أقل من الميل الكلي فتمر الشمس بسمت الرأس مرتين في نقطتين من فلك البروج ميل كل منهما يساوي عرض مكة في جهة القطب الظاهر، أي يوجد عن جانبي الانقلاب من البروج جزأين ميلهما الجزئي يساوي عرض مكة، **وعند مرورها بأحد هذين الجزأين اللذين ميلهما مثل عرض مكة تعامد منطقة البروج الأفق، فتمر الشمس بسمت رأس مكة منتصف النهار** إن كان هذا الجزء في جانب القطب الظاهر)، لذلك يكون الفرق بين نصف نهار مكة وبين نصف نهار كلّ البلدان (أي بين ظهيرة مكة وظهيرة البلدان) **هو الفرق بين طوليهما فقط (فرق التوقيت) وهو قوس الانحراف**، فيؤخذ الفرق لكل ساعة / ١٥° /، ولكل / ٤′ / جزء في الدائرة الهندية المقسمة إلى / ٣٦٠° /، فيكون المجموع هو ساعات البعد عن نصف نهار مكة فيعرف مقداره بالدرجات، ويرصد في ذلك اليوم في ذلك الوقت قوس السمت قبل الظهر أو خط نصف النهار إن كانت مكة شرقية عن البلد، أو بعده إن كانت غربية عن البلد، وبمعرفة قوس السمت من أجزاء الدائرة الهندية يعرف اتجاه ظل الشمس الذي يشير إلى عكس

٦٤- https://en.wikipedia.org/wiki/Qibla#observation_by_shadows مراقبة القبلة بالظلال

اتجـاه القبلة، فعندما تكـون الشمس عمودية على أهل مكة، استطعنا تحديد اتجاه القبلة في أماكن أخرى من خلال معرفة اتجاه الظلال.

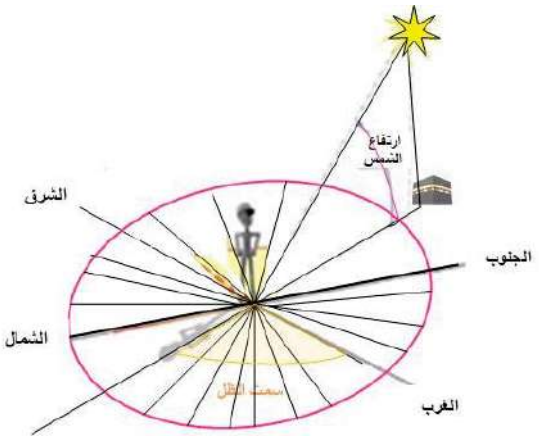

تحديد سمت القبلة حيث يشير الظل الى الاتجاه المعاكس للسمت

https://www.meteo.tn/ar/direction-mecque المعهد الوطني للرصد الجوي

ومـن الطـرق: أن نضـع أحـد الجزأيـن اللذيـن يسامتـان مكـة مـن الـبروج وهمـا / ر كا / = / ´٢١ °٧ / مـن الجـوزاء، و / كـب لـط / = / ´٣٩ °٢٢ / مـن السرطان، علـى وسط السمـاء في أسطرلاب البلد (لأن لـكل بلد صفيحة أسطـرلاب تصنع حسب درجة عرضه)، ونضـع **المسـطرة أو المري على الموضـع**، ثم ندير المري مع العنكبوت بقدر زمن ما بين الطولين إلى المغـرب إن كان البلـد شرقيًا من مكـة، وبالخلاف إن كان غربيًـا منهـا، فحيث بلغت أجـزاء / = / ´٢١ °٧ / مـن الجـوزاء، أو / كـب لـط / = / ´٣٩ °٢٢ / مـن السرطان من مقنطـرات الارتفاع رصدنا بلوغ **الشـمس هذا الارتفـاع**، ففي الوقت الـذي كانت فيه الشمس عموديـة على رأس أهل مكـة منتصف النهار هناك، تبلغ **الشمس هذا الارتفاع** في هذا البلد هنا.

فـإذا وضعنـا مقياسًـا قائمًـا فظـل هـذا المقياس الموافـق لارتفاع الشمس في ذلك الوقت يتجه إلى سمت القبلة فيبنى عليه المحراب، وهي تشبه الطريقة الأولى، ويمكـن أن نحسب هذه الدرجة على أي دائرة سموت، ونعرف بذلك سمتها، ويكون تمام السمت هو انحراف خط سمت القبلة عن خط نصف النهار.

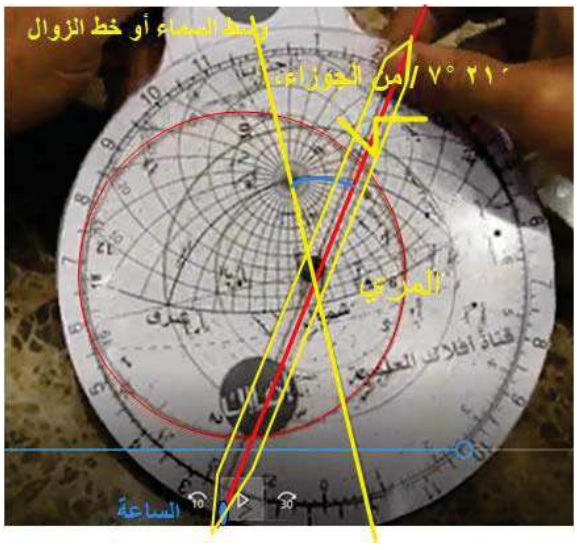

تحريك لجزأين مع العنكبوت بقدر ما بين الطولين على دوائر السمت ثم معرفة الارتفاع المقابل له. https://www.youtube.com/watch?v=rDkl2W0lyyQ **استخدام الأسطرلاب.**

تحديد الظل ومعرفة سمت القبلة من الوجه الخلفي للصفيحة الام عند تحريك العضادة بقدر ارتفاع الشمس.

https://www.youtube.com/watch?v=t4EUxycEUbc

حسن بيلاني: تحديد اتجاه القبلة بوساطة الأسطرلاب

طريقة أخرى: أن نحدد مقدار الفرق ما بين الطولين والعرضين بالدرجات من أجزاء محيط الدائرة الهندية، ثم نخرج من نهاية الأجزاء خطين يوازي إحداهما نصف النهار، ويوازي الآخر خط المشرق والمغرب، فيتقاطعان، نصل بين المركز ونقطة التقاطع بخط مستقيم، وننفذه إلى المحيط، فيكون **خط سمت القبلة.**

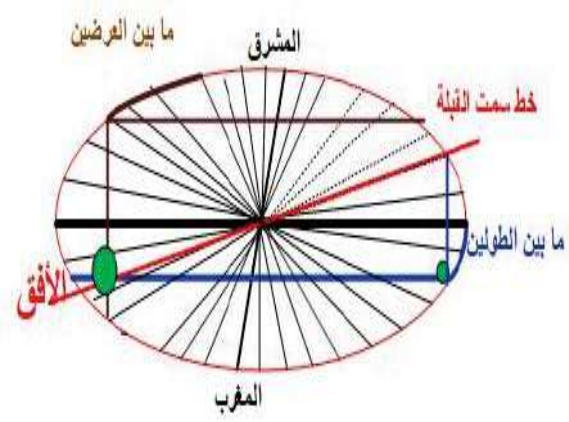

تعيين اتجاه القبلة باستخدام الدائرة الهندية (رسم الباحثة).

طريقة أخرى: نقسّم خط نصف النهار بأقسام متساوية، ويأخذ منها بقدر الفرق بين عرض البلد ومكة مع احتساب الكسر إن وجد، ونقيم عمودًا على طرفه الشمالي إن كان عرض البلد أقل من عرض مكة، وعلى الجنوبي إن كان أكثر، وفي جهة المشرق إن كان طول مكة أكثر، وفي جهة المغرب إن كان طول مكة أقل، **ونقسّم هذا العمود بنفس الواحدات التي قسمنا بها الخط الأول**، ثم يأخذ منه مقدار ما بين الطولين من أجزاء العمود مع كسر إن وجد، ونصل بين نهايته وبين نهاية نصف النهار بخط، فيحصل مثلث قائم الزاوية، **ويكون سمت القبلة على وتر القائمة الخط**

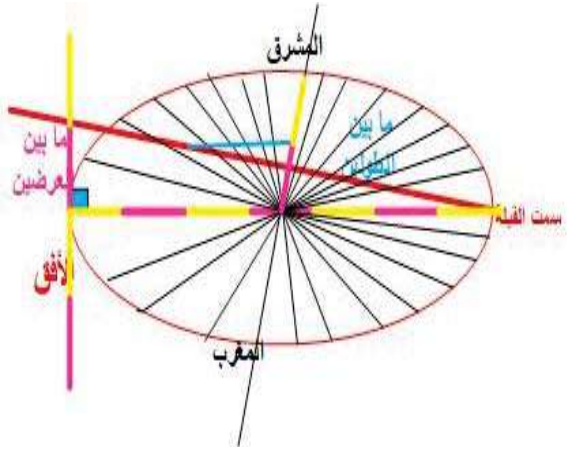

تعيين اتجاه القبلة باستخدام خط نصف النهار (رسم الباحثة).

طريقة أخرى: نأخذ كرة تامة الاستدارة عليها دائرة كبرى مقسمة بـ / ٣٦٠° /، ونعتبرها أفق البلد وهي / أ ب جـ د /، ونقيم عليها نصفَ دائرة نصف النهار وهو / أ هـ ج /، بحيث تكون / هـ / **سمت رأس البلد**، ونقتطع من نصف النصف / أ هـ ج / قوس / ح جـ / يساوي عرض البلد باستخدام الفرجار، بأن نحدد من أجزاء الأفق وباتجاه الشمال قوسا **من نصف النهار بقدر عرض البلد**، فيكون / ح / قطب المعدل (لأن ارتفاعه يساوي عرض البلد)، ثم **دائرة عظمى / ب ر د/** هي المعدل قطبها **/ح/** تتقاطع مع الأفق على **/ د ب/ خط المغرب والمشرق**، وتقطع نصف النهار على **/ ر/**، فإن كان قوس **/ رهـ/** بين سمت الرأس والمعدل يساوي ارتفاع القطب فالرسم والفرض صحيح، وإلا فلا.

-ففي حالة اختلاف البلدان في العرض فقط: يكون **خط نصف النهار هو خط سمت القبلة**، فيستخرج، واستخراجه ضروري في جميع طرق الحل.

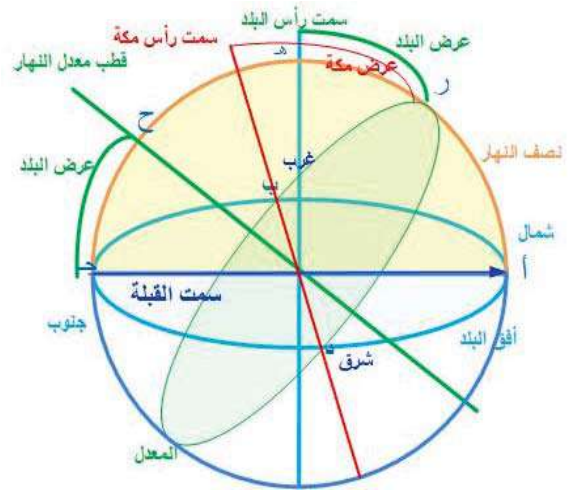

خط نصف النهار هو خط سمت القبلة لاختلاف البلدان في العرض فقط (رسم الباحثة).

وإن اختلفا طولاً فقط: فيرسم على /ح/ وببعد /هـ/ المدار اليومي /ه ع ص/ الموازي للمعدل، **فيمر بسمت رأس مكة** لأن كل مدار يكون بعده عن معدل النهار مثل عرض البلد، فإن كان في جهة القطب الظاهر مر بسمت الرأس وماس دائرة السموت، ثم نحدد على المعدل من نقطة تقاطعه مع نصف النهار /ر/ مقدار ما بين الطولين في الجهة التي تكون مكة فيها، فيكون شرقي نصف النهار لأن طول مكة أكثر من طول البلد مثل /**رط**/ ، وإلى غربيه إن كان طول مكة أقل من طول البلد.

ثم نرسم دائرة عظمى /ح ع ط/ تمر بنقطتي /ح/ قطب المعدل ونقطة /**ط**/، ويكون قطبها على المعدل وهي بمنزلة **نصف نهار مكة، وتمر بسمت رأس مكة** /ع/ (والناتج عن تقاطع نصف نهار مكة مع المدار الموازي)، ثم نرسم دائرة عظمى هي **دائرة الارتفاع** تمر بسمتي رأس البلد /هـ/ ورأس أهل مكة /ع/ ، وتقطع الأفق على /**ف**/، لذلك /**أ ف**/ **قوس السمت**، ويمكن معرفتها من أجزاء الأفق المقسوم بالفرض إلى /٣٦٠°/، و /ف/ نقطة سمت الكعبة، ولأنها قطعت الأفق على /**ف**/ دون /**ب**/، أو /**د**/ فلا يكون سمت القبلة على خط المشرق والمغرب، ولا على الفصل المشترك بين المدار والأفق كنقطة /**ص**/.

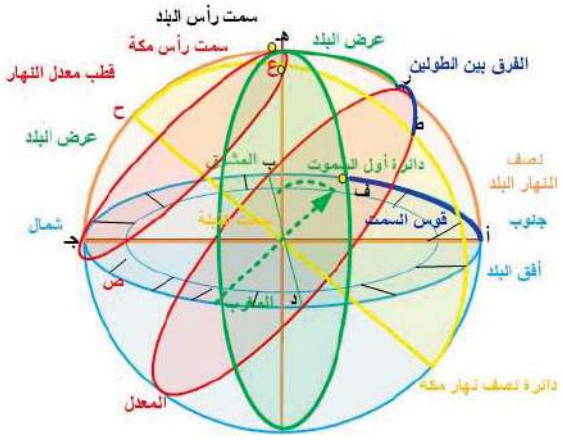

اختلاف البلدان طولاً فقط يميل سمت القبلة عن خط المشرق والمغرب (رسم الباحثة).

وفي حالة اختلاف البلد ومكة طولاً وعرضًا: ليكن الفرق بين الطولين /**ر ل**/، وعرض مكة /**ر ك**/، ونرسم على /ح/ وببعد /**ح ك**/ (بعده عن /**ك**/) مدار يوازي المعدل /**ك م ن**/ **ولا يمر بسمت رأس البلد نقطة** /**ه**/، ثم نرسم دائرة عظمى /**ح م ل**/ هي نصف نهار مكة تمر بنقطة /ح/ قطب المعدل وبنقطة /**ل**/ على المعدل، تقطع المدار اليومي الذي يبعد عن المعدل بمقدار عرض مكة في /**م**/، فتكون /**م**/ سمت رأس مكة، ثم نرسم دائرة عظمى **هي دائرة الارتفاع** /هـ م س/ تمر بسمتي رأس البلد /هـ/ ورأس أهل مكة /م/ ، تقطع الأفق في /**س**/، ف/**أ س**/ قوس السمت ومقدارها معلوم من أجزاء الأفق.

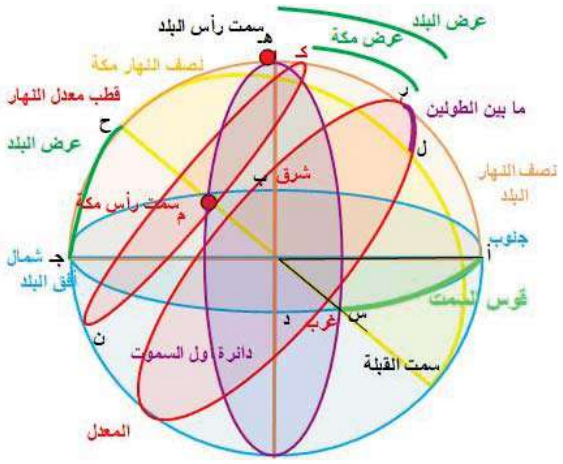

حالة اختلاف البلد ومكة طولاً وعرضًا يميل سمت القبلة عن خط شمال جنوب (رسم الباحثة).

وإذن صارت **قوس السمت معلومة**، فإما أن يحدد مقدارها على محيط الدائرة الهندية، لأنا ذكرنا أن دائرة الأفق مقسمة إلى / ٣٦٠ ° / ، ثم يرسم خط السمت، أو يوضع خط نصف نهار الكرة على خط نصف النهار، وسمت الرجل منها على مركز الدائرة الهندية، ثم نضع علامة عند نقطة السمت، **ونرسم الخط.**

دراسة تاريخية:

ذكر الشيرازي أن سمت القبلة نقطة تقاطع أفق البلد المفروض ودائرة الارتفاع المارة بسمتي رأس البلد ومكة وبين **خطأ تفسير سمت القبلة بأنها نقطة في الأفق** إذا واجهها الإنسان كان مواجهًا للكعبة

بينما عرّف البيروني سمت القبلة: «هو ملتقى أفق البلد والدائرة التي تمر على سمت رؤوس أهل ذلك البلد ومكة».[٦٥] ولم يذكر دائرة ارتفاع.

ويقول ابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠هـ / ٩٦٥-١٠٤٠م): «القبلة: هي الجهة التي إذا قابلها ناظر الإنسان كان كالناظر إلى قطر العالم المار بالكعبة، وكان شعاع بصره على ذلك السمت في سطح الدائرة العظيمة المارة بسمت رأسه وبالنقطة المسامتة للكعبة، **ويحد** هذا السمت أعني سمت القبلة الخط المستقيم الذي هو الفصل المشترك بين أفق الموضع المطلوب فيه السمت وبين الدائرة العظيمة التي تمر بقطب ذلك الأفق وقطب أفق الكعبة»[٦٦]، وأيضًا لم يذكر أن العظيمة دائرة ارتفاع.

ويقول عبد العلي البرجندي (ت بعد ٩٣٥هـ): الخط الواصل بين نقطة سمت القبلة ومركز الأفق الحسي هو خط سمت القبلة، **وسهم القوس** الذي يبنى أساس المحراب عليها بعض من هذا الخط لا أنه نفس هذا الخط على ما قيل، ...، **والكعبة اسم للبقعة المعينة وما يليها من الهواء إلى عنان السماء على ما هو رأي أكثر** الفقهاء<كل ما علا الكعبة فهو كعبة>، فالخط المستقيم الخارج من بصر المصلي يقع على الكعبة بهذا المعنى جزمًا وإن لم يقع على نفس البيت في أكثر المواضع، **فتفسير القبلة بأنها نقطة من أفق البلد إذا واجهها الإنسان كان مواجهًا للكعبة ليس بفاسد على ما زعم العلّامة <الشيرازي>**، نعم لو كان الكعبة عبارة عن البناء في البقعة المذكورة <فقط> كما هو رأي بعض الفقهاء لكان الأمر على ما زعم»[٦٧].

يقول العرضي(١٢٦٦-١٢٠٠م): «**سمت القبلة**، ويسمى بقوس الانحراف، وهو قوس من محيط دائرة الأفق فيما بين الفصل المشترك للأفق ولدائرة نصف النهار وبين الفصل المشترك للأفق وللدائرة السمتية المارة بسمت الرأس وسمت الرأس بمكة، ويسمى هذا الفصل الأخير خط السمت، وهو

٦٥- البيروني، محمد بن أحمد، مخطوط التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، المكتبة البريطانية مخطوطات شرقية،Or 8349، ص١٥٣.

٦٦- الإدلبي، صلاح الدين بن أحمد، استقبال القبلة وتحديد سمتها في المناطق البعيدة، بيير فوند،١٩٩٥، ص١٢٧.

٦٧-البرجندي، شرح التذكرة،...، المصدر سبق ذكره، ص٧٣٤، ص٧٢٦.

الخط الذي يصل بين مركز الأفق بالبلد وبين نقطة السمت أعني تقاطع محيطي دائرتي الأفق والسمتية المذكورة»[٦٨]، وسمت القبلة عنده ليس نقطة، حيث قام بحساب **سمت القبلة عن طريق قوانين المثلثات الكروية.**

يقول التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥ م) في سمت القبلة: «عندهم نقطة من الأفق إذا واجهها الإنسان كان مواجهًا للقبلة، وأمّا قوس سمت القبلة للبلد وقد تسمّى بقوس انحراف سمت القبلة أيضًا، ... وقد **يطلق سمت القبلة على هذه القوس أيضاً على ما ذكره القاضي الرومي**»[٦٩].

يقول القاضي نكري (ت ق ١٢هـ) في سمت الْقِبْلَة: «عبارَة عَن نقطة محُيط دَائِرَة الْأُفق لَو حَاذَى رجل تِلْكَ النقطة يكون مواجها لمَكَّة المعظمة والخط الْوَاصِل بَين تِلْكَ النقطة وبين قدم الْمُصَلِّي إِلَيْهَا هُوَ خطّ سمت الْقِبْلَة»[٧٠].

النتائج:

نجح الشيرازي في استقراء الواقع والاستفادة من ظواهره في استنتاج القوانين الطبيعية، فقد أجرى منهجًا علميًّا هندسيًّا لتحديد خط النهار بعد دراسة حركة الظلال، واعتمد على معيار صحيح وواضح في تحديد السطح الموزون مغاير لمعايير بقية العلماء العرب التي شكلت في مجملها قواعد صحيحة كاشتراط عدم انحراف الشاقول، أو حدوث الانطباق التام بين قاعدة المقياس والسطح المستوي وعدم إمكانية مرور سوى الضوء بينهما، وعدم انحراف وسيلان الماء على سطحه إلى أي جهة وثبات الجسم المهتز على سطحه، ثم استخدمَ الدائرة الهندية لقياس السمت، كما حل مشكلة تحديد القبلة لأهميتها لأداء الصلاة وتحديد اتجاه المساجد،، إذ ذكر أن تحديد سمت القبلة بالظلال يمكن القيام به مرتين في السنة حين يكون موقع الشمس في مسيرها على أحد الجزأين اللذين يسامتان مكة من البروج وهما / ٢١ ´ ٧ ° / من الجوزاء، و / ٣٩ ´ ٢٢ ° / من السرطان، كما استخدم كثيرًا من الطرق الهندسية والحلول القائمة على المعرفة الرياضية والدوائر الفلكية في تحديد اتجاه القبلة.

الخاتمة:

مما لا شك فيه أن التراث العربي ذاخر بالعلوم التجريبية التي مهدت لاكتشاف كثير من القوانين الطبيعية والرياضية التي أسهمت في اكتشاف وتطوير كثيرٍ من الآلات الفلكية التي صحَّت الحاجة إليها للوصول إلى نتائج صحيحة.

المصادر والمراجع

١- **ابن منظور**، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦.

٢- **الإدلبي، صلاح الدين بن أحمد، استقبال القبلة وتحديد سمتها في المناطق البعيدة، بيير فوند، ١٩٩٥.**

٣- **البتاني، محمد بن سنان بن جابر الحراني، كتاب الزيج الصابئ، مدينة رومية العظمى،١٨٩٩.**

٤- **البرجندي، عبد العلي بن محمد بن حسين، شرح التذكرة، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية،** Or 1306.

٥- **البيروني، محمد بن أحمد، مخطوط التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، المكتبة البريطانية مخطوطات شرقية،** Or 8349.

٦٨- العرضي، تاريخ علم الفلك العربي العرضي كتاب الهيئة، ...، المصدر سبق ذكره، ص٣٤٤.

٦٩- التهانوي، كشاف اصطلاحات اللفنون والعلوم، ...، ج١، ص١٠٣٣

٧٠-نكري، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد، دستور العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٠م، تحقيق حسن هاني فحص، ط١، ص١٣٢

٦- البيروني، محمد بن أحمد أبو الريحان، القانون المسعودي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ١٩٥٦.

٧- التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، ج١.

٨- ثاوذوسيوس، «كتاب الأكر»، ملخص في الرياضيات، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية، Add MS23570.

٩- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، مكتبة النور، دمشق.

١٠- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٨٠، ط٥.

١١- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع دار الكتاب الإسلامي القاهرة.

١٢- الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوطة في المكتبة البريطانية برقم (ADD/7482) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٢٢٤).

١٣- الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوطة (staas-674 bibliothk pet) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (١٥٩).

١٤- الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوطة مكتبة فيض الله، رقم المصدر ١٣٤٩، تاريخ النسخ ٦٨٥هـ.

١٥- العرضي، مؤيد الدين، تاريخ علم الفلك العربي العرضي كتاب الهيئة، تحقيق جورج صليبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ط١.

١٦- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق، ط٤، ٢٠٠٤.

١٧- نكري، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد، دستور العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٠م، تحقيق حسن هاني فحص، ط١.

18- Gīlānī Kūshyār Risāla-yi asṭurlāb, Editor: Muḥammad Bāqir, Publication date: 2021, Publisher: Brill, P.216a-P.216b.

المواقع الإلكترونية:

١- https://www.youtube.com/watch?v=DclhNDKcgaw الدائرة الهندية في علم الفلك.

٢- https://ar.wikipedia.org/wiki/ شاقول.

٣- https://en.wikipedia.org/wiki/Qibla-observation-by-shadows مراقبة القبلة بالظلال.

٤- https://www.youtube.com/watch?v=Y-as·BOqyTs Al Shatir Sundial Presentation

٥- https://www.youtube.com/watch?v=eXFY1Ti14eA عشر طرق لمعرفة الاتجاهات كيف تعرف الاتجاهات.

٦- https://www.youtube.com/watch?v=rDkl2W·lyyQ استخدام الأسطرلاب.

٧- https://www.youtube.com/watch?v=XWZfdf4imz8&list=RDCMU علماء المسلمين وتصميم الأسطرلاب م.

٨- https://www.youtube.com/watch?v=t4EUxycEUbc حسن بيلاني: تحديد اتجاه القبلة بوساطة الأسطرلاب.

مِن سهو العلماء
سِهاء[1] أَبي منصورٍ الثَّعالبيّ في اليتيمة مثالا

د. محمَّـــد قاســـم

قال أبو بكرٍ الصُّوليُّ (ت ٣٣٥ هـ) في كتابه أخبار أبي تمَّام (ت ٢٣١ هـ) ص ٣٨: «وأبو تمَّام أَخَذَ نَفْسَهُ، وسَامَ طَبْعَهُ، أَنْ يُبْدِعَ في أَكْثرِ شعره. فلعمري لقد فعل وأَحْسَنَ، ولو قَصَّرَ في قليلٍ – وما قَصَّرَ – لغَرِقَ ذلك في بُحُوْرِ إِحْسَانِه. ومَنِ الكاملُ في شيءٍ حتَّى لا يجوزَ عليه خَطَأٌ فيه، إِلّا ما يتوهَّمُهُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ؟» اهـ

افتتحت مقالتي هذه بكلمة الصُّوليِّ؛ للذي أصابتْه مِن نفسي وأنا بصدد أَنْ أُقَيِّدَ بعض ما سها فيه أبو منصورٍ الثَّعالبيُّ (ت ٤٢٩ هـ) في مُدَوَّنَتِه الجهيرة «يتيمة الدَّهْر»؛ فما يبلغ ما زَلَّتْ قدمُه فيه أَمَامَ ما قَرْطَسَهُ وأَصَابَ فيه المَحَزَّ، وقد نَهَضَ بجَمْعِ تراثِ الأُمَّة الأَدبيّ في المئةِ الرَّابعةِ وَحْدَهُ، وهو عملٌ تنوءُ به عُصْبَةٌ من حُذَّاقِ الرُّواة وحَمَلَةِ الشِّعر، وقد قالوا: لولا ظُلْمَةُ الخَطَأ ما أَشْرَقَ نُوْرُ الصَّوابِ.

وفيما يأْتي مواضع مِمّا سها فيه أبو منصورٍ:

١- سِهاء: جمع سَهْوة، مثل صِهاء وصَهْوة.

اليتيمـة ٥٢: وكان ظَهَـرَ رَجُـلٌ في العرب يُعـرفُ بالمُبَرْقَع يدعو النّاسَ إلى نفسه، والتفَّت عليـه القبائلُ، وافتتح مدائـنَ مـن أطراف الشَّام، وأسر أبا وائل تَغْلِبَ بْنَ داودَ بْنِ حَمْدَان، وهـو خليفة سيف الدّولة على حمْصَ، وألزمه شـراءَ نفسـه بعدد من الخيـل وجُمْلَة من المال، فأسرع سيفُ الدَّولة من حلب يَغُذُّ السَّـيرُ حتَّى لَـحقَهُ في اليوم الثّالث بنواحـي دمشـق، فأوقع به وقتلـه، ووضع السيف في أصحابه، فلم ينجُ إلّا مَنْ سبـق فَرَسُهُ. وعاد سيف الدَّولة إلى حلب ومعه أبو وائل، وبين يَدَيْه رأسُ الخارجيِّ على رُمْح...

قُلْـتُ: أَخْشَـى أَنَّ الثَّعالبيَّ ههُنا خَلَطَ بَيْنَ أبي حَرْبٍ المُبَرْقَعِ اليَمَاني الذي خرج بفلسطين، وخَالَفَ على المعتصم سنـة ٢٢٧ هـ، وبين القَرْمَطِيِّ الملقَّـب بالهادي الذي ظَفِرَ به سيف الدَّولة سنة ٣٣٦ هـ، واستنقذ أبا وائل كما يقول النُّويريُّ في نهاية الأرب ٢٦ / ١٤٠، وابن خالويه في شرحه على ديوان أبي فراس ٢ / ١٤٧.

أَوْ مَـنْ سمَّـاهُ ابنُ الإفليليِّ ابنَ هرَّة الرَّمَاد، قال في شرح شعر المتنبِّي ١ / ١٩٨: «ونَجَمَ خارجيٌّ يُعْرَفُ بابن هرَّة الرَّماد في كَلْب ببرِّيَّة حمْصَ، فأغار على أطراف حمصَ، وصاحبُ حربها أبو وائل تغلبُ بْنُ داود بْنِ حَمْدَان من قِبَل سيف الدَّوْلة، وكان قد خَرَجَ من ذلك اليوم كالمُتَنَزِّه وَحْدَهُ، فأَسَرَهُ الخارجيُّ، وطالبه بمالٍ، وخيلٍ كانت له سوابقَ، فوعـده بهـا، واتَّصـل الخَبَرُ بسَيْـف الدَّولة، فسار في جيشـه، فما أَرَاحَ حتّـى أوقع به، وجعل العَـرَبَ على مقدّمته، فوقعـتْ بابـن هرَّة الرَّماد، فهَزَمَها، إلى أَنْ بَلَغَ بها إلى سيف الدَّوْلـة، وكان سيف الدَّوْلة في ألفَيْن من غِلْمَانه ووجوه رِجَاله، فحَمَلَ عليه، فقَتَلَهُ وجميعَ أصحابه، واستنقذ أبا وائل»اهـ

ووافـق الثَّعالبـيَّ في أَنَّهُ المُبَرْقَـعُ ابنُ بسَّام في الذَّخيرة ١ / ٢٤٤ عن كتابنا، وابـن خالويه في شرحه على ديوان أبي فراس ٢ / ١٧٠.

وقال أبو العلاء في اللَّامع العزيزيّ ٢ / ٨٨٦: «الذي أَسَرَ أبا وائل رجلٌ يُقَالُ: إِنَّهُ من القرامطة. ويجوز أَنْ يكون خارجيًّا من غيرهم. وقيل: إِنَّهُ كان يركبُ جملًا، ويُشير بكُمِّه إلى أصحابه يحثُّهم على القتال» اهـ

وفي خبر المُبَرْقَع اليماني يُنظر: تاريخ الطّبريّ ٩ / ١١٦، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦٦ / ١٣٦ والمنتظم ١١ / ١١٧، وتاريخ الإسلام ٩ / ٥٠١.

• اليتيمة ٦٢: فلمّا رأى فَرْدَسُ بُعْدَ مغزاه – سيف الدَّولة – وخُلُوَّ بلاد الشام منه غزا نواحيَ أَنْطَاكِيَةَ، فأَسْرَى سيـف الدَّولـة يطوي المَرَاحِـلَ ولا ينتظر متأخِّرًا، ولا يلوي علـى متقدِّم، حتَّى عارضه بمَرْعَشَ، فأوقع به، وهَزَمَهُ، وقَتَلَ رؤوس البطارقة، وأَسَرَ قُسْطَنْطِيْنَ بْنَ الدُّمُسْتُقِ، وأصابت الدُّمُسْتُقَ ضَرْبَةٌ في وَجْهِه ، وأكثر الشُّعراءُ في هذه الوقعة، فقال أبو الطَّيِّب:

لـكلِّ امـرئٍ مـن دَهْـرِه مـا تـعـوَّدا وعـاداتُ سيفِ الـدَّوْلَـةِ الطَّعْنُ في العِدا

قُلْتُ : أَخْشَى أَنَّ أبا منصور قد وهم في مناسبة القصيدة، فقصيدة «لكلِّ امرئٍ من دَهْره ما تعوَّدا» قالها يمدحُه ويُهَنِّئُـهُ بالعيـد في ذي الحجَّـة سنة اثنتين وأربعـين وثلاثمئة، وفيها أشـار إلى أسر قُسْطَنْطين، وفـرار أبيه بَرْدَسَ الدُّمُسْتُق، ومنها:

هَنِيْئًا لك العِيْدُ الّـذي أنـتَ عِيْدُهُ وعيـدٌ لِمَـنْ سَمَّى وضَـحَّى وعَـيَّدا

وأَمَّـا القصيدة التي قالها في عُبُـوْر الفُرَات والغارة على عَرْقَةَ وملَطْيَةَ، واستغلال الرُّوم خُلُوَّ البلاد منه، وقُفُوْله راجعًـا، وأَسْـر قُسْطَنْطِيْنَ، وجَـرْحِ الدُّمُسْتُقِ في وَجْهِـه = فكانت في جُمَادَى الآخرة سنة اثنتـين وأربعين وثلاثمئة،

وأَوَّلُها:

لـيـالِيَّ بَـعْـدَ الـظَّـاعـنـيـنَ شُـكُـوْلُ طِـــوَالٌ ولـيـلُ الـعـاشـقـيـنَ طـويـلُ

ومنها :

على قَلْبِ قُسْطَنْطِيْنَ مِنْهُ تَعَجُّبٌ وإِنْ كـان في سَـاقَـيْـهِ منـه كُـبُـوْلُ

نَجَـوْتَ بإحدى مُهْجَتَيْكَ جَرِيْحَةً وخَـلَّـفْـتَ إِحـدى مُـهْـجَـتَـيْـكَ تَسِيْلُ

شرح شعر المتنبِّي لابن الإفليليِّ ٢/ ١٦٠ – ١٦١.

فأَنْـتَ تَـرَى فَـرْقَ مـا بَيْنَ القصيدتَـيْنِ، إذ ما أَنْشَـدَهُ الثَّعَالبيُّ مِنْ قصيـدة العِيْد في ذي الحجَّة مـنْ سَنَة ٣٤٢ هـ، وقصيـدة الغـارة على ثُغُور الرُّوْم وأَسْرِ قُسْطَنْطِيْنَ وجَرْحِ أَبيه في جُمَادَى الآخرة مِن السَّنة نَفْسِها، أَيْ بينهما ستَّةُ أَشْهُر.

- اليتيمة ٩٨: أبو فراس:

ولَسْتُ بجَهْمِ الوَجْـهِ في وَجْـهِ صاحبي وإِنْ سَـأَلَ الأعـمـارَ مـا هـو سَـائِلُ

قُلْتُ : رَكَّبَ المُصَنِّفُ عَجُزَ بَيْتٍ على صَدْرِ بَيْتٍ آخَرَ، وهما في ديوانه ٢ / ٢٩٢ – ٢٩٣ والدّرّ الفريد ١٠ / ١٧٩:

ولستُ بجَهْمِ الوَجْـهِ في وَجْـهِ صاحبي ولا قـائـلًا لـلضَّـيْـفِ: هَـلْ أنـتَ راحِـلُ؟

ولـكـنْ قِـــرَاهُ مـا تَـشَـهَّـى، ورِفْـــدُهُ ولَـوْ سَـأَلَ الأَعْـمَـارَ، مـا هُـوَ سَـائِلُ!

- اليتيمة ٣١٩: وقال – يعني المتنبِّيَ –:

أَلا إِنَّ الـنَّـدى أَضْـحَـى أَمِـيْرًا عـلـى مـالِ الأمـيـر أَبـي الحُـسَـيْنِ

قُلْتُ: هـذا سـهو من أبي منصـورٍ، فالبَيْتُ مستفيضُ النِّسبة إلى أبي تمّام، والذي أسهـاه أَنَّ النُّقَّاد ذكروا أَنَّ أبا الطَّيِّب أخذ قَوْلَهُ:

أمـــيرٌ أمـــيرٌ عـلـيـه الـنَّـدى جَـــوَادٌ بَـخِـيْـلٌ بـــأَلَّا يَـــجُـوْدا

من بيت أبي تمّام هذا.

ديـوان أبـي تمّام بشـرح الخطيب التِّبريـزيِّ ٣ / ٣٠٧، والوساطـة ٢٢٢، والمنصف ٤٩٠ (القطعـة التي حقَّقها محمَّد يوسف نجم)، والصُّبْح المُنْبي ٢٩١.

- اليتيمة ٣٢٩: وقال – يعني المتنبِّي –:

أفيكم فَتًى حَـيٌّ فيُـخْـبِرَني عنِّي بما شربتْ مشروبةُ الرَّاحِ مِن ذِهْني

قُلْتُ: هذا سَـهْوٌ من أبي منصور سيقع فيه مرَّةً أُخرى في فصل مساوئ شعر المتنبِّي ومقابحه. والبيت لأبي تمّام في ديوانه بشرح الخطيب التِّبريزيِّ ٣ / ٥٨٢، والموازنة ج ٣ ق٢ ص ٦٠٧، والوساطة ٢٧٣، والصُّبح المُنْبي ٢٩٦.

●اليتيمة ٥٦١ – ٥٦٢: وله – النَّاشئ الأصغر –:

كَـــأَنَّ الـــدُّمُـــوْعَ عـلـى خَـــدِّهِ بَـقِـيَّـةُ طَـــلٍّ عـلـى جُـلَّـنَـارْ

قُلْتُ: هـو لأبـي العبَّاس النّاشئ الأكبر عبد الله بن محمَّد المتوفَّى سنة ٢٩٣ هـ في ديوانه ١٣٠، والتشبيهات لابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ) ٨٣، وديوان المعاني ١ / ٥٠٦، وزهر الآداب ١ / ٥٣٠، وأسرار البلاغة ٢١٦، ومعجم الأدباء ٤ / ١٥١٢، ١٥٤٨، والمختار من شعر بشَّار ٣٠٠، والدّرّ الفريد ١ / ١٤٩.

وبلا نسبة في الجليس الصالح ٣ / ٣٤١، ونهاية الأرب ٢ / ٢٥٨، والمُستَطْرف ٣ / ٧٩.

ونُسِبُ في التذكرة الحَمْدونيَّة ٦ / ٩٢ إلى النّاشئ الأوسط، وسيَنْسِبُهُ إليه المُصَنِّفُ عَرَضًا في ترجمة السَّرِيِّ الرَّفَّاء.

سهـا أبـو منصور إذنْ في نسبة هذا البيت إلى النَّاشئ الأصغر، وهو للنَّاشئ الأكبر كما أطبقتْ عليه جُلُّ المصادر التـي ذكرتُهـا، ثمّ صَحَّحَ نسبتـه إلى مَنْ سمَّاه النَّاشئَ الأَوْسَـطَ، ولا أعلمُ له سَلَفًا في هذا النَّبْـز، وتابعه فيه صاحبُ التَّذْكِرة الحَمْدُونيَّة، والظّاهر أَنَّهما يَعْنيان به أبا العَبَّاس النَّاشئَ الأَكْبَرَ.

ولم يَظْهَرْ لي وَجْهُ وَصْفِه بالأَوْسَطِ إلّا أَنْ يكونا أَرادا التَّمييز بين ثلاثة من النَّاشئين:

الكبـير: وهـو النَّحْويُّ الذي ذكـره المُبَرِّدُ: «أَحْفَظُ مَنْ أَخَذَ عن سيبويه الأَخْفَشُ، ثـمّ النَّاشِئُ، ثمَّ قُطْرُبٌ»، وضع كُتُبًـا في النَّحْـو، مـات قبـل أَنْ يَسْتَتِمَّها وتُؤْخَـذَ عنه، وقيل لو خَـرَجَ علمُ النَّاشِـئِ إلى النَّاسِ ما تقدَّمـه أحدٌ. مراتب النَّحْويِّيْنَ ٨٥، ومُعْجم الأُدباء ٣ / ١٣٧٦، ومقدّمة تحقيق ديوان النَّاشئ الأكبر ٧.

الأَوْسَـطُ: عبـد الله بـن مُحَمَّد أبو العَبَّاسِ (ت ٢٩٣ هـ)، وَصَفَهُ ابْـنُ خَلِّكان في وفيات الأعيـان ٣ / ٩١ بالأكبر، ووَصَفَـهُ أبـو حَيَّان التَّوحيديُّ في البصائر والذَّخائـر ٥ / ٢١٥، ٩ / ١١، ١٤ بالكبير، ورُبَّما وَرَدَ عُطُلًا مِنَ الوَصْفِ كما في التَّشبيهات ٨٣.

الأَصْغَرُ: عليّ بْنُ عبد الله بن وَصِيْفٍ (ت ٣٦٥ هـ) أبو الحسن أو الحسين شاعر اليتيمة، والله أَعْلَمُ.

●اليتيمة ٧٠٣: حبيب بن أحمد الأندلسيّ

قُلْتُ: الشَّطَجَيْرِيُّ المتوفَّى سنة ٤٣٠ هـ من أعيان أهل الأدب في قرطبة، أدرك أيَّام الحكم المُسْتَنْصِر، وبلغ سنًّا عاليـةً، ورآهُ الحُمَيْـدِيُّ، وذكر أَنَّهُ هو الذي جَمَعَ ديوان الغـزال يحيى بن حكم الجيّانيّ، ورتَّبه على الحروف. جذوة المقتبس ١٨٦، وفي تاريخ الإسلام ١٧ / ٧٣ أَنَّهُ تُوُفِّيَ سنة ٤٠٤ هـ.

هـذا وسَيُعَـاوِدُ المُصَنِّفُ ذِكْرَ حبيب بـن أحمد مرّتَيْن في هذا الباب (الباب التاسـع في ملح شعراء الشّام ومصر والمغـرب) مـن القسم الأوَّل (في محاسن أشعـار آل حمدان، وشعرائهم، وغيرهم من أهل الشّـام، وما يُجاورُها من مصر و المَوْصِل والمغرب، ولُمَع مِنْ أخبارهم):

الأُولى: سها فيها؛ إذ أراد به أَحمد بْنَ محمَّد بْنِ عَبْد رَبِّه بْنِ حبيب بْنِ حُدَيْر بْنِ سالم القرطبيّ (٢٤٦ – ٣٢٨ هـ) مليـح الأندلس، فقـد أَنْشَدَ له هٰهُنا أربع مقطوعات ثابتةَ النِّسْبَةِ في مصادرَ أندلسيَّةٍ ومشرقيَّةٍ لابن عبد ربِّه. وانظر: معجم الأدباء ١ / ٤٦٣، ووفيات الأعيان ١ / ١١١.

الثّانية: أَنْشَدَ له فيها مُقَطَّعَةً في مَدْحِ المنصور بْنِ أبي عامرٍ.

•اليتيمة ٧٠٤ وأُنشدتُ لأحمد بْن عبد الرحمن اليتيم النَّحْويِّ:

إذا ما نِلْتَ مِن دُنْيَاكَ حظًّا ... فأَحْسِنْ للغَنِيِّ وللفَقِيْرْ

ولا تُمْسِكْ يَدَيْكَ على قليلٍ ... فإنَّ اللهَ يأْتي بالكثيرِ

قُلْتُ: سيعاود المُصَنِّفُ ذِكْرَهُ في هذا البابِ بابِ مُلَح شعراء الشّام ومصر والمغرب، ويَنْسِبُ إليه هذين البيتين، وسيُسمّيه ثمّة: أحمد بن محمّد بن عبد الكريم اليتيم النَّحْويّ.

وفي إنباه الرُّواة ١ / ١٢١: أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد المعروف بالهيثم [كذا] أبو العبَّاس النَّحْويّ المِصْريّ: كان مِن أهل الدِّيار المصريَّة، وكان أديبًا ومتصرِّفًا في علم الأدب والعربيَّة، شاعرًا حَسَنًا، لَهُ يَدٌ في الغَزَلِ، وكان في عصر كافورٍ الإخشيديِّ.

وفي خبر عن أبي الطّاهر محمّد بن أحمد الذُّهليّ البغداديّ المالكيّ قاضي الدِّيار المصريَّة (٢٧٩ – ٣٦٧ هـ) أَنَّهُ لَحَنَ، فنُبِّهَ على لَحْنِه، ولَزِمَ القَارئَ عليه اليتيمَ النَّحْويَّ. سير أعلام النُّبلاء ١٦ / ٢٠٥ – ٢٠٦.

•اليتيمة ٧١٢ – ٧١٣: وقال – عبد المُحْسِنِ الصُّوريُّ – يهجو بَعْضَ مَنْ أَضَافَهُ:

وأَخٍ مَسَّهُ نزولي بقَرْحٍ ... مثلَما مسَّني مِن الجُوْعِ قَرْحُ

قيل لي: إنَّهُ جوادٌ كريمٌ ... والفتى يَعْتَرِيْهِ بُخْلٌ وشُحُّ

بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كما حَكَمَ الدَّهْـ ... ـرُ، وفي حُكْمِهِ على الدَّهْرِ قُبْحُ

قال لي إذْ نزلتُ وهْو مِنَ السَّكْـ ... ـرَةِ والهَمِّ طافحٌ ليس يصحو:

لِمْ تَغَرَّبْتَ؟ قُلْتُ: قَالَ رَسُوْلُ اللـ ... ـهِ، والقَوْلُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ:

«سافِرُوا تَغْنَمُوا»، فقَالَ: وقَدْ قا ... لَ تَمَامَ الحَدِيْثِ: «صُوْمُوا تَصِحُّوا»!

قُلْتُ: نسبها المُصَنِّفُ ههُنا لعبد المُحْسِنِ الصُّوريِّ، وسينسبها في تتمَّة اليتيمة، وخاصّ الخاصّ ٢٠٤ إلى أبي الفَرَجِ بن أَبي حصين القاضي الحلبيّ.

وعلّق ابنُ خَلِّكَان على اضطراب أبي منصورٍ في نسبة الأبيات: «ومن شعره – يعني عبد المُحْسِن – أيضًا، وذكر الثَّعالبيُّ في كتابه الذي جعله ذَيْلًا على «يتيمة الدّهر»، هذه الأبيات لأبي الفَرَجِ بن أَبي حصين عليّ بن عبد الملك الرّقّيّ أَصْلًا، وكان أبوه قاضيَ حلب، واللهُ أعلم.

ولكنَّها في ديوان عبد المُحْسِنِ – والثَّعالبيُّ قَدْ نَسَبَ أشياءَ إلى غيرِ أربابِها، وغَلِطَ فيها، ولعلَّ هذا مِنْ جُمْلَةِ الغَلَطِ أَيْضًا – وذُكِرَ في دِيْوَانِه أَنَّهُ عَمِلَها في أخيه عبد الصَّمد»اهـ

•اليتيمة ٨٩٣: وقال – ابن وكيع –:

أَبْصَرَهُ عَاذِلي عَلَيْهِ ... ولَم يكُنْ قَبْلَ ذا رَآهُ

فقَالَ لي: لَوْ هَوِيْتَ هذا ... ما لامَكَ النَّاسُ في هَوَاهُ!

قُـلْ لي: إلى مَـنْ عَـدَلْـتَ عَـنْـهُ ... فَـلَـيْـسَ أَهْـلُ الـهـوى سِـوَاهُ؟
فـظَـلَّ مِـن حَـيْـثُ لَـيْـسَ يَـدْري ... يَـأْمُـرُ بـالحُـبِّ مَـنْ نَـهَـاهُ!

قُلْتُ: نَسَبَ المُصَنِّفُ هذه الأبيات إلى أَبي عليٍّ الحسين بن بِشْر الرَّمْليِّ في التَّتمَّة في خَبَرٍ حكاه عن القزوينيِّ وغيره، ثمّ قال: «ثمّ رأيتُ هذه الأبياتَ في ديوان أَبي الفَرَج بْنِ هِنْدُو. ولَسْتُ أدري أَيُّهما المُنْتَحِلُ؟ ولنا مِنَ الحديث طَيِّبُهُ»اهـ

•اليتيمة ٩٤٩ – ٩٥٠: أَنْشَدَ المُصَنِّفُ هٰهُنا قصيدة في شمعة لسُليمان بن حَسَّانَ النَّصِيْبِيْنِيِّ.

قُلْتُ: سيُنْشِدُ المُصَنِّفُ أبياتًا مِنْ هـذه القصيدة عن أَبي سَعْدٍ يَعْقُوْبَ لأبي محمَّد بْنِ أَبي الثِّياب مِن ندماءِ ابن العميد، ولَهُ فيه شِعْرٌ كثيرٌ، مِنْ بَعْدُ.

وبعض أبياتها لأبي عليٍّ القَرْمَطِيِّ القصير الثِّياب في نِشوار المحاضرة ٧ / ١٠٦ – ١٠٧، وبدائع البدائه ١٦٠ – ١٦١.

•اليتيمة ٩٦٠: قوله – يعني أبا القاسم بن طَبَاطَبَا الرَّسِّيَّ –:

خـلـيـلـيَّ إِنِّي لـلـثُّـرَيَّـا لـحـاسِـدُ ... وإِنِّي على صَـرْفِ الـزَّمَـانِ لـوَاجِـدُ
أَيَبْقَى جميعًا شَمْلُها وهْي سَبْعَةٌ ... وأَفْـقِـدُ مَـنْ أَحْـبَـبْـتُـهُ وهْـو وَاحِـدُ
كـذلـك مَـنْ لَمْ تـخـترمْـه مَـنِـيَّـةٌ ... يَـرَى عَـجَـبًـا فيما يَـرَى ويُـشَـاهِـدُ

قُلْتُ: سيَنْسِبُ المُصَنِّفُ البيتَيْنِ الأَوَّلَ والثَّانيَ مِن بَعْدُ لأبي بَكْرٍ محمّد بْنِ هاشم الخالديِّ، وقال: هو من شعره الذي يُنْسَبُ في بعض النُّسَخِ إلى كشاجم، ثمّ قال: وهما مِمّا يُنْسَبُ إلى المُهَلَّبِيِّ الوزير، وهما في ديوان الخالديَّيْنِ ٤٤ عن اليتيمة.

ونسبهما صاحب الدّرّ الفريد ٦ / ١٧٤ إلى المُهَلَّبِيِّ الوزير، ثمّ قال: ويُرويان للخالديَّيْنِ وللسَّرِيِّ، وهما متنازعان اهـ

ونسبهما المُصَنِّفُ في مَنْ غَابَ عنه المُطْرِب ٩٨ إلى أَبي عثمان الخالديِّ، قال: ويُقَالُ: هو لابن أَخيه، ويُنْسَبُ إلى المُهَلَّبِيِّ اهـ

وهما للمُهَلَّبِيِّ الوزير في التمثيل و المحاضرة ٢٣٤، وزهر الأكم ٢ / ٢٩٠، وللعَطَوِيِّ في شرح ديوان المتنبِّي المنسوب إلى العُكْبَرِيِّ، وليس له ٣ / ٢٢٨، وبلا نسبة في المحبّ والمحبوب ٢ / ٤٣٥، وسرور النفس ١٣٢، ولأبي القاسم بْنِ طَبَاطَبَا في وفيات الأعيان ١ / ١٢٩، عن اليتيمة في ذا الموضع.

•اليتيمة ٩٦١: وقوله – يعني أبا القاسم بن طَبَاطَبَا الرَّسِّيَّ – وهو مِمَّا يُتَغَنَّى به:

قالـتْ لطَيـفِ خيـالٍ زارَني ومَضَـى: ... صِـفْ لي هـواهُ ولا تُـنْـقِـصْ ولا تَـزِدِ
فـقـال: أَبْـصَـرْتُـهُ لـو مَـاتَ مِـنْ ظَـمَـأٍ ... وقُـلْـتِ: قِـفْ عَـنْ وُرُوْدِ المـاءِ لَمْ يَـرِدِ
قالتْ: صدقْتَ، الوفا في الحُبِّ عادتُهُ ... يـا بَـرْدَ ذاكَ الـذي قـالـتْ على كَـبِـدي!

قُلْتُ: نسبها المُؤَلِّفُ مِنْ قَبْلُ إلى أَبي المُطَاع الحَمْدَانيِّ وجيه الدَّولة، الملقَّب بذي القرنَيْن، ونَبَّهَ على سَهْوِه هذا ابن خَلِّكَان في وفيات الأعيان ١ / ١٢٩.

●اليتيمة ١٠٣٦، ١٠٤٣، ١٢٣٤

أَنْشَدَ المُصَنِّفُ لابن عَبْد ربِّه مليح الأَندلس في هذه المواضع الثَّلاثة.

الموضع الأوَّل ١٠٣٦: أنشد لحبيب بن أحمد الأندلسيّ أربع مقاطيع كلّها ثابتة النِّسبة لابن عبد ربِّه في مصادرَ مشرقيَّةٍ وأندلسيَّة.

وحبيبٌ هذا سلف أَنْ أنشد له مُقَطَّعَةً في هذا الباب التاسع (مُلَح الشّام ومصر والمَغْرِب)، ثمّ سيعاود فيه ذِكْرَهُ، ويُنْشِدُ لَهُ مقطوعةً في مدح المنصور بن أبي عامر.

الموضع الثَّاني ١٠٤٣: سمَّاه أحمد بن عبد ربِّه الأندلسيّ وأنشد جملةً صالحةً من أشعاره (١٠٤٣ – ١٠٥١).

الموضع الثالث ١٢٣٤: سمَّاه أحمد بن محمَّد بن عبد ربِّه. وههُنا ترجم للرَّجُل، واتَّسع في الإنشاد له أكثرَ من الموضعَيْن السَّالفَيْن، إذ أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَفْرِغَ ديوانَه (١٢٣٤ – ١٢٨٢).

قُلْتُ: تفريقُ ما أنشده من أشعار على هذا النَّحْو دليلٌ على أَنَّهُ لَمْ يعرف الرَّجُلَ في الموضعَيْن الأوَّل والثَّاني، وهو يَرْوي عن الأندلسيِّيْنَ بالوجادة، و في الموضع الثَّالث عرف أَنَّهُ مَلِيْحُ الأَنْدلس، أظنُّ.

ومثلُ هذا أَنَّه ترجم يوسف بْنَ هارون الأندلسيَّ (ت ٤٠٣ هـ) ١٠٥٦، ثمّ ترجم في أواخر الباب التاسع (مُلَح الشّام ومصر والمَغْرِب) للرَّماديِّ المشهورِ بأَبي جَنِيْش، وهو يوسف بْنُ هارون نَفْسُهُ!

●اليتيمة ١٠٧٨: مُؤْمِنُ بْنُ سعيد بْن إبراهيم

قُلْتُ: مؤمن بْنُ سعيد بْن إبراهيم بْن قيس، جدُّه إبراهيم بن قيس من موالي الأمير عبد الرّحمن الدّاخل، اتّخذ قرطبة موطنًا له، وعلا نجمه في الشِّعر أيّام الأمير محمَّد (٢٢٨ – ٢٧٣ هـ)، وكان كثير التَّنَدُّرِ والتَّهَكُّم، لاذع التَّعليقات، حادّ الجواب، وينبر خصومه بالألقاب. تُوُفِّيَ سنة ٢٦٧ هـ. فهو خارجٌ عن زمان شعراء اليتيمة، و إقحامُه بينهم سهوٌ من المُصَنِّف. انظر: جذوة المقتبس ٣٣٠، والتَّشبيهات من أشعار أهل الأندلس ٣٣٥.

●اليتيمة ١١٤٠: ابْنُ شُهيد:

حتَّى إذا عَلَمُ الصَّبَا ... حِ أَشَارَ مِنْ تِلْكَ المَعَالِمْ

وتَمَايَلَتْ أيدي الثُّرَيْـ ... ـيا وهْيَ مُذْهَبَةُ الخَوَاتِمْ

ورَنَتْ ذُكَاءُ بنَاظِرٍ ... رَمِدٍ مِنَ الأَقْذَاءِ سَالِمْ

قُلْتُ: تَرَكَ المُصَنِّفُ اختيار البيت الذي فيه جواب «إذا»، وهو قَوْلُهُ في ديوانه ١٥٧:

طَلَعَ الصِّوَارُ لِحَيْنِهِ ... وكَأَنَّهُ المَوْجُ المُرَاكِمْ

●اليتيمة ١٣٢٨

ولَمْ يَزَل السَّرِيُّ في ضَنَك من العيش إلى أَنْ خَرَجَ إلى حَلَبَ، واتّصل بسيف الدَّولة، واستكثر منَ المدح له، فطَلَعَ سَعْدُهُ بَعْدَ الأُفُوْلِ، وبَعُدَ صِيْتُهُ بَعْدَ الخُمُوْلِ، وحَسُنَ مَوْقِعُ شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشَّام والعراق.

ولمَّا تُوُفِّيَ سَيْفُ الدَّولة وَرَدَ السَّرِيُّ بغداد، ومَدَحَ المهلَّبيَّ الوزيرَ وغَيْرَهُ من الصُّدور، فارتفق بهم، وارتزق منهم، وحَسُنَتْ حالُهُ، وسار شعرُه في الآفاق، ونَظَمَ حاشيتَي الشَّام والعراق، وسَافَرَ كلامُهُ إلى خُرَاسَان وسائِر البُلْدَان.

ووقع في معجم الأدباء ٣ / ١٣٤٣: «ولمّا مات سيف الدَّولة انتقل السَّريُّ إلى بغداد، ومدح الوزيرَ المهلَّبيَّ وغَيْرَهُ من الأعيان والصُّدور»اهـ

وفي وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٩: «وقصد سيف الدَّولة بن حَمْدَان بحلب، ومَدَحَهُ، وأقام عِنْدَهُ مدَّةً، ثمّ انتقل بعد وَفَاته إلى بغداد، ومدح الوزيرَ المهلَّبيَّ وجماعةً مِنْ رؤسائها»اهـ

هذا سهوٌ من أبي منصور ومَنْ نَقَلَ عنه بلا محاكمة ولا تدبُّر، أعني ياقوتًا وابنَ خَلِّكَانَ؛ إذْ تُوُفِّيَ سيفُ الدَّولة سنة ٣٥٦هـ (انظر وفيات الأعيان ٣ / ٤٠٥، وسقطتْ ترجمةُ سيف الدَّوْلة من مطبوعة مُعْجم الأُدباء كما سَقَطَ غيرُها كترجمة الثَّعالبيِّ)، وتُوُفِّيَ المهلَّبيُّ الوزيرُ أبو محمَّد الحسن بن محمَّد سنة ٣٥٢هـ (انظر معجم الأُدباء ٣ / ٩٧٦، ووفيات الأعيان ٢ / ١٢٧). فكيف يمدح السَّريُّ المهلَّبيَّ الوزيرَ المتوفَّى سنة ٣٥٢هـ بَعْدَ وفاة سيف الدَّولة سنة ٣٥٦هـ؟!

والصَّحيح ما وقَعَ في الوافي ١٥ / ١٣٦: «وقَصَدَ – أي السَّرِيّ – سيفَ الدَّوْلة بْنَ حَمْدَانَ، وأقام عندَه بحلب. ثمَّ وَقَعَ بَيْنَهُ وبين الخالديَّيْنِ هجاءٌ، وآل الأَمْرُ بينَهم إلى أَنْ قَطَعَ سيفُ الدَّولة رَسْمَهُ، فانْحَدَرَ إلى بغداد، ومدح الوزير المهلَّبيَّ وغَيْرَهُ من الرُّؤساء»اهـ

أَمَّ السَّريُّ بغداد قبل سنة ٣٥٢هـ بعد أَنْ أَوْغَرَ الخالديَّان بَلَدِيَّاهُ صَدْرَ سيف الدَّولة عليه، فقطع ما كان يُجريه له من رزق، فضاقت به حلب، وانحدر إلى بغداد أُمِّ الدُّنيا وسيِّدة البلاد ينتجعُ الأُستاذ أبا محمَّدٍ المهلَّبيَّ الذي كان مجلسُهُ دوحة الشعراء وريحانة الكُتّاب.

• اليتيمة ١٣٧٦: وقال من قصيدة خاطب فيها أبا الخَطَّاب المفضَّل بْنَ ثابت الصَّابي.

قُلْتُ: أبو الخطَّاب الصّابي الأديب الفاضل صاحب النَّظم والنَّثْر. تُوُفِّيَ سنة سبع وستين وثلاثمئة. وإليه كتب أبو إسحق الصّابي إبراهيم بن هلال، وهو ابنُ عمِّه، وقد تعاطى علم العروض ومعرفة الزِّحاف وأوزان الشِّعر، وقراءة كتب الأخفش والخليل:

يا أَبا الخَطَّاب أَكْثَرْتَ مَقَالًا في العروض
وهْو عندي هَذَيَانٌ زِيْدَ في نَظْم القَرِيْض

وذكره أبو حيَّان التوحيديّ في كتاب «تقريظ الجاحظ»، وأثنى عليه، فقال: ومنهم أبو الخَطَّاب الصَّابي، فإنَّهُ خرج على حداثة سنِّه باقعةَ عصره، وزينة دَهْرِه، أدبًا وفَهْمًا وخَطًّا وكتابةً.

وقد اخْتُضِرَ في شبابه. الوافي ٢٦ / ٢٠٨ – ٢٠٩.

وقد فات المُصَنِّفَ أَنْ يترجمه، على حين أَفْرَدَ الباب الثّالث مِنَ القِسْمِ الثَّاني «في محاسن شعراء أهل العراق وإنشاء الدَّولة الدَّيلميَّة» لابن عمِّه أبي إسحق الصَّابي.

وكذلك فاته أَنْ يترجم لأَبي حَيَّان التَّوحيديِّ (ت ٤٠٠هـ) الّذي كان ملءَ السَّمْع والبصر، و لعلَّه تعمَّد تَرْكَ ترجمته مُحَابَاةً لوزيْرَي الدَّوْلة البُويهيَّة ابن العميد والصَّاحب بن عبّاد اللَّذَيْنِ سامهما سوءَ العذاب في كتابه الذَّائع الصِّيت «أخلاق الوزيرَيْن».

•اليتيمة ١٥٤٥: أبو العبَّاس خُسْرُو فيروز بْنُ رُكْنِ الدَّولة
أُنْشِدْتُ له أبياتًا تدلُّ على فَضْلٍ مُسْتَكْثَرٍ من مِثْلِه، ولَمْ يَحْضُرْني إلَّا هذه:

أَدِرِ الكَأْسَ علينا ... أَيُّها السَّاقي لِنَطْرَبْ
مِن شَمُوْلٍ مِثْلِ شَمْسٍ ... في فَمِ النَّدْمَانِ تَغْرُبْ
فَحَكَتْ حِيْنَ تَجَلَّتْ ... قَمَرًا يَلْثَمُ كَوْكَبْ
وَرْدُ خَدَّيْهِ جَنِيٌّ ... لكنِ النَّاطورُ عَقْرَبْ
فإذَا ما لَدَغَتْ فالـ ... ـرِيْقُ تِرْيَاقٌ مُجَرَّبْ

قُلْتُ: خُسْرُو فيروز أحد أبناء ركن الدَّولة بن بُوَيْه (ت ٣٨٧ هـ). هذا ما أورده عنه في الباب الأوَّل: ملوك آل بُوَيْه، من القسم الثَّاني «في محاسن شعراء أهل العراق وإنشاء الدَّولة الدَّيلميَّة».

على أنَّ المُصَنِّفَ استدرك ترجمة الأمير أبي العَبَّاس خُسْرُو فيروز في تتمَّة اليتيمة في القسم الثَّالث في محاسن أهل الرّيّ وهَمَذَان وأصبهان وسائر بلاد الجَبَل وما يُجَاوِرُها من جُرْجَان وطَبَرِسْتَانَ، وأنشد له ثَمَّ سَبْعَ مقطوعات.

وكان حقَّه أَنْ يُسْتَدْرَكَ في تتمَّة القسم الثَّاني في محاسن شعراء أهل العراق و إنشاء الدَّولة الدَّيلميَّة.

•اليتيمة ١٨٤٢: وما أَشْبَهُ شِعْرَهُ – يعني أبا الحسن بن لَنْكَكَ – في الملاحة وقِلَّة مجاوزة البَيْتَيْنِ والثَّلاثة إلَّا بشعر كَنِيِّه أبي الحسن بن فارس، وأُقَدِّرُ أَنَّهُ كان في الجِبَال كهُوَ في العراق.

قُلْتُ: ابن فارس هو أبو الحُسَيْن (ت ٣٩٥ هـ)، وستأْتي ترجمتُه في القسم الثَّالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفَارِسَ وجُرْجَانَ وطَبَرِسْتَانَ وأصفهانَ من وزراءِ الدَّوْلَة الدَّيلميَّة وكُتَّابها وقُضَاتِها وشُعَرَائِها، في الباب السَّابع منه في ذِكْرِ سائر شُعَرَاءِ الجَبَلِ والطَّارئين عليه من العراق وغيرها ومُلَحِ أخبارهم وأشعارهم، وفيه: «أبو الحسين أحمد بن فارس بْن زكريَّا: كان بهَمَذَانَ مِنْ أعيان العلم وأفراد الدّهر، يجمع إتقان العلماء، وظَرْفَ الكُتَّاب والشُّعراء، وهُوَ بالجَبَل كابن لَنْكَكَ بالعراق، وابن خالويه بالشّام، وابن العلّاف بفارسَ، وأبي بكرٍ الخُوَارِزْمِيِّ بخُرَاسان» اهـ

•اليتيمة ١٩١٥: جَعَلَ المُصَنِّفُ قَوْلَ ابْنِ نُبَاتَةَ (أبو نصر عبد العزيز بن محمَّد بن نُبَاتة (ت ٤٠٥ هـ):

فَاتَ عَبْدُ العزيزِ سابقةَ القَو ... لِ، فأَنَّى لوَصْفِهِ مِنْ لَحَاقِ؟
طلعتْ في القُلُوْبِ ألفاظيَ الغُرْ ... رُ طُلُوْعَ النُّجُوْمِ في الآفَاقِ

= فَخْرًا منه بشعره. والصَّحيح أَنَّهُ في مدح عبد العزيز بن يوسف أبي القاسم الشِّيرازيِّ، وفي الدّيوان ١ / ٥٦٨ نَصٌّ على ذلك، وفيه: **طلعتْ في القلوب ألفاظُهُ.**

•اليتيمة ٢٣٧٢: وقد أَجْمَعَ أَهْلُ البصيرة في التَّرَسُّلِ أَنَّ رسالته – ابن العميد – التي أرسلها إلى بَلَكا بن وَنْدَادَ خُوْرشِيْدَ عِنْدَ استعصائه على ركن الدَّولة = غُرَّةُ كلامه، وواسطةُ عقْده.

قُلْتُ: ركن الدّولة أَبو علي الحسن بن بُوَيْه بْنِ فَنَّاخُسْرُو الدّيلَميُّ الملقَّب ركن الدَّولة صاحب أصبهان والرّي وهمذان وجميع عراق العجم (ت ٣٦٦ هـ)، وفيات الأعيان ٢ / ١١٨، وسير أعلام النُّبلاء ١٦ / ٢٠٣.

والذي في المصادر أَنَّ العصيان كان على أخيه معزّ الدولة، وهو أبو الحسين أحمد بن بُوَيْه بْنِ فَنَّاخُسْرُو الدّيلميّ صاحب العراق والأهواز (ت ٣٥٦ هـ). وفيات الأعيان ١ / ١٧٤، وسير أعلام النُّبلاء ١٦ / ١٨٩.

وفي سنة ٣٤٥ هـ خرج رُوزَبَهانُ بن وَنْدَاد خُوْرشيد الدّيلميّ على معزّ الدّولة، وعصى عليه، وخرج أخوه بَلَكا بشيراز، وخرج أخوهما أَسْفَارٌ بالأهواز.

تجارب الأمم ٦ / ٢٠٤، ومرآة الزَّمان ١٧ / ٣٠٤، والكامل ٧ / ٢١٤.

•اليتيمة ٢٥٤٠: لمَّا رَوَت الشِّيعة أَنَّ بالطَّالَقَان كنزًا من وَلَد فاطمةَ يملأُ اللهُ به الأرضَ عدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا، والصَّاحبُ من قَرْيَة الطَّالَقَان من قرى أصبهان، ورُزِقَ سِبْطًا فاطميًّا = تَأَوَّلُوا له هذا الخَبَرَ.

نَبَّهَ ياقوتٌ على سهو أبي منصور في عدِّ الطَّالَقَان من قُرى أَصْبَهَانَ، وذَكَرَ أَنَّها وِلَايَةٌ بَيْنَ قَزوينَ وأَبْهَرَ، وهي عِدَّةُ قُرًى يقع عليها هذا الاسمُ، وبخُرَاسَانَ بَلْدَةٌ تُسَمَّى الطَّالَقَانَ غيرُ هذه.

معجم الأدباء ٢ / ٦٦٢، ووفيات الأعيان ١ / ٢٣٢ – ٢٣٣.

•اليتيمة ٣٣٥١: ولَهُ – للمأمونيِّ – في التُّدْرُج:

قد بَعَثْنا بذاتِ لونٍ بديعٍ ... كنباتِ الرَّبيعِ أَوْ هِيَ أَحْسَنْ

في قِناعٍ من جُلَّنَارٍ وآسٍ ... وقميصٍ من ياسمينٍ وسَوْسَنْ

دُبِّجَتْ وهْي بنتُ دُرَّةِ بَرٍّ ... كَلَّ عَنْ بَعْضِ وَصْفِها كُلُّ مُحْسِنْ

التُّدْرُج: طائرٌ مُبَارَكٌ يُضْرَبُ المَثَلُ في حُسْنه. وأَنْشَدَ المُصنِّفُ الأبياتَ في ثمار القُلُوب وههُنا على أَنَّها في التُّدْرُج، وتابعه الدَّميريُّ في حياة الحيوان الكُبْرَى ٢ / ٣٥٢، وهو سَهْوٌ منه، صَحَّحَهُ في التوفيق للتلفيق ١١٧، وفيه: «وأنشدني أبو طالب المأمونيُّ لنَفْسه في وَصْف مدرجة جُبَّة أهداها لبعض أصدقائه» اهـ

هذا ما اتَّفَقَ لي تقييده من مآخذي على أبي منصور، وهي مآخذ لا تَغُضُّ من العمل الجليل الذي أدَّاه إلى هذه الأُمَّة في تدوين تراثها الأدبيّ في القرن الرَّابع الهجريّ، ولولاه لضاع كثير منه، ولا سيَّما أدب ما وراء النَّهر، إذ توشك أَنْ تكون اليتيمة مصدره اليتيم. وأرجو أَلَّا يكون قلمي قد جار عن الصَّواب أَوْ أَخَذَتْهُ شهوةُ الصِّيال والمُغالبة التي غَرِيَ بها غيرُ قليلٍ من النَّاس حتَّى صار نبش القبور والتمثيل بمَنْ فيها فَنًّا يُقْصَدُ، ومَذْهبًا يُعْتَقَدُ.

ربِّ إِنِّي أعوذ بك من فتنة القَوْلِ والعِيِّ والحَصَرِ.

جريدة المصادر

–أخبار أبي تمَّام لأبي بكر الصُّوليِّ، تحقيق خليل محمود عساكر، ومحمَّد عبده عزّام، ونظير الإسلام الهنديّ، المكتب التّجاريّ للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت (مصوَّرة عن ط. لجنة التَّأْليف والترجمة والنّشر في القاهرة).

–أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانيِّ، تحقيق محمود محمّد شاكر، مطبعة المدنيّ، ط١، القاهرة، ١٩٩١م.

–إنباه الرُّوَاة على أنباه النُّحاة للقفطيِّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصْريَّة، القاهرة، ١٣٦٩ هـ.

–بدائع البدائه لعليِّ بن ظافر الأزديِّ الخزرجيِّ (ت ٦١٣ هـ)، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، ١٩٧٠م.

–البصائر والذَّخائر لأبي حيَّان التَّوحيديِّ، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، ط ١، بيروت، ١٩٨٨م.

–تاريخ الإسلام للذَّهبيِّ، تحقيق بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت.

–تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق عمر بن غرامة العمرويّ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

-تاريخ الرُّسل والملوك للطَّبريِّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧م.
-التِّبيـان في شـرح الديوان المنسـوب إلى أبي البقاء العُكْـبَرِيِّ (ت ٦١٦ هـ)، وليس له، تحقيـق مصطفى السّقّا، وإبراهيم الأبياريّ، وعبد الحفيظ شلبيّ، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، ١٩٣٦م.
-تتمّة اليتيمة لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق عبّاس إقبال، مطبعة فردين، طهران، ١٣٥٣هـ.
-تجارب الأُمم وتَعَاقُب الهِمَم لابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ)، تحقيق أبي القاسم إمامي، دار سروش، طهران، ٢٠٠٠ م.
-التَّذْكِرة الحَمْدُونيَّة لابن حمدون، تحقيق إحسان عبَّاس وبكر عبّاس، دار صادر، ط ١، بيروت، ١٩٩٦م.
-التَّشبيهات لابن أَبي عَوْن، تحقيق محمَّد عبد المُعيد خان، كمبردج، ١٩٥٠م.
-التَّشبيهـات مِـن أشعـار أهل الأندلـس لمُحمَّد بْنِ الحَسَـنِ الكتَّـانيِّ (ت ٤٢٠ هـ)، تحقيق إحسـان عبَّاس، دار الثَّقافة، بيروت.
-التمثيل و المحاضرة لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق عبد الفتَّاح الحلو، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، ١٩٦١م.
- التَّوفيق للتَّلفيق لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م.
-ثمار القُلُوب في المضاف والمنسوب لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، ط١، دمشق، ١٩٩٤م.
-جذوة المقتبس في ذكْر ولاة الأندلس للحُميديِّ، الدَّار المصريَّة للتَّأْليف والنَّشر ١٩٦٦م.
-الجليس الصَّالح للمُعَافى بن زكريَّا النَّهْرَوَانيِّ (ت ٣٩٠ هـ)، تحقيق إحسان عبّاس، عالم الكتب، ط ١، بيروت، ١٩٩٣م.
-حياة الحيوان الكُبْرى للدَّميريِّ، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، ط ١، دمشق، ٢٠٠٥م.
-خاصّ الخاصّ لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت.
-الـدّرّ الفريد وبيـت القصيد لابن أَيْدَمـر المُسْتَعْصِمِيِّ، تحقيق كامل سُليمان الجبـوريّ، تقديم نوري حمّودي القيسيّ، دار الكتب العلميَّة، ط ١، بيروت، ٢٠١٥م.
- ديوان أبي تمَّام بشَرْحِ الخطيب التِّبْريزِيِّ، تحقيق محمَّد عبده عزَّام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م.
-ديوان الخالديَّيْنِ أبي بكرٍ محمَّد وأبي عثمان سعيد ابنَيْ هاشمٍ الخالديّ، تحقيق سامي الدّهّان، دار صادر، ط ٢، بيروت، ١٩٩٢م.
-ديوان ابن شُهيدٍ (ت ٣٩٩ هـ)، تحقيق يعقوب زكي، راجعه محمود عليّ مكّيّ، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.
-ديوان أَبي فراس الحمدانيِّ برواية ابن خالويه، تحقيق سامي الدّهّان، المعهد الإفرنسيّ بدمشق، بيروت، ١٩٤٤م.
-ديوان المعاني لأبي هلالٍ العسكريِّ، تحقيق النَّبويّ عبد الواحد شعلان، مؤسَّسة العلياء، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٨م.
-ديوان النَّاشئ الأكبر، تحقيق هلال ناجي، دار البشائر، ط ٢، دمشق، ٢٠١١م.
-الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسَّام، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت.
-زهر الآداب وثمر الألباب للحُصْرِيِّ القيروانيِّ، تحقيق محمَّد عليّ البجاويّ، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٦٩م.
-زهر الأكَم في الأمثال والحكم لليُوْسِيِّ، تحقيق محمّد حجّي، ومحمّد الأخضر، دار الثقافة، ط ١، الدّار البيضاء، ١٩٨١م.
-سرور النَّفْس بمدارك الحواسّ الخمس للتيفاشيِّ، تحقيق إحسان عبّاس، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشْر، ط ١، بيروت، ١٩٨٠م.
-سِير أعلام النُّبلاء للذَّهبيِّ، تحقيق ثُلَّة مِن الباحثين، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

-شرح شعر المتَنَبِّي لابن الإفليليّ، تحقيق محمّد عليان، مؤسّسة الرّسالة، ط ١، بيروت، ١٩٩٢ – ١٩٩٨م.
-الصُّبْح المُنبي عن حيثيَّة المتنبِّي ليوسف البديعيّ (ت ١٠٧٣ هـ)، تحقيق مصطفى السّقّا، ومحمّد شتا، وعبده عبده، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٤م.
-الكامل في التَّاريخ لابن الأثير، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت، ١٩٩٧م.
-اللّامع العزيزيّ لأبي العلاءِ المَعَرِّيِّ، تحقيق محمّد سعيد مولوي، مركز الملك فيصل، الرِّياض، ٢٠٠٨ – ٢٠١٤م.
-المُحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب للسَّرِيِّ الرَّفَّاءِ، تحقيق مصباح غلاونجيّ وماجد الذّهبيّ، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق ١٩٨٦م.
-المختار مِن شعر بشَّار للخالديَّيْنِ أبي بكرٍ محمَّد وأَبي عثمان سعيد ابنَيْ هاشمٍ الخالديِّ، تحقيق محمّد بدر الدِّين العلويّ، ط ١، دار صادر، بيروت.
-مرآة الزَّمان في تواريخ الأعيان لسبط بن الجوزيِّ (ت ٦٥٤ هـ)، تحقيق ثلَّة مِن الباحثين، دار الرِّسالة العالميَّة، ط ١، دمشق، ٢٠١٣م.
-مراتب النَّحْوِيِّيْنَ لأَبي الطَّيِّب اللُّغويِّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
-المُستَطْرف للأبشيهيِّ، تحقيق إبراهيم صالح، دار صادر، ط ١، بيروت، ١٩٩٩م.
-معجم الأدباء لياقوت الحَمَويِّ، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، ط ١، بيروت، ١٩٩٣م.
-المنتظم لابن الجوزيِّ، تحقيق محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلْميَّة، ط ١، بيروت، ١٩٩٢م.
-المُنْصف لا بن وكيع، تحقيق محمّد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.
-مَنْ غاب عنه المُطْرِب لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ، تحقيق النّبويّ عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجيّ، ط ١، القاهرة، ١٩٨٤م.
-الموازنة بين الطَّائيَّيْنِ للآمديّ، تحقيق السَّيِّد أحمد صقر، وعبد الله محارب، مكتبة الخانجيّ، ط ١، القاهرة، ١٩٩٤م.
-نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التَّنوخيِّ، تحقيق عبّود الشَّالجيّ، دار صادر، ط ٢، بيروت، ١٩٩٥م.
-نهاية الأرب في فنون الأدب للنُّويريِّ، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ١٩٢٣ – ١٩٥٥م.
-الوافي بالوَفَيَات لخليل بن أيبك الصَّفَدِيِّ، تحقيق ثُلَّة مِن الباحثين، جمعية المستشرقين الألمانيّة، بيروت، ١٩٦٢ – ١٩٨٣م.
-الوَسَاطة بين المتنبِّي وخصومه للقاضي الجرجانيِّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم وعليّ محمّد البجاويّ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، ١٩٦٦م.
-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان لا بن خَلِّكان، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.
-يتيمة الدَّهر في محاسن العصر لأَبي منصور الثَّعالبيِّ (ت ٤٢٩ هـ)، نُسختي المحقَّقة المُعَدَّة، للطَّبع.

نظرةٌ في كتاب:
«فِقْه اللُّغَةِ وسِرّ العَرَبِيَّةِ»

لأبي منصورٍ الثَّعالبيّ (ت٤٢٩هـ)

د. ليال سعيد أبو العز*

يسري حبُّ العربية في عروق أهلها وأبنائها وعلمائها، وكأنه نسغ الحياة الذي يضمن بقاءها وتطورها، فلا ينفكُّ يشحذ همم رجالاتها كي يُبحروا في لجج أسرارها، ويجنوا أينع قطوفها، ويكشفوا الحُجُب عن دُررها البلاغية والأسلوبية، ودقائقها النحوية والصرفية، ومزاياها التي ترقى بها على غيرها من اللغات، وخصائصها التي أهَّلتها أن تكون لسان الفصاحة والبيان، وأداة الفكر والتأليف. انكبَّ علماء العربية، وأئمتها، وأدباؤها، ولغويوها، منذ بدأ عهد التدوين والتأليف، على تأليف المؤلَّفات الأدبية والنقدية، والمعاجم، وكتب التراجم، كلٌّ منهم يسعى جهده من أجل خدمة هذه اللغة الشريفة، والإحاطة بعلومها المختلفة. لذا نبتغي في هذا المقام أن نتوقف عند أحد أشهر علماء العربية الذين أخلصوا الحب لها، والعمل في ميدانها، والتأليف في رحابها، ألا وهو أبو منصور الثَّعالبيّ النيسابوري، الذي قضى حياته، وصرف أيام عمره في طلب العلم والمعرفة، وتوثيق تلك المعارف في مؤلَّفات زادت على مئة كتاب ورسالة، فكيف لا نفي هذا الرجل الجليل حقَّه من الاطلاع على كتبه، والإضاءة عليها، وعلى الجهد الذي بذله في تحصيل مادتها، ونسخها وتدقيقها حتى وصلت إلينا تامة الفائدة، جليلة الغاية، غنية المتن، لطيفة الأسلوب، رشيقة العبارة،

اخترنا في هذه الوقفة مع أبي منصور الثَّعالبيّ الحديث عن كتابه: «فقه اللغة وسر العربية»، الذي يشفي ظمأ القارئ العربي بما يوفِّره من معارف في مجال الفقه، والبلاغة، والبنى النحوية والصرفية في اللغة العربية، والبداية بالتعريف بصاحب الكتاب وبمؤلَّفاته:

* عضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق– كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية– قسم اللغة العربية.

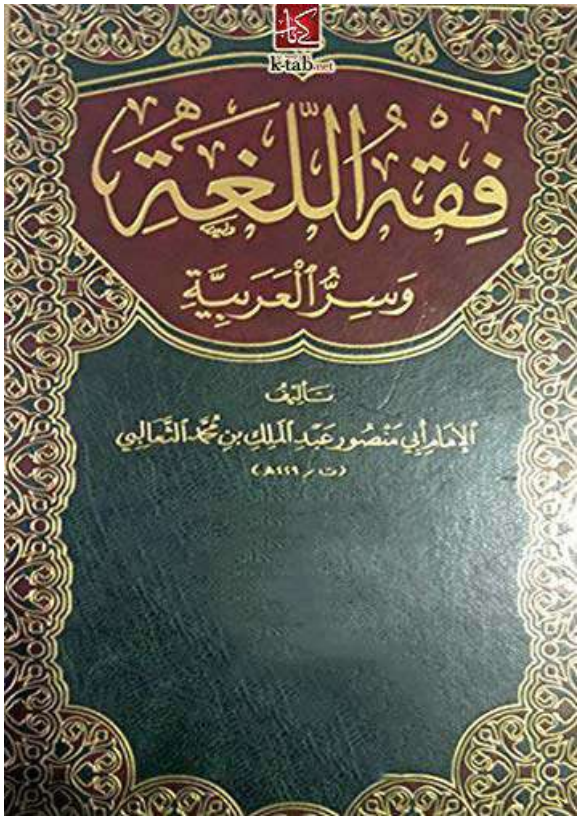

نبذةٌ عن المؤلِّف:

هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المُكنَّى بأبي منصور الثَّعالبيّ النَّيسابوريّ، نُسِبَ إلى الثعالب لأنه يعمل في خياطة جلودها، أو ربما لأنه كان فرَّاء، وهناك مَن رأى أن الثَّعالبيّ حين كان يؤدِّب الصبيان والفتية ويعلِّمهم، اتَّبع عادة المؤدِّبين الذين يقومون بمثل تلك الأعمال أثناء التدريس[١].

وكان الثَّعالبيّ مؤلِّفًا غزير التأليف، وشاعرًا صافي الديباجة، وناثرًا لطيف الصنعة والأسلوب، وحافظًا لأخبار العرب وأمثالها وأشعارها، وواسع المعرفة والاطلاع على علوم عصره ومؤلَّفات سابقيه ومعاصريه، وقد عرَّفه ابن خلَّكان نقلًا عن ابن بسَّام بأنه: «كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلِّفين في زمانه، وإمام المصنِّفين بحكم أقرانه، سار ذكره سَيرَ المَثَل، وضُرِبت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب؛ تواليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجامع من أن يستوفيها حدٌّ أو وصف، أو يُوفيها حقوقها نثر أو رصف»[٢].

وقال الباخرزي عنه: «هو جاحظ نيسابور، وزبدة الأحقاب والدهور، لم ترَ العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله، وكيف يُنكَر وهو المزن يُحمَد بكل لسان، وكيف يُستَر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان»[٣].

وقال عنه الحُصْرِيّ: «وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا، وهو فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده، وله مصنَّفات في العلم والأدب، تشهد له بأعلى الرُّتب»[٤].

وقد استقصى محقِّق كتاب «فقه اللغة وسر العربية» خالد فهمي كتبَ الثَّعالبيّ ورسائله، التي بلغ عددها مئة واثنين وثلاثين مؤلَّفًا، فأثبتها سواء ما كان منها محقَّقًا ومطبوعًا، أم ذاك الذي ما يزال مخطوطًا، وهي كما جاءت في مقدِّمة المحقِّق:

– أجناس التجنيس. – أحاسن كلام النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين وملوك الجاهلية وملوك الإسلام. – أحاسن المحاسن في المحاضرات. – الأحاسن من بدائع البلغاء. – أحسن ما سمعت. –

١– يُنظر: مقدمة كتاب: أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ص: د.

٢– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٣، ص: ١٧٨.

٣– أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر ، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ، ص: ١٨٣.

٤– أبو إسحاق الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٣، ج١، ص: ١٢٧.

آداب الملوك. – الأشياء والنظائر في القرآن الكريم[٥]. – الأصول في الفصول. – أفراد المعاني. – الاقتباس من القرآن الكريم. – الأمثال. – الإنجاز بالمعروف وعمدة الملهوف. – أنس الوحيد. – أنس المسافر. – الأنوار البهية في تعريف مقامات فصحاء البرية. – الأنوار في آيات النبي صلى الله عليه وسلم. – الأنيس في غُرر التجنيس. – البراعة في التكلم على الصناعة. – برد الأكباد في الأعداد. – البرق الوميض على الفيض المسمَّى بالنقيض. – بهجة المشتاق. – تتمة يتيمة الدهر. – تحسين القبيح وتقبيح الحسن. – تحفة الأرواح وفوائد السرور والأفراح. – تحفة الظرفاء وفاكهة اللطفاء. – تحفة الوزراء. – ترجمة الكاتب في آداب الصاحب. – التشبيهات. – التفاحة. – تفسير القرآن الكريم. – تفضل المقتدرين وتنصل المعتذرين. – تفضيل الشعر. – التمثيل والمحاضرة. – التوفيق للتلفيق. – الثلج والمطر. – ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. – جوامع الكلم. – جواهر الحكم. – حجة العقل. – حشو اللوزينج. – حل العقد. – خاص الخاص. – خصائص الفضائل. – خصائص البلدان. – خصائص اللغة. – الخوارزمشاهيات. – درر الحكم. – ديوان شعر له. – ديوان علي بن الحسن اللّحّام الحراني. – زاد سفر الملوك. – سجع المنثور. – سحر البلاغة. – سحر البيان. – سراج الملوك. – سر الأدب في مجاري كلام العرب، وهو فقه اللغة نفسه. – سر الحقيقة. – سر الصناعة. – سر الوزارة. – السمن. – السياسة. – سيرة الملوك. – شعار الندماء. – الشكوى والعتاب وما وقع بالخلاف والأصحاب. – شمس العرب في استعمال العرب. – شهادة القلوب. – صنعة الشعر والنثر. – طبقات الملوك. – طرائف الطرف. – الطُّرف من شعر المتنبي. – الطيب. – العلا. – العشرة المختارة. – غرر المضاحك. – عنوان المعارف. – عيون النوادر. – غرر أخبار ملوك الفرس. – غرر البلاغة وطرف البراعة. – غرر البلاغة وطرف الفصاحة. – غرر المضاحك[٦]. – كتاب الغلمان[٧]. – الفصول الفارسية. – فقه اللغة وسر العربية. – قراضة الذهب ومعدن الأدب. – كتاب اللطف واللطائف. – الكشف والبيان في التفسير، ولعلّه تفسير الثّعلبيّ (ت ٤٢٧ هـ). – الكناية والتعريض. – لباب الأحاسن. – لطائف الصحابة والتابعين. – لطائف المعارف. – اللطائف والطرائف في مدح الأشياء وأضدادها. – اللآلئ والدرر. – اللُّمع الغضَّة. – مؤنس الوحيد ونزهة المستفيد من المحاضرات. – ما جرى بين المتنبي وسيف الدولة. – المبهج. – المتشابه. – محاسن الأدب. – المدبج مما للناس فيه أرب. – مدح الشيءِ وذمه. – المديح. – مرآة المروآت وأعمال الحسنات. – المشوق. – معرفة الرُّتب فيما ورد من كلام العرب. – المضاف في المنثور. – مفتاح الفصاحة. – المقصور والممدود. – مكارم الأخلاق. – المِلَح والطُّرف. – منادمة الملوك. – المنتخب في محاسن أشعار العرب. – المنتخل. – من غاب عنه المؤنس. – من غاب عنه المطرب. – مواسم العمر. – المهذب من أخبار ديوان أبي الطيب المتنبي وأحواله وسيرته وما جرى بينه وبين الملوك والشعراء. – نتائج المذاكرة. – نثر النظم وحل العقد. – نزهة الألباب وعمدة الكتاب. – نسيم الأنس. – نسيم السحر. – نسيم الصبا. – النوادر والبوادر. – النهاية في الكناية. – نهاية الكناية. – النهية في الطرد والعنية. – الورد. – يتيمة الدهر. – يواقيت المواقيت في مدح الشيء وذمه.

٥– شكَّ المحقق في نسبة هذا الكتاب إلى الثَّعالبيّ، ورأى أن الأصح نسبته إلى ابن الجوزي، لأنه يبدو مختصرًا لنزهة الأعين.

٦– لعله كتاب: عود المضاحك نفسه.

٧– رأى المحقق أنه ليس للثعالبي، وإنما للأهوازي.

كتاب «فقه اللُّغة وسرّ العربية»[٨]:

يُعدُّ هذا الكتاب من أشهر كتب الثَّعالبيّ، وأثراها فائدة، وأغناها معرفة، وأقربها إلى التأليف المعجمي في الموضوعات، فـ«هذا الكتاب يحمل ثروة لفظية ضخمة، تضرب في جوانب شتى، تحت تقسيمات متعددة، ولذلك نحن ندرجه في قائمة المعاجم الموضوعية»[٩].

حاول الثَّعالبيّ في القسم الأول من كتابه أن يستقصيَ كل ما جاء في كلام العرب من أقوال وتسميات وأوصاف لمختلف مجالات الحياة، ما قيل عن الناس من رجال ونساء وأطفال، وعن الكائنات الحية المختلفة من خيل وإبل ودواب وماعز وأغنام وحشرات وطيور ووحوش، وعن النباتات والأشجار المعروفة في البيئة العربية، والصفات والنعوت المختلفة، والاستعارات، والألوان، والأحجام، والأعمار، والكليات، وظواهر الطبيعة، وغير ذلك من الموضوعات التي عرفتها البيئة العربية، وكان لها نصيب من وصف أو اسم أو لقب أو تشبيه في اللغة العربية. ثم أقام القسم الثاني من الكتاب على سبيل استظهار بعض أسرار العربية ولطائفها في أساليب التعبير، التي يكون فيها خروج عما هو معهود من أساليب القول، وذلك باستعمال المشتقات لغير ما وُضِعت لأجله، أو إحلال إحداها محل غيرها، وكذلك التجوز في علاقة الأفعال بالأسماء من حيث الإفراد والتثنية والجمع، وعلاقة الأسماء بالصفات، وغير ذلك من الأساليب البلاغية التي تقتضي مخاطبًا لمَّاحًا يفكُّ شيفرة الاستعارات والكنايات والمجازات، وغير ذلك من الأساليب الموارية.

ألَّفَ الثَّعالبيّ هذا الكتاب إخلاصًا للعربية وخدمة لها، وتقربًا من الله ورسوله، فاعترف أن «مَن أحبَّ العربية عُنِيَ بها وثابرَ عليها، وصرفَ همَّتَه إليها... إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقُّه في الدِّين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب- كالينبوع للماء، والزند للنار»[١٠].

وقد ألَّفَ هذا الكتاب استجابة للأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي (٤٣٦هـ)، فقد ذكر في مقدِّمة كتابه تفاصيل لقائه الأمير الميكالي، والتماسه تأليف هذا الكتاب منه، فقال: «وعدنا للعادة عند الالتقاء في تجاذب أهداب الآداب، وفَتْقِ نوافج الأخبار والأشعار، أفضت بنا شجون الحديث إلى هذا الكتاب المذكور، وكونه شريف الموضوع أنيق المسموع،... فقال لي: ... إنك إن أخذت فيه أجدته وأحسنته، وليس له إلا أنت، فقلت له: سمعًا سمعًا، ولم أستجز لأمره دفعًا، بل تلقيته باليدين، ووضعته على الرأس والعينين...»[١١].

لكن هناك مَن ادَّعى أن هذا الكتاب كتابان، أحدهما كتاب فقه اللغة، والآخر كتاب سر العربية، إلا أن الحقيقة أنه كتاب واحد بدليل قول الثَّعالبيّ في مقدِّمته: «وقد اخترت لترجمته وما أجعله عنوان معرفته -ما اختار- أدام الله توفيقه- من: «فقه اللغة» وشفعته: «بسر العربية»، ليكون اسمًا يوافق مُسماه، ولفظًا يُطابق معناه»[١٢]، ما يُثبت أنه كتاب واحد على الرغم من اختلاف الآراء حول ذلك.

أما الآن فلا بدَّ من سرد الأبواب التي تضمَّنها الكتاب على النحو الآتي:

الباب الأول: في الكليَّات، وفيه أربعة عشر فصلًا.

الباب الثاني: في التنزيل والتمثيل، وفيه خمسة فصول.

٨- أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: خالد فهمي، تصدير: رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٨م.

٩- نفسه، ج:١، ص: ٧.

١٠- أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: خالد فهمي، ج: ١، ص: ٣.

١١- نفسه، ص: ١٢- ١٣.

١٢- نفسه، ج:١، ص: ١٨.

الباب الثالث: في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الرابع: في أوائل الأشياء وأواخرها، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الخامس: في صغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها، وفيه عشرة فصول.

الباب السادس: في الطول والقصر، وفيه أربعة فصول.

الباب السابع: في اليبس واللين والرطوبة ، وفيه أربعة فصول.

الباب الثامن: في الشدة والشديد من الأشياء، وفيه أربعة فصول.

الباب التاسع: في الكثرة والقلة، وفيه ثمانية فصول.

الباب العاشر: في سائر الأوصاف والأحوال المتضادة، وفيه ثمانية وثلاثون فصلًا.

الباب الحادي عشر: في الملء والامتلاء والصفورة والخلاء، وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني عشر: في الشيء بين الشيئين، وفيه ستة فصول.

الباب الثالث عشر: في ضروب الألوان والآثار، وفيه تسعة وعشرون فصلًا.

الباب الرابع عشر: في أسنان الناس والدَّوابّ وتنقل الحالات بها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب الخامس عشر: في الأصول والأعضاء والرؤوس والأطراف وأوصافها وما يتولّد منها ويتّصل بها ويُذكَر منها، وفيه خمسة وستون فصلًا.

الباب السادس عشر: في الأمراض والأدواء وما يتلوها وما يتعلَّق بها، وفيه أربعة وعشرون فصلًا.

الباب السابع عشر: في ضروب الحيوانات وأوصافها، وفيه تسعة وثلاثون فصلًا.

الباب الثامن عشر: في الأحوال والأفعال الحيوانية، وفيه ثمانية وعشرون فصلًا.

الباب التاسع عشر: في الحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب والرمي، وفيه أربعون فصلًا.

الباب العشرون: في الأصوات وحكاياتها، وفيه ثلاثة وعشرون فصلًا.

الباب الحادي والعشرون: في الجماعات، وفيه أربعة عشر فصلًا.

الباب الثاني والعشرون: في القَطع والانقطاع والقِطع وما يقاربها من الشق والكسر وما يتصل بهما، وفيه سبعة وعشرون فصلًا.

الباب الثالث والعشرون: في اللباس وما يتصل به والسلاح وما ينضاف إليه وسائر الآلات وما يأخذ مأخذها، وفيه تسعة وأربعون فصلًا.

الباب الرابع والعشرون: في الأطعمة والأشربة وما يناسبها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب الخامس والعشرون: في الآثار العلوية وما يتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها، وفيه ثمانية عشر فصلًا.

الباب السادس والعشرون: في الأرضين والرجال والجبال والأماكن والمواضع وما يتصل بها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب السابع والعشرون: في الحجارة، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الثامن والعشرون: في النَّبت والزَّرع والنخل، وفيه سبعة فصول.

الباب التاسع والعشرون: فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية، وفيه خمسة فصول.

الباب الثلاثون: في فنون مختلفة الترتيب من الأسماء والأفعال والأوصاف، وفيه تسعة وعشرون فصلًا.

ثم الجزء الثاني «سرُّ العربية في مجاري كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن على أكثرها»، ويضمُّ تسعة وتسعين فصلا[١٣].

مخطوطات الكتاب[١٤]:

١- مخطوطة مكتبة تشستربتي: ومنها نسخة مصوَّرة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقع في ٥٨ ورقة، مكتوبة بخط نسخيّ جميل، كُتِبت سنة ٦١٢هـ بخط محمد بن أحمد بن علي بن أسعد بن قاسم بن يحيى، وتشتمل على القسم الأول من الكتاب فقط.

٢- مخطوطة صنعاء- مكتبة الجامع الكبير العربية، في اليمن الشمالي، منها نسخة مصوَّرة بمعهد جامعة الدول العربية للمخطوطات، تقع في ٩٣ ورقة، مكتوبة بخط نسخيّ مقروء، بخط محمد بن موسى بن محمد بن عيسى الشافعي سنة ٧٢٦هـ، وتضمُّ القسم الأول فقط.

٣- مخطوطة طلعت، مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية في القاهرة، تقع في ١٧٤ صفحة، كُتِبت سنة ٩٧٨هـ بخط ابن المبلط الشافعي، وتضمُّ القسم الأول فقط.

٤- مخطوطة التيمورية، في دار الكتب المصرية، في القاهرة، كُتِبت سنة ١٢٤٣هـ، بخط ابن المرحوم كاظم حسن البوانانى، تضمُّ القسمين معًا.

٥- مخطوطة كتاب خصائص اللغة للثعالبي، وهو مختصر لفقه اللغة، تقع في ٣١ ورقة.

٦- مطبوعة الخانجي التي تعود إلى سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م، تقع في ٤٠٦صفحات.

طبعات الكتاب:

١- رشيد الدحداح- باريس- ١٨٦١.

٢- لويس شيخو اليسوعي- بيروت- ١٨٨٥.

٣- مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٩٠٧.

٤- مصطفى السقا، وإبراهيم الأَبياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة- ١٩٣٨، ثم ١٩٥٢.

٥- سليم سالم البواب- بيروت- ١٩٨٩.

٦- جمال طلبة- بيروت- ١٩٩٤.

إن هذه الطبعات على كثرتها تفتقر إلى أصول التحقيق العلمي، ويكثر فيها الخلط، والأوهام، وأخطاء الضبط، والتحريف والتصحيف، وعدم الدقة في نسبة الأشعار إلى أصحابها، وعدم الدقة في تخريج الشواهد والأشعار والأمثال.

٧- خالد فهمي- مكتبة الخانجي، ١٩٩٨، وهي الطبعة الأحدث والأجود، والأكثر التزامًا بأصول التحقيق، من دقةٍ في ضبط المفردات والتراكيب، وتخريجٍ للشواهد، ونسبةٍ للأشعار إلى أصحابها وإثباتها كاملة، ومقارنة ما جاء في كتاب الثَّعالبيّ بما ورد في أمهات الكتب والمعاجم، إضافة إلى أنه أثبت في ختام الكتاب عدة فهارس تُعين القارئ في الرجوع إلى محتويات الكتاب، مثل فهرس القرآن الكريم، وفهرس الأحاديث النبوية الشريفة والآثار المختلفة، وفهرس الأمثال وأقوال العرب، وفهرس القوافي، وفهرس الأعلام، وفهرس الطوائف، وفهرس الأماكن، وفهرس الكتب الواردة بالمتن، وفهرس الكتاب، وفهرس مصادر الدراسة والتحقيق. لذلك سنعتمد على هذه الطبعة في إضاءتنا على هذا الكتاب في هذا المقال.

منهج الثَّعالبيّ في تصنيف الكتاب، وملاحظ عامة عليه:

جعل الثَّعالبيّ كتابه في قسمين:

الأول هو فقه اللغة، الذي ينقسم إلى ثلاثين بابًا، تنقسم إلى قرابة ستمئة فصل، وهو أشبه ما يكون بمعجم موضوعات مختصر.

١٣- يمتد هذا القسم من الكتاب من صفحة ٥٥٧:- إلى ٦٧٨.

١٤- يُنظر: أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، مقدمة المحقِّق خالد فهمي، ص: ٩٥- ٩٦.

والثاني هو سر العربية، الذي ينقسم إلى تسعة وتسعين فصلًا، يستعرض فيه الخصائص الأسلوبية للعربية وطرائق التعبير، وفي هذا الجزء يطالع القارئ الكثير من مسائل فقه اللغة، من اشتراك وترادف وتضاد ونحت.

– نجده يقف موقفًا محايدًا من نحاة البصرة والكوفة، إذ يأخذ من المدرستين.

– اعتمد الثَّعالبيّ في جمع مادة كتابه: «على الوِجَادة والنقل والانتقاء من الكتب، وليس على السماع والرواية الشفوية»[١٥]، وإن كان أحيانًا يروي عن طريق السماع بدليل استخدامه عبارات مثل:

«سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول، وأنشدني أبو بكر»، لكن الأكثر شيوعًا وتكرارًا استخدامه لعبارات مثل: «وجدته، وعلقته، وقال فلان، وعن الأئمة...»[١٦].

إن الراويَ المباشر الذي روى عنه الثَّعالبيّ هو أبو بكر الخوارزمي وحده، أما الرواة الآخرون فكثر، وصل عددهم إلى خمسة وستين رجلًا من أهل اللغة والأدب، من أبرزهم: عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، والمُفضَّل الضَّبّيّ، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسِيبويه، والكسائيّ، والفرَّاء، وأبو عُبيدة، والأصمعي، وأبو عمرو الشيبانيّ، وأبو زيد الأنصاريّ، وابن الأعرابيّ، وابن السِّكِّيت، والجاحظ، وابن قُتيبة، والمُبرِّد، وثعلب، وابن دُريد، وحمزة الأصفهانيّ، والأزهريّ، وابن خالويه، وأبو عليّ الفارسيّ، والصاحب بن عبَّاد، وابن جنِّيّ، والجوهريّ، وابن فارس، وغيرهم[١٧].

– يُحسَب للثَّعالبيّ أنه ضبط الكلمات ضبطًا دقيقًا، ولا سيما في الجزء الأول، خشية أن يحدث تصحيف أو تحريف في نطقها أو نسخها، حيث نجده يذكر الحرف وحركته كتابة، وأحيانا يستخدم المقاييس الصرفية لضمان ضبط الكلمة، وفيما يخصُّ الألف يحدِّد إن كانت مقصورة أو ممدودة كتابة.

– ذكر أحيانًا أسماء الأئمة الذين يروي عنهم، مثل قوله في الباب الأول عن الكليَّات: وهي ما أطلق أئمة اللغة في تفسيره لفظة: «كل»: «عن الليث، عن الخليل، عن أبي سعيد الضرير، وابن السِّكِّيت، وابن الأعرابي، وغيرهم من الأئمة»[١٨].

وفي أحيان أخرى لم يحدِّد مَن هم الأئمة الذين روى عنهم، كما في قوله: «يناسب موضوع الباب في الكليات:

عن الأئمة: الجمُّ: الكثير من كل شيء. العِلق: النفيس من كل شيء. الصريح: الخالص من كل شيء. الرَّحب: الواسع من كل شيء...»[١٩].

– استشهد الثَّعالبيّ على ما أورد من مفردات وأساليب بشواهد من القرآن الكريم، ومن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أشعار العرب، ومن أمثالها، وأخبارها، يذكرها تارة كاملة، مثل قوله: «الحافرة: أول الأمر، وهي من قول الله عز وجل: ﴿**أإنا لمردودون في الحافرة**﴾ [النازعات: ٧٩ / ١٠]، أي في: أول أمرنا، ويقال في المثل: «النقد عند الحافرة»، أي: عند أول كلمة»[٢٠].

وتارة أخرى يكتفي بالإشارة إليها، كقوله: قد نطق به القرآن، أو هو في القرآن، أو قد نطقت به السنة.

– وفيما يخصُّ الأبيات الشعرية، تارة ينسبها إلى أصحابها، وتارة أخرى يُغفل نسبتها، لكن يُحسَب له أنه احتجَّ بأشعار الجاهليين والإسلاميين والأمويين والمُحدَثين والمولدين، ولا سيما في مسائل البلاغة، كما احتجَّ بالأحاديث النبوية الشريفة على مسائل النحو مخالفًا بذلك النحاة القدماء وعلماء اللغة.

١٥– أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، ج: ١، ص: ٣٤.
١٦– يُنظر: المصدر نفسه، ج: ١، ص: ٣٤.
١٧– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ٣٥ وما بعد.
١٨– نفسه، ج: ١، ص: ٢٥.
١٩– نفسه، ج: ١، ص: ٣٦.
٢٠– نفسه، ج: ١، ص: ٤٩.

نذكر مثالًا على ذلك قوله: «كل مدينة جامعة فهي: فُسطاط، ومنه قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص، ومنه الحديث: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفُسطاط» بكسر الفاء وضمها»[٢١].

ومنها أيضًا: «كل مقام قام به الإنسان لأمر ما فهو: مَوطِن كقولك: إذا أتيت مكة فوقفت في تلك المواطن فادعُ الله لي. ويقال: الموطِن: المشهد من مشاهد الحرب، ومنه قول طرفة بن العبد:

على موطنٍ يخشى الفتى عندَه الرَّدى
متى تعترِكْ فيه الفرائصُ تَرْعَدِ»[٢٢].

– اتَّبع الثَّعالبيّ أسلوب التمثيل في وصف الأشياء وتحديد معانيها، وذلك من خلال تمثيل أحوال الحيوانات بأحوال البشر ومشابهتها لها، وبالعكس كذلك، مثل قوله في باب التنزيل والتمثيل: «أرداف الملوك في الجاهلية: بمنزلة الوزراء في الإسلام. الكهل من الرجال: بمنزلة النَّصَف من النساء. القارح من الخيل: بمنزلة البازل من الإبل. الطِّرف من الخيل: بمنزلة الكريم من الرجال»[٢٣].

وكقوله: «الكَرِش من الدابة: كالمعدة من الإنسان. والحوصلة من الطائر»[٢٤].

و«البَكْر: بمنزلة الفتى، والقَلوص: بمنزلة الجارية، والجمل: بمنزلة الرجل، والناقة: بمنزلة المرأة، والبعير: بمنزلة الإنسان»[٢٥].

– كما اعتمد في تحديد دلالة الألفاظ على ذكر المتضادات من أجل تقريب المعنى وتحديده بدقة، كقوله: «اللَّفْح من الحرّ: كالنَّفْح من البرد»[٢٦]، وكقوله: «الدَّرَج إلى فوق: كالدَّرْك إلى أسفل؛ ومنه قيل: إن الجنة درجات والنار دركات»[٢٧].

وقوله: «الهالة للقمر: كالدارة للشمس»[٢٨].

– من لطيف أسلوب الثَّعالبيّ أيضًا أنه استقصى كل التراكيب التي تداولتها العرب في كلامها في معنى من المعاني على تباعدها واختلاف دلالاتها، مثل قوله في باب الكليات: «كل شيء يثور للضرر فقد: هاج، كما يقال: قد هاج الفحل، وهاج به الدم، وهاجت الفتنة، وهاجت الحرب، وهاج الشر بين القوم، وهاجت الرياح الهُوج»[٢٩].

– ودأب على بيان مختلف أسماء الأشياء باختلاف أحوالها، على سبيل الاستقصاء والتفصيل، وهو جهد جبَّار يحسب له، مثل قوله: «لا يقال لماء الفم رُضاب: إلا ما دام في الفم، فإذا فارقه فهو بِصاق»[٣٠].

وقوله: «هي طفلة: ما دامت صغيرة، ثم وليدة: إذا تحركت، ثم كاعب: إذا كعب ثديها، ثم ناهد: إذا زاد، ثم مُعصِر: إذا أدركت، ثم عَانِس: إذا ارتفعت عن حدِّ الإعصار، ثم خَوْدٌ: إذا توسَّطت الشباب، ثم مُسْلِف: إذا جاوزت الأربعين، ثم نَصَفٌ: إذا كانت بين الشباب والتعجيز، ثم شَهْلَةٌ كَهْلَةٌ: إذا وجدت مس الكِبر وفيها بقية وجَلَد، ثم شَهْبَرةٌ: إذا عجزت وفيها تماسك، ثم حَيْزَبُون: إذا صارت عالية السن ناقصة القوة، ثم قَلْعَم ولِطْلِط: إذا انحنى قدُّها وسقطت أسنانها»[٣١].

وذكر في فصل آخر عن ترتيب حسن المرأة أنها: «إذا كانت لها مسحة من جمال فهي: وضيئة وجميلة. فإذا أشبه بعضها بعضًا في الحسن فهي: حُسَّانة. فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: غانية. فإذا كانت لا

٢١– نفسه، ج: ١، ص: ٢٨.
٢٢– نفسه، ج: ١، ص: ٢٨– ٢٩.
٢٣– نفسه، ج: ١، ص: ٣٧– ٣٨.
٢٤– نفسه، ج: ١، ص: ٣٨– ٣٩.
٢٥– نفسه، ج: ١، ص: ٤١.
٢٦– نفسه، ج: ١، ص: ٤٢.
٢٧– نفسه، ج: ١، ص: ٤٣.
٢٨– نفسه، ج: ١، ص: ٤٣.
٢٩– نفسه، ج: ١، ص: ٣٣.
٣٠– نفسه، ج: ١، ص: ٤٦.
٣١– نفسه، ج: ١، ص: ١٤٠.

تبالي ألَّا تلبس ثوبًا حسنًا ولا تتقلَّد قلادة فاخرة فهي: مِعطَال. فإذا كان حسنها ثابتًا قد وُسِم فهي: وسيمة. فإذا قُسِم لها حظ وافر من الحسن فهي: قَسِيمة. فإذا كان النظر إليها يَسُرُّ الرَّوْعَ فهي: رائعة. فإذا غلبت النساء بحسنها فهي: باهرة»[٣٢].

– كثيرًا ما كان يناقش ما يرويه من أقوال بالاحتكام إلى المنطق وإثبات الحُجَّة، مثل ردِّه على تفريق ابن قُتيبة بين الفقير والمسكين، إذ رأى الأخير أن الفقير: الذي له بُلغة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له، واستشهد ببيت الراعي:

أما الفقيرُ الذي كانتْ حَلوبتُهُ
وَفْقَ العيال فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ

فقال الثَّعالبيّ: «وقد غَلط؛ لأن المسكين الذي له البُلْغة من العيش، أَمَا سمع قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر**﴾ [سورة الكهف١٨ / ٧٩]، فأثبت له سفينة، وقول الله عزَّ وجلَّ أولى ما يُحتجُّ به. وقد يجوز أن يكون الفقير مثل المسكين أو دونه في القدرة على البُلغة»[٣٣].

– كما أكثرَ من عدد الفصول، على الرغم من أنها متشابهة متماثلة متقاربة الموضوع، وقد وضع عنوانات لهذه الفصول تعبِّر عن تبعية كل فصل لما قبله، مثل قوله: فصل يناسبه (أي يناسب الفصل الذي قبله)، يليق به، يقاربه، أراه ينخرط في سلكه، مثله، أشفى منه في ترتيب أحواله. وهذا يعني أنه كان بالإمكان ضمّ تلك الفصول بعضها إلى بعض.

– قدّم الثَّعالبيّ في بعض المواضع رأيه الخاص الذي يؤيِّد فيه أو يخالف الخبر الذي يرويه، مثلما نجد ذلك حين تحدَّث عن النكاح والتزاوج بين الإنس والجن، فقال: «وهو على صدده من الأئمة يجري مجرى خرافات العرب»، ثم في ختام الخبر قال: «وأنا بريء إليك من عهدة هذا الكلام والسلام»[٣٤].

– اتكأ على استخدام أسلوب القصر في تحديد دلالة الشيء لمناسبته لهذا المقام، كقوله: «لا يقال للمرأة ظعينة: إلا ما دامت راكبة في الهَودَج»[٣٥].

وقوله: «لا يقال للمجلس النادي: إلا إذا كان فيه أهله. لا يقال للريح بَليل: إلا إذا كانت باردة ومعها ندى. لا يقال للمرأة عاتق: إلا ما دامت في بيت أبويها»[٣٦].

– خصَّصَ حيزًا لذكر الاستعارات المتداولة حول معنى ما، نذكر مثالًا على ذلك ما أورده من استعارات خاصة بالألوان، إذ قال: «جيش أخضر. موت أحمر. نعمة بيضاء. يوم أسود. عدو أزرق»[٣٧]، وهي استعارات لطيفة وموحية، لكنه لم يشرح لنا لماذا خُصَّ كل شيء مما سبق بلون معين دون غيره، وما مناسبة إطلاق تلك الاستعارة.

– نجد في هذا الكتاب مراعاة وذكرًا للهجات العرب، وذكرًا للمفردات المُعرّبة بحكم اختلاط العرب بالأمم الأخرى والتأثر بلغاتها، ولا سيما الفارسية.

– تجدر الإشارة في ختام هذه الملحوظات إلى أن للكتاب أهمية كبيرة، إذ أسهمت المادة اللغوية والبلاغية التي وردت فيه في مادة بعض المعاجم، وكتب شرح الحديث، وبعض كتب اللغة، وبعض كتب الأدب، التي أُلِّفت بعده، نذكر منها:

– لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزَّبيديّ، والتكملة والذيل والصلة للزَّبيديّ.

– وشرح كفاية المُتحفِّظ لأبي الطيب الفاسي، وغاية الإحسان في خلق الإنسان للسيوطي، وحلية

٣٢– نفسه، ج: ١، ص: ٩٠.
٣٣– نفسه، ج: ١، ص: ٩٥– ٩٦.
٣٤– نفسه، ج: ١، ص: ١١١.
٣٥– نفسه، ج: ١، ص: ٤٧.
٣٦– نفسه، ج: ١، ص: ٤٨.
٣٧– نفسه، ج: ١، ص: ١٢٨.

الفرسان وشعار الشُّجعان لابن هُذيل الأندلسي. وشرح موطئة الفصيح على موطأة الفصيح لأبي الطيب الفاسي، والمُهذَّب فيما وقع في القرآن من المُعرَّب للسيوطي، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي المصري، والمُزهِر في علوم اللُّغة للسيوطي، وبُغية الرائد لما تضمَّنه حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض، وتخريج الدلالات السمعية للتلمساني، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والمصون في سر الهوى المكنون الحُصْريّ القيرواني.

– تطرَّق في القسم الثاني من الكتاب إلى مسائل متنوعة، منها التقديم والتأخير، والإضافة، والكناية، والاختصاص، والأغراض البلاغية، والتذكير والتأنيث، وما للمشتقات من أحكام في نيابة بعضها مقام بعض، وأحكام الإفراد والتثنية والجمع، والنفي والإثبات، والاختصار والحذف والإضمار والإطناب، والزوائد، والأَلِفَات وأحكامها، ومعاني أحرف الزيادة مثل: الباء والتاء والسين والفاء والكاف واللام والميم والنون والهاء والواو، ومعاني حروف المعنى ووقوع بعضها مقام بعض، والمجاز، والوصف، وأسماء أبناء العرب الشنيعة، وأبنية الأفعال، واختلاف معاني الكلمات باختلاف أبنيتها، والتشبيه بغير أداة تشبيه، وتقارب الألفاظ واختلاف معانيها، والإبدال، والقلب، والإتباع، والاشتقاق، والتكرير والإعادة، وخصائص كلام العرب، والجمع والتثنية ليس لهما مفرد من لفظهما، وصيغة أفعل لغير التفضيل، والنحت، والتأكيد، والتصغير، والاستعارة، واستعارات القرآن، والتجنيس، والطباق، والالتفات، والحشو.

– وقد اعتمد في القسم الثاني على استقصاء الأساليب البلاغية، والنحوية، والصرفية، مما جاء في القرآن الكريم بالدرجة الأولى، ثم شفع ذلك الاستخدام بما جاء منها في الأحاديث النبوية الشريفة، وفي الأمثال، وأشعار العرب.

يمكننا أن ننتقي مختارات من الأساليب العربية التي ذكرها الثَّعالبيّ في هذا القسم، تمثِّل إحاطته بفنون القول العربي ومكامن بلاغته، وبراعته وذائقته الرفيعة في الاختيار والتناول، نذكر منها:

– فصل في الاختصاص بعد العموم: «العرب تفعل ذلك، فتذكر الشيء على العموم ثم تخصُّ منه الأفضل فالأفضل، فتقول: جاء القوم والرئيس والقاضي. وفي القرآن: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ [سورة البقرة ٢ / ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿**فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورُمَّانٌ**﴾ [سورة الرحمن ٥٥ / ٦٨]، وإنما أفرد الله الصلاة الوسطى من الصلاة وهي داخلة في جملتها، وأفرد التَّمر والرُّمَّان من جملة الفاكهة وهما منها للاختصاص والتفضيل»[٣٨].

– فصل في المفعول يأتي بلفظ الفاعل: «تقول العرب: سرٌّ كاتم؛ أي مكتوم، ومكان عامر؛ أي معمور. وفي القرآن: ﴿**لا عاصمَ اليوم من أمر الله**﴾ [سورة هود ١١ / ٤٣]؛ أي: لا معصوم»[٣٩].

– فصل في إقامة وصف الشيء مُقام اسمه: «كما قال الله عز وجل: ﴿**وَحَمَلناهُ على ذاتِ أَلواح وَدُسُر**﴾[سورة القمر ٥٤ / ١٣]؛ يعني السفينة، فوضع صفتها موضع تسميتها. وقال – تعالى– : ﴿**إذ عُرِضَ عَلَيه بالعشيّ الصَّافِناتُ الْجِيَادُ**﴾ [سورة ص ٣٨ / ٣١]؛ يعني الخيل، وقال بعض المتقدّمين:

سألتْ قُتَيبَةُ عن أبيها صحبَه

في الرُّوع هل ركب الأغرَّ الأشقرا

٣٨– المصدر نفسه، ج: ٢، ص: ٥٦٤.

٣٩– نفسه، ج: ٢، ص: ٥٧٤.

يعني: هل قُتلَ. والأغر الأشقر: وصف الدم فأقامه مُقام اسمه، وقال بعض المُحدَثين:

شِمْتُ برقَ الوزير فانهلّ حتى
لم أجـد مهـربًا إلى الإعـدام
فكـأني وقـد تقاصـر باعـي
خابطٌ في عُباب أخضر طامي

يعني: البحر. وقال الحجَّاجُ لابن القبعثرى: (لأحملَنَّكَ على الأدهم)، ويعني: القَيد، فتجاهل عليه، وقال: مثلُ الأمير يَحْمِلُ على الأدهم والأشهب»[٤٠].

–فصل في تسمية العرب أبناءها بالشنيع من الأسماء: «هي من سُنن العرب إذ تسمِّي أبناءها بحجر، وكلب، ونمر، وذئب، وأسد، وما أشبهها. وكان بعضهم إذا وُلِد لأحدهم ولد سمَّاه بما يراه ويسمعه مما يتفاءل به؛ فإن رأى حجرًا أو سمعه تأوَّل فيه الشدة والصلابة والصبر والبقاء. وإن رأى كلبًا تأوَّل فيه الحراسة والألفة وبُعْدَ الصوت. وإن رأى نمرًا تأوَّل فيه المَنَعَة والتيه والشكاسة. وإن رأى ذئبًا تأوَّل فيه المهابة والقدرة والحشمة»[٤١].

– فصل في التشبيه بغير أداة التشبيه: «وهذه طريقة أنيقة غلب عليها المُحدَثون المتقدِّمين، فأحسنوا وطرُفوا ولطفوا، وأرى أبا نُوَاس السابق إليها في قوله:

تبكي فتُلقي الدُّرَّ من نرجسٍ
وتَلْطِمُ الورد بعُنَّابِ

فشبَّه الدمع بالدُّرِّ، والعين بالنرجس، والخد بالورد، والأنامل بالعنَّاب، من غير أن يذكر الدمع والعين والخد والأنامل، ومن غير استعانة بأداة من أدوات التشبيه وهي: كأن، وكاف التشبيه...»[٤٢].

–فصل في الإتباع: «هو من سُنن العرب، وذلك أن تُتبَع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها ورويّها؛ إشباعًا وتوكيدًا، كقولهم: جائع نائع. وساغب لاغب. وعطشان نطشان. وخبٌّ ضبٌّ. وخراب يباب. وقد شاركت العرب العجمَ في هذا الباب»[٤٣].

نكتفي بهذا القدر اليسير من لطائف أساليب العرب، فالمقام لا يتسع للتوسع أكثر من ذلك، وإن كانت على قلتها تكشف لنا تنوع مشارب الكتاب، وتعدد فروعه ما بين البلاغة والنحو والفقه والصرف، وإبحار الثعالبي في علوم اللسان العربي، وطرائف القول، وشوارد الدلالات، وشواذ الاستعمالات، ودقائق الأسرار، مما يعكس الجهد الكبير الذي بذله في تأليف مؤلَّفه القيّم، فله الثناء والتقدير على ما خلَّفه لنا من درٍّ مكنون، وما قَيَّدَ من أسرار هذا اللِّسان العربيّ المبين.

قائمة المصادر والمراجع:

١– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

٢– أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر ، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ.

٣– أبو إسحاق الحُصْريّ القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٣م.

٤– أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: خالد فهمي، تصدير: رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٨م.

٥– أبو منصور الثَّعالبيّ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٢م.

٤٠– نفسه، ج: ٢، ص: ٦٣٠–٦٣١.

٤١– نفسه، ج: ٢، ص: ٦٣١– ٦٣٢.

٤٢– نفسه، ج: ٢، ص: ٦٣٧.

٤٣– نفسه، ج: ٢، ص: ٦٤٦– ٦٤٧.

نظرةٌ في كتابِ
دُمْيَة القَصْرِ وعُصْرَة أهلِ العَصْرِ

للبَاخرزيِّ (ت ٤٦٧ هـ)

د. عبَّاس مرهج فرج*

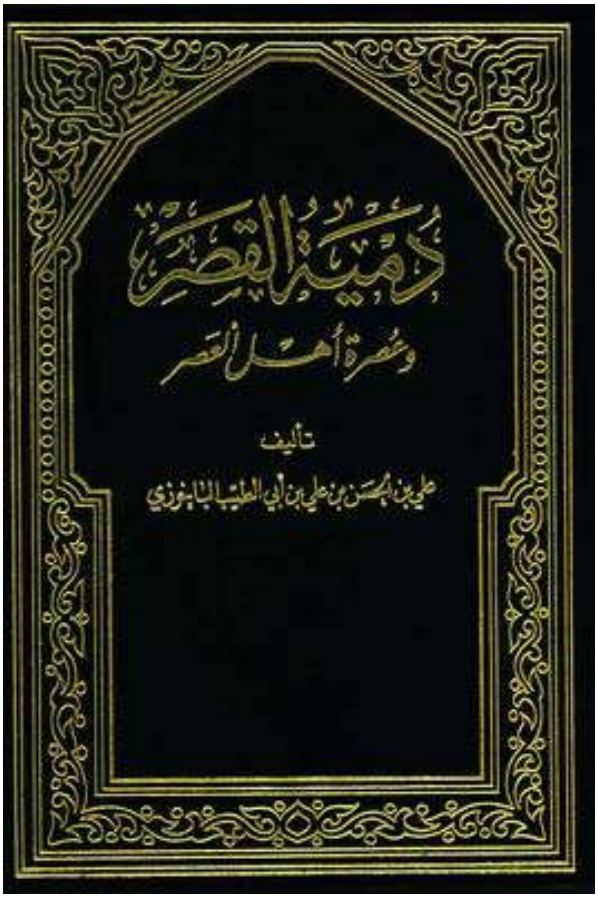

إن البحث في مظان كتب التراث، وخزائن المكتبة العربية، يُرشدنا إلى دفين مؤلَّفاتها الأدبية، التي تزخر بالمعرفة وشتى فنون القول، وعذب الأقوال والأشعار. وقد وقعنا في خضم بحثنا على كتاب جزيل الفائدة، عظيم الأهمية، ألا وهو «دُمية القصر وعُصرة أهل العصر»، الذي يُعَدُّ من كتب الأدب النفيسة، التي تُبهر القارئ بغزارة مادتها، ولطيف صناعتها، وجميل أثرها، وحلاوة لسان مؤلِّفها، وسعة معارفه، إذ يُطلعنا الباخرزي صاحب هذا الكتاب، على شوارد الأشعار، ونوادر الأخبار، ولا سيما أنه جمع فيه ما تناثر من أبيات شعرية لشعراء فضلاء كثر من مختلف البلاد، من أعلام القرن الخامس الهجري، من شعراء وأدباء بلغ عددهم خمسمئة وثلاثين شاعرًا، وقد جعل هذا الكتاب ذيلًا لكتاب الثعالبي «يتيمة الدهر». لذا نودُّ أن نضيء في هذا المقام على مادة دُمية القصر، وصاحبه، ومنهجه في صناعة الكتاب.

* مدرِّس في قسم التاريخ – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة الثّانية في السُّويداء – جامعة دمشق.

البَاخرزيُّ

هو نور الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب **الباخَرْزي** المشهور بالشاعر، وقد نُسِبَ إلى بلدته باخَرْز، حيث وُلِدَ ونشأ فيها، وأخذ فيها قسطًا من علومه، وباخَرْز: بفتح الخاء وسكون الراء وزاي هي: كورة ذات قرى كبيرة، وأصلها بادهرزه باللغة البهلوية، لأنها مهبُّ الرياح، وتشتمل على مئةٍ وثمانٍ وستين قريةً، قصبتها مالين، تقع على نهر هرات جنوب الجام، وهي بين نيسابور وهراة[1]، وهي مقاطعة في خراسان (أفغانستان اليوم).

كُنِيَ الباخرزي بأبي الحسن، حسب ما ورد في كتب الأدب والتاريخ التي عرضت سيرة حياته، وكذلك كُنِيَ بأبي القاسم، ودليلنا على ذلك ما ذكره ياقوتُ الحموي عن أبي الحسن البيهقي، بعد أن ذكر أنه أبو الحسن، أنشد ما قاله البارع الزُّوزنيُّ مخاطبًا الباخَرْزيَّ:

أبا قاسمٍ لا زلتَ فينا عطيّةً
من الله لا أمست يد الدّهر مجذوذَهْ
جلوتَ علينا دميةَ القصرِ غادةً
فأضحتْ بألحاظِ البريَّةِ مأخوذَهْ[2]

وقد روى الباخرزي هذه الأبيات في دميته، ولا غرابة أن يكون للباخرزي كنيتان اثنتان، لأنه كثيرًا ما نصادف في كتب التراجم العامة هذه الظاهرة، إذ يُكنَّى المرء باسمي ولدين له، أو يُكنَّى باسم الأول فقط، وإن كانت العادة أن يُكنَّى باسم الولد الأكبر، أو الأشهر من بين أولاده، على أننا نرجِّح أن تكون كنيته (أبا الحسن)، نسبةً إلى ابنه، كما عرَّف نفسه بذلك في ديوانه بقوله:

خذها أبا حسنٍ غرَّاءَ فائقةً
ولّت وجوه الملوك الصِّيْدِ من قبل
أكثرت فيها ولم أهجر بلاغته
وليس كثرة تكثيري من الفشل
إذا تمنت سواها أن تضاهيها
خابت وما النَّجَلُ المَوْمُوْقُ كالحَوَلِ[3]

كذلك قال:

لقد كنت أُعرَفُ بابن الحسن
فلقَّبني العشقُ بابن الحزن
ولولا الهوى ما لقيت الهوان
ولولا الدمى لَمْ أقف بالدمن[4]

لم تُسعِفنا كتب التراجم بمعلومات كثيرة عن أخبار الباخرزي، وجلُّ ما وقعنا عليه كان أوصافًا وتعابير عامة، لذا سنكتفي بإثبات ما يتعلق بنشأته العلمية، وأهم العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم معارفه وعلومه، وسمع منهم أشعارهم وأشعار آخرين روَوا لهم.

نشأة الباخرزي العلمية، وأبرز شيوخه:

تحدَّث الباخرزي في كتابه «دمية القصر» عن نشأته العلمية، وبداية حياته الأدبية، وعن فضل أبيه الكبير في تربيته، وعظيم أثره في تحصيل معارفه، فكان بمنزلة شيخه الأول، لما عُرِفَ عنه من فضل وأدب وشعر وحكمة، فهيَّأ له سبل التعليم، لذا قال الباخرزي:

«فلمَّا فرغتُ من حفظ كتاب الله عز وجل، وهو الحلي الذي يتزيَّنُ بلبسه العاطل، ذهبت بنفسي أن أكون قرين المُقرئين، وألقيت الألواح دأبًا موسويًا، وتمثَّل بحذاء عيني شخصُ الأدب خلقًا سويًا، فضمَّ والدي إليَّ من الأدباء كلَّ موثوق به مُستوثَق منه، أستظلُّ براية الدراية، وأتميز من بين أكفائه بحسن الكفاية، وجعل يصقل من حسامي ما يطبعه الأديب، ويريش من سهامي ما يفوقه التأديب، ثاقب العزيمة

١- ياقوت الحموي، معجم البدان، المجلد الأول، دار صادر بيروت، ١٩٧٧، ص: ٣١٦.

٢- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق محمد راغب الطباخ، حلب، ١٩٣٠، ص: ٣١٢.

٣- نفسه، ص: ٢٢.

٤- نفسه، ص: ٣٤.

كمـا تلسـن في الظلام شـواظ النار، مغـرًى بملاحظة الصُّحف، مغرَمًا بمطالعة الكتب، أُلزمها العين سطرًا فسطرًا»[٥].

وقـد كان أبـوه على صـلة وثيقة بخـيرة أدباء ذلك الزمـان، وكثـيرًا مـا كان يقوم الابن بصـلة الوصـل بينهم، نذكر من الأدباء الذين اسـتقى الباخرزي منهم الأدب، أبا منصـور الثعالبي، الذي زار مكتبته كثيرًا، واطلع على مسوَّدات كتبه، إذ قال عنه: «كنت وأنا فرخ أرغب في الاستضاءة من نوره»[٦]، وكذلك قال: «وكنت على ألَّا أزاود الثعالبي في يتيمته، ولا أزجّه في كريمته، إلا مـا تجذبني شـجون الأحاديث إليـه، فأفرغ كلامي عليه، وقد قيل: الحديث ذو شـجون، وشجونه أحسن منه»[٧].

ومما عُرِف عن الباخرزي أنـه كان كثير الترحال، والتنقـل مـن مـكان إلى آخـر، طلبًـا للعلـم وسـعيًا في تحصيله منذ كان صغيرًا، ومما قاله في ذلك:

«كفـى بالعلـم مَفخرًا، يُقـرَع به أنـوف المفاخرين، وبالثنـاء الجزيـل مذخـرًا، وهـو لسـان الصـدق في الآخريـن، والموفَّق مَـن إذا همَّ ألقى بـين عينيه عزمه، ونكـبَ عـن ذكـر العواقـب، ومـدَّ أطنـاب خيامـه على النجـوم الثواقب، ولهـذا الشـأن لا أزال أهبُّ على كل بقعـة مذكورة، وأحطُّ رحلي من كـورة إلى كورة، وقد ولَّيت وجهي شـطر الفضلاء الوجاه، وبسطت حجري لالتقاط درر الشـفاه، فتركت اليراعـة التي هي أنبوب من رمح البراعة، بطول انضـمامها إليَّ أناملي سادسة لخامسها»[٨].

درس الباخَرْزيُّ الفقه على مذهب الإمام الشافعي، واهتـمَّ بملازمـة درس الشـيخ أبي محمد عبـد الله بن يوسـف الجوينـي والد إمام الحرمـين، وأخذ عنه فقه الشـافعي، وسـمع منـه الحديـث والأدب. أمـا أبـرز العلمـاء والأدبـاء الذيـن التقاهـم، وأفاد مـن علمهم، فمنهـم عبـد القاهـر الجرجـاني، الذي درس على يده النحـو والبلاغة والنقـد، وابن بَرْهان الـذي كان أحد أعـلام النحـو في عصره، وابـن كرّام الـذي درس على يـده علم الكلام والاعتزال، وأبو بكر القُهسـتاني الذي درس على يـده علـوم الأوائـل والفلسـفة، وقد تجلى تنـوع معارف الباخرزي في كتابـه الدُّمية، نتيجة كثرة أسـاتذته وجلسـاء أبيه وكبار العلماء مـن معاصريه الذين اسـتقى منهـم الأدب، إضـافة إلى أثـرٌ المكتبات التـي ارتادها، وأفاد ممـا حوته من مؤلَّفات في مختلف العلوم، كل ذلك زاد من ثقافته وأدبه وعلومه، كما كان لكـثرة تجوالـه وتنقله بـين البلدان دور كبير في سـعة معرفته، إذ أخذ من كل علم طرفًا، وجمع شتات العلوم المعروفة في عصره، واختزنها في عقله، وبدت آثارها في دميته الغنية بما فيها من علم وذوق وشعر وأدب.

إن اجتمـاع تلك الأسـباب طبـع في نفس الباخرزي حب الأدب، وحضـه علـى التأليف فيـه، فبزغت فكرة كتـاب الدميـة، كي يحفـظ فيه تراجم شـعراء عصره، ولطيـف أشـعارهم، ونُبَـذًا عن أخبارهم، فتـمَّ له ذلك، وقدَّم لنا مؤلَّفًا غنيًا جامعًا شاملًا.

تجوال الباخرزي العلمي:

عُـرف الباخـرزي بأنه أديب جـوَّال، مثله في ذلك مثل غيره من الأدباء، الذين كانوا يسـافرون في سـبيل التقاء العلماء والأدباء، وجمع نتاجهم، وإذا ما نظرنا في أسماء البلاد التي ذكر أنه زارها، أو قابل فيها فاضلًا أو راويًا، أو راجع في إحـدى مكتباتها ديوانًا، فإننا نجد أن عددها قـد بلغ تسـعة عشر بلدًا، بـين قرية وعاصـمة، فقد ذكر في كتابه: «وذلك في شـهور سـنة أربع وستين وأربعمئة،

٥- نفسه، ص: ٣.

٦- الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٣.

٧- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ص: ٨.

٨- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ص: ٤.

وقد أدركت بنيسابور من المُقيمين بها أبا فضلها، وأخا إفضالها، وابن ميكالها، المستوفي للفضائل بوافٍ من ميكالها، وثعالبيها أبا منصور، أسد الصناعة في غابة ثعالب، وبلت يدي من الطارئين عليها بالعميد أبي بكر القهستاني... ولقيت بجرجان أبا محاسنها، حسنات الدهر به موفورة، وسيئاته مغفورة، وعبد قاهرها، ورايات الجهل به مقهورة، وأبا عامرها وساحات الفضل به معمورة. وقصدت بمرو الرُّوْذ أمجدَيْها الموسوي وهو صدر خريدتها، وقاضيها السمعاني، وهو بيت قصيدتها، وببلخ شرف سادتها وجمال صدرها ووسادتها أبا الحسن محمد بن عبد الله، وبالرَّيِّ وزيرها الصفي ونحريرها أحمد بن فورجه البروجردي، وبأصفهان أبا مطرزها صاحب طراز الذهب على وشاح الأدب، وبهمذان أَبَوَي الفرج أحمد بن محمد بن حسيل، وهو الصقر الطامح إلى الشرف، وابن أبي سعد بن خلف، وهو الخلف الصالح عن السلف، وببغداد ابن شبلها الخادر في قضائها، وابن نحريرها النحرير بين شعرائها، وابن بَرْهان الذي أوضح برهان النحو، وأبرز شعاعه من الدجن إلى الصحو، وبالبصرة ابن قصبانيها، الحائز في علم الأعراب قصب السباق، المترع من بين أعراب العراق»[٩].

-مخطوطات الكتاب:

-توفَّرت نسخ عدة للكتاب، في مكتبات العالم، أقدمها نسخة المكتبة السليمانية في تركيا، التي كُتِبَت سنة ٥٧٢ه، أي بعد مقتل الباخرزي بمئة وأربع سنوات.

-ونسخة أخرى في مكتبة المدرسة الأحمدية في حلب، رقمها ١١٩٤، خطها واضح وجميل، وهي منسوخة نسخًا جيّدًا مع بعض التعليقات عليها من قبل بعض الشخصيات التي عاصرت ناسخها، وقد ذكر الناسخ في أولها قطعة من ديوان الباخرزي.

-ونسخة ثالثة في المكتبة المارونية في حلب، رقمها ٤٧٤، بخط الأديب يوسف البديعيّ الحلبيّ، مكتوب في آخرها ما نصُّه:

«نجز نسخه بعون الله تعالى بقلم فقير ربه الغني يوسف البديعي، في شهر ذي القَعْدة سنة ١٠٥١م، وذلك برسم خزانة المولى العالم العلامة مولانا نجم الدين[١٠] أفندي، أدام الله تعالى فضائله»[١١].

-طبعات الكتاب:

طُبِعَ هذا الكتاب عدة طبعات، منها:

-الطبعة الأولى المختصرة في حلب، سنة ١٩٣٠، تمت بعناية العلامة المرحوم محمد راغب الطبَّاخ.

-الطبعة الثانية في القاهرة، حقَّقها عبد الفتاح الحلو، وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٦٨، والجزء الثاني عام ١٩٧١.

- الطبعة الثالثة في بغداد، صدر المجلَّد الأول منها سنة ١٩٧٠، حقَّقها سامي مكي العاني.

-الطبعة الرابعة في دمشق، حقَّقها محمد التونجي، وصدرت في ثلاثة مجلَّدات، اشتمل الجزء الثالث منها على تعريف مبسَّط بالكتاب، وبمخطوطاته ومختصراته وذيوله، إذ عمل أبو المعالي سعد بن علي الحظيري المتوفَّى سنة ٥٦٨ه، ذيلًا على كتاب الدُّمية سمَّاه: «زينة الدهر وعصرة أهل العصر»، وأكملها العماد الأصفهاني في خريدة القصر[١٢]، ومن ذيوله أيضًا كتاب «وشاح الدمية» لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي، الذي وصف فيه ديوان شعر الباخرزي، بأنه كبير، وغلبت عليه الجودة.

٩- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ص: ٦- ٨.

١٠- محمد نجم الدين الحلفاوي الأنصاري الحلبي الدار الحنفي المذهب خطيب جامع حلب، وصدرها المستوفى، كان في عصره أوحد الفضلاء وأبلغ البلغاء، وله الصيت الذائع بالسخاء والمروءة. انظر: الطباخ محمد راغب، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الجزء السادس، المطبعة العلمية، حلب، ص: ٢٧٩.

١١- الطباخ محمد راغب، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الجزء السادس، المطبعة العلمية، حلب، ص: ٣٣٥.

١٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء ١٨، ص: ٢٦٣.

منهج الباخرزي في كتابه، وملاحظ عامة عليه:

-يُعدُّ هذا الكتاب ثمرة جهد كبير بذله الباخرزي، حتى تمكَّن من إعداده، وجمع مادته، وتقسيمه إلى أبواب، وترتيب الشعراء في تلك الأبواب، لذا نراه يفتخر ويعتز بذلك في قوله: «سمَّيتُه تاج الكتاب قبل أن أطلَّ على ساقة الكلام لسياقة الأقسام، كما كان كتابي هذا بين رعايا الكتب أميرًا، أمطيته من عروش الأمارة سريرًا، وجعلت رأسه بسماء الفخر مظلَّلًا، وبتاج العز مكلَّلًا، وافتتحته بمن هو مفتاح يد المتطرق إلى باب الرشاد، ومصباح عين المستضيء بنور السداد، ورحمة الله الموعودة للعباد، ورأفته المنشورة في البلاد، أمير المؤمنين القائم بأمور المسلمين، المصدر في دست العظمة والجلالة المستخرج من عنصر النبوة والرسالة»[١٣].

-عمد الباخرزي في هذا الكتاب إلى فهرسة أسماء الفضلاء الذين اختار التطرق إليهم في كتابه، ثم جعل أقسام طبقات الأسماء على عدد طباق السماء، فلكل مقام فيها مقال، ولكل طبقة منها رجال.

-وانتقى من الرجال الفضلاء، والأدباء والعلماء، مَن هم من السابقين الأولين، ومَن هم من اللاحقين المُخضرَمين، ومَن هم من المُحدَثين العصريين.

-جعل الباخرزي كتابه في سبعة أقسام، استقصى فيها شعراء الشام والعراق والجزيرة والمغرب العربي، وصولًا إلى شعراء بلاد فارس، فجاءت أقسام الكتاب على النحو الآتي:

القسم الأول: في محاسن شعراء البدو والحجاز.

القسم الثاني: في طبقات شعراء الشام، وديار بكر وأذربيجان، والجزيرة وبلاد المغرب.

القسم الثالث: في فضلاء العراق.

القسم الرابع: في شعراء الري والجبال.

القسم الخامس: في فضلاء جرجان، وأَستراباد، ودهستان، وقومس، وخوارزم، وما وراء النهر.

القسم السادس: في شعراء خراسان وقهستان وسجستان وغزنة.

القسم السابع: في طبقة من أئمة الأدب لم يجرِ لهم في الشعر رسمٌ.

-ونهج على أن يذكر لكل رجل اسمه، ونسبه، ولمحة عن حياته وأخلاقه وصفاته، وشيئًا من فرائد أشعاره، ونوادر أخباره.

-لكنه لم يراعِ في الأقسام الخمسة الأولى مراتب الشعراء، أو تفضيل بعضهم على بعض، إذ قال: «وإن لم أراعِ في الأقسام الماضية تفاضل الدرجات والمراتب، حتى اشتبهت المناسم بالغوارب، وامتزج الرذل بالفاخر، واختلط الأول بالآخر. [ثم قال في مستهل القسم السادس] فقدمت من هذا القسم خمسة نفر، هم في مواكب الفضل خميس، وما منهم إلا مقدَّم أو رئيس...»[١٤]، مما يعني أنه في هذا الباب حصرًا اكتفى بمن هم من أهل العلم، وأصحاب الأدب، والمشهود لهم بعلو المكانة.

-لم يكن يكتفي الباخرزي بإثبات الأشعار ونسبتها إلى أصحابها، وإنما جهد أن يقدِّم رأيه فيها، وكيفية تذوقه لها، فتجلت لنا ذائقته الشعرية، وحسه الشعري، ورأيه النقدي بما يسوق من شواهد، نذكر على سبيل المثال ما قاله عن القسم الأول في طبقات البدو والحجاز:

أقول في هذه الطبقة: «إن أحسن الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار، ورعت مع الظباء الشيح، وتزورت مع الضباب الريح، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل، مصقولة العرقوب بلا تجشم، مؤونة الحمام مجلوة الثغور بلا منة لفروع البشام. ولذلك قال:

١٣- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ص: ١٠.

١٤- الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر،، ص: ١٢١-١٢٢.

حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية
وفي البداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ

ثم أنشد قول الشيخ الإمام أبي عامر بن الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني:

واصلتني الهموم وصل هواكِ
وجفاني الرقاد مثل جفاكِ
وحكى لي الرسول أنك غضبى
يا كفى الله شر ما هو حاكِ»[١٥]

اعتمد الباخرزي في معظم الاختيارات الشعرية التي أثبتها على منهج الرواية الشفوية، أي ما سمعه من الشاعر نفسه، أو ما أنشده إياه راوٍ عنه، فجاءت اختياراته سمعًا أو رواية، واعتمد أحيانًا أخرى على النقل من الكتب ودواوين الشعراء، لذلك نجده يذكر أسماء الذين سمع منهم الشعر، أو سمعوه من غيرهم وأنشدوه إياه، من هؤلاء الرواة: أبو الفضل يحيى بن نصر السعدي البغدادي، وأبو محمد عبد الله بن محمد الحمداني الخوارزمي، وأبو الفضل جعفر بن يحيى الحكاك، وأبو محمد العبدلكاني الزُّوزنيُّ، وأبو عامر الجرجاني، والقاضي أبو جعفر محمد بن إسحاق البحائي، وأبو جعفر محمد بن أحمد المختار الزُّوزنيُّ، وأبو القاسم بكر بن المستعين كاتب الحضرة الطغرلية، ويعقوب بن أحمد النيسابوري، والشريف أبو طالب محمد بن عبد الله الأنصاري، والإمام الشيخ إسماعيل الصابوني، وخسرو بن فيروز بن جلال الدولة، والأديب سليمان الهزواني، وأبو الفضل السعدي، وغيرهم.

-درج الباخرزي أحيانًا على أن يروي الشعر دون أن يذكر اسم قائله، فيكتفي بقوله: بعض الأشرف الطارئين، أو بعض أشراف المدينة، أو من أفواه الرواة.

-كثيرًا ما نجده يكيل المديح كيلًا، ويجهر بمدى إعجابه وانبهاره بالشعر الذي يسوقه، وببراعة الشعراء في شوارد أبياتهم الفاتنة، كقوله مثلًا: «قلت: هذا، والله، المعنى البديع، والربيع المريع، والتشبيه اللائق، والغرض الموافق»[١٦].

«وله، وهو مما ينساب في العروق مع الصهباء، الممزوجة بماء السماء»[١٧].

«والله، هذه ألفاظ ما عليها غبار، ومعانٍ ليس للخيل بها جبار»[١٨].

«قلت: تلك الكافية كبطانة سندس، والأبيات التي على ظهرها كظهارة إستبرق، وهما من ثياب الجنة»[١٩].

«ووجدت في ديوان شعره يائية في نهاية الإبداع... قلت: لعمري هذا كلام أنيق غضٌّ، كما نشر أزهارًا غضة على الرباع ربيع، ونظام مليح عذب، والملح مع العذوبة بديع»[٢٠].

«قلت: هذا لعمري الشعر الذي ورد دجلة فارتوى من زلالها، وروح بشمال بغداد، فرفل في سربالها، واستفاد الصحة من اعتلالها»[٢١].

-إضافة إلى المدح نجده يقدِّم آراء نقدية موضوعية بحق بعض الأدباء، كقوله في شعر الأديب أبي عبد الله سليمان: «قلت: نظم هذا الأديب مسفٌّ، ونثره محلِّق، فليته اقتصر على إحدى الحالتين، وعمل بما هو أحذق فيه من الآلتين، فإن لكل عمل رجالًا، ولكل مقام مقالًا»[٢٢].

وقال في شعر أبي طاهر الشيرازي: «رأيت في ديوان شعره هذه التجنيسات، وما فيها طلاوة، ولا عليها طراوة، ولا فيها حلاوة»[٢٣].

١٥- نفسه، ص: ١٢- ١٣.
١٦- نفسه، ص: ٤٥.
١٧- نفسه، ص: ٤٦.
١٨- نفسه، ص: ٥٦.
١٩- نفسه، ص: ٧٢.
٢٠- نفسه، ص: ٧٦- ٧٧.
٢١- نفسه، ص: ٨٠.
٢٢- نفسه، ص: ٨٨.
٢٣- نفسه، ص: ١٠٠.

-أكثر الباخرزي في غير موضع من الإشادة بشعر والده، ووصفه بالسبق في الموضوعات التي تطرَّق إليها، كقوله:

«وأحسن ما سمعت في وصف الدجاج المكردن قول والدي:

ونكتفي غدوة بقتلى مصلوبة عُذِّبت بنار»[٢٤].

اعترف الباخرزي في مواضع كثيرة بعجلته في انتقاء أبيات من دواوين الشعراء الذين توقف عندهم، فنسمعه مثلًا يقول عن أبي الفرج علي بن الحسن بن علي الموفقي: «رأيت له ديوان شعر كبير الحجم، فاخترت منه هذه الأبيات على حد عجلة مني». وقال: «ولم أتفرغ إلى أن أمعن النظر في قصائده، فألتقط شذورًا من قلائده»[٢٥].

-راعى في الأبيات الشعرية التي تخيَّرها تنوع أغراضها الشعرية، ما بين الغزل والمدح والهجاء والرثاء والفخر والخمريات والحكمة والشكوى والوصف وغير ذلك، فمنها في الحكمة:

وما لكَ مطمعٌ في المرءِ إلا
إذا ما أنكرَ الأمرَ القبيحا
فأمَّا وهو يجهلُ بين قبح
وبينَ الحسنِ فرقانًا صحيحا
فإنَّك في رجاءِ الخيرِ منه
بأجوازِ الفلاةِ تكيلُ ريحا[٢٦]

ومنها في الخمريات:

تنسَّمَ الصُّبحُ في الآفاقِ من فلقه
وماتَ جنحُ الدُّجَى عجلانَ من فرقِه
وصفَّقَ الدِّيكُ أنسابًا لذي لقيت
عيناه في دهمةِ الإظلامِ من شفقِه
فهاتِ صفوَ مُدام صحنِ مجلسنا
يفوحُ مِسكًا إذا ما صبَّ من عرقِه[٢٧]

ومنها في الغزل:

نفسي الفداءُ لشادنٍ بلواه عندي تُستحبُّ
فإذا بلوتُ خلالَه فالماءُ يُشربُ وهو عذبُ
وإذا نضوتُ ثيابَه فاللَّوزُ يُقشَرُ وهو رطبُ
وقصارُ وصفي أنَّه فيما أُحبُّ كما أُحبُّ[٢٨]

-غلب على أسلوب الباخرزي حس الفكاهة وروح الظرافة، وقد تجلَّى ذلك في تعليقاته على الفضلاء الذين أثبت شعرهم، كقوله مثلًا عن أبي العلاء المهروقاني: «ولو نسبتُ هذا الفاضل إلى الغالب عليه، لسمَّيته: المستغيث من البراغيث»[٢٩].

هذه جملة من الملحوظات التي ألفيناها تميِّز مسلك الباخرزي في صناعة دميته، وقد حاولنا تبيين منهج هذا الكتاب، وخصوصيته في سرد الخبر، وانتقاء الأشعار وعرضها، والتعليق عليها.

هذه نظرة عجلى في «دمية القصر وعصرة أهل العصر»، للمؤلِّف والأديب والشاعر الباخرزي، الذي حفظ لنا في هذه المدوَّنة تراثًا شعريًا جادت به قرائح الشعراء والقضاة والشيوخ والأمراء في القرن الخامس الهجري، سواء في بلاد العرب، أم بلاد فارس، مما تزدان به المكتبة العربية، وتسمو به رايات الشعر، وتهتز لأجله الجوارح، وتتوق لسماعه الأنفس، إذ يطالع القارئ في صفحات الكتاب حسن صناعته، ويقظة ذائقته، وعذب لغته، إذ وقع اختياره على شذرات شعرية، وأخبار طريفة، وأوصاف رفيعة، ترفع من شأن الشعراء، وتوحي بطيب معشر الباخرزي، الذي لا يفتأ يعرِّف خير تعريف بشعرائه، ممن عاصرهم، ولازمهم، أو التقاهم مصادفةً، أو سمع عنهم، فعسى أن نكون قد وفِّقنا فيما قدَّمناه، وذكرناه بحق الكتاب ومؤلِّفه.

٢٤- نفسه، ص: ٩٦- ٩٧.
٢٥- نفسه، ص: ٩٩.
٢٦- نفسه، ص: ١٠٩.
٢٧- نفسه، ص: ٩٩.
٢٨- نفسه، ص: ١١٠.
٢٩- نفسه، ص: ١١٣.

الإقواء في الشعر العربي

بيـــان الصفـــدي*

معروف أن القافية في الشعر العربي هي المقطع الصوتي المتجانس الذي يعطي لنهايات الأبيات نغمة موسيقية متواترة، فتحقِّق الوحدةَ الإيقاعية، والخصيصةَ البنائية للشكل، وتساعد على ما يسميه النقد الحديث «التوقُّعَ».

فالقافية هي المقطع الصوتي الواجب تكراره، أما الرويُّ فهو الحرف الواجب تكراره، وتبنى عليه القصيدة أو المقطع الشعري، وقد تشمل القافية مصطلح الروي معها أيضًا.

حافظت القافية طوال تاريخ الشعر العربي على نظام شبه ثابت، وهو تكرارها، وقد تراوح هذا التكرار بين انتظام موحد وهو الغالب، وبين تنوع في توزيعها، ولعل الموشح مظهر بارز لهذا التنويع، وصولًا إلى شعر التفعيلة الذي قد يصل إلى إلغائها نهائيًا!

وعلى الرغم من أن القافية أساس من أسس التكوين الموسيقي للشعر، فقد أصابها في الشعر المعاصر ما أصاب موسيقا الشعر من تنوّع واضطراب ومهارة وتركيز وتهميش، تبعًا لثقافة الشاعر وموهبته وقدرته على توظيف مكوِّنات القصيدة الصوتية لخدمة التجربة الفنية.

لكن في نظام التقفية السائد في شعرنا برزت حالات من المخالفة الموسيقية للمعهود منه، ومن ذلك ظاهرة طريفة تسمَّى «الإقواء»، وهو تغير الحركة الخاصة بالرويِّ في الرفع والنصب والجرّ، أي بما يسمَّى «المجرى» أي حركة الروي، والسائد أن تكون موحدة، فما حكاية هذه الظاهرة التي عُدَّت من عيوب القافية في علم العروض؟

من اللافت أن فن الصياغة الشعرية عُرف قبل الخليل بأشكاله الأولى العامة وغير المنظمة، لكن ذلك لم يمنع من صياغة عدد من مصطلحات العروض نفسه، كما نلمسه لدى شعراء كُثُرٍ، فقد أنشد النابغة:

* شاعر وباحث وناقد.

وَعْثُ الرِّوايةِ بادي العيبِ مُنْتَكِبٌ
فيه سِناد وإقواءٌ وتَحْريدُ

وبعده قال جرير:

فلا إقواءَ إذْ مَرِسَ القَوافي
بِأفْوَاهِ الرُّواةِ وَلا سنَادا

القوافي ص١٩٣

وقال أبو حزَام العُكْليُّ:

قَوَافٍ عَلَى الهَاءِ سَجْحيَّة
بِغَيرِ السِّنَادِ ولا المُكْفَأَهْ

القوافي ص١٩٤

ومثله قول جندل الطهوي:

لم أُقْوِ فيهنَّ ولم أساند
على مداد ورويٍّ واحد

القوافي ص١٩٣

في أول كتاب انتهى إلينا في العروض يطالعنا رأي مكثَّف في هذه الظاهرة، إذ يقول الأخفش:

«أما الإقواء فمَعيب، وقد تكلمتْ به العرب كثيرًا، وهو رفع بيت وجرُّ آخر» القوافي للأخفش ص٤٦.

ثم يضيف بعد روايته أبياتًا في الإقواء: «وقد سمعت مثل هذا كثيرًا ما لا يحصى، قلَّ قصيدة ينشدونها إلا وفيها الإقواء، ثم لا يستنكرونه، وذلك لأنه لا يكسر الشعر، وكل بيت منها شعرٌ على حياله» القوافي للأخفش ص٤٧.

لعلنا نطالع مثالًا قديمًا للإقواء لدى الشاعر امرئ القيس:

ألا إنّ قومًا كنتمُ أمسِ دونَهمْ
همُ مَنعوا جاراتِكُمْ آلَ غُدْرانِ
عُويرٌ ومَنْ مثلُ العُوير ورهطه
وأسْعَدَ في ليلِ البلابلِ صَفْوانُ
ثيابُ بَني عَوْفٍ طهارَى نَقيّةٌ
وأوْجُهُهُمْ عندَ المشَاهدِ غُرَّانُ
هُمُ أبلغوا الحيَّ المضلَّلَ أهلَهُمْ
وساروا بهم بين العراقِ ونجرانِ
فَقد أصبحُوا واللهُ أصفَاهُمُ بِهِ
أبرَّ بميثاقٍ وأوفى بجيرانِ

ديوان امرئ القيس. ص٨٣.

ومن أمثلته المبكرة قول أبي المهدية يصف ثعبانًا، وهي مقطوعة من خمسة أبيات، بيتان منها بالكسر وثلاثة بالرفع:

قد كاد يقتلُني أصمُّ مرقَّشٌ
من جُبِّ كَلْثَمَ والخطوبُ كثيرُ
خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عزيْنَ، ورأسُهُ
كالقُرْصِ فُلْطِحَ مِنْ طحينِ شعيرِ

الأصمعيات. ص١٢٣

وقول صالح بن عبد الله العبشمي:

إذا قلتُ تصفو النفس أو تنتهي المنى
أبى القلب إلا حُبَّ أُمِّ حكيمِ
مُنَعَّمَةٌ صفراءُ حُلْوٌ دلالُها
أبيتُ بها بعدَ الهدوءِ أهيمُ

المتوسط الكافي. ص٤١١

وقال ابن ميَّادة:

أَلَيسَ غُلامٌ بَينَ كسرى وَظالم
بِأَكْرَمَ مَن نِيطَت عَلَيهِ التَمائِمُ
لَو انَّ جَميعَ النّاسِ كانوا بِتَلْعَةٍ
وَجِئتُ بِجَدّيْ ظالمٍ وَابنِ ظالمِ
لظلَّتْ رِقابُ النّاسِ خاضِعَةً لَنا
سُجودًا عَلى أَقدامِنا بِالجَماجِمِ

المتوسط الكافي ص٤١٢

«الإقواء» أو «الإصراف» كما يروى لجرير:

عَرِيْنٌ مِن عُرَيْنَةَ ليس منّا
بَرِئْتُ إلى عُرَيْنَةَ مِنْ عَرِيْنِ
عرفْنا جعفرًا وبني عُبَيْدٍ
وأنكرْنا زعانفَ آخرينَ

الموشح ص٣٠

وقول سُحيم بن وَثيل:

عذرتُ البُزْلَ إن هي خاطرتني
فما بالي وبال ابنَي لَبونِ
وماذا يدَّري الشُّعراء منِّي
وقد جاوزتُ حدَّ الأربعينَ

الموشح ص٣٠

ولبشر بن أبي خازم:

ألم ترَ أن طول الدهر يُبلي
ويُنسي مثل ما نسيت جُذامُ
وكانوا قومنا فبغَوا علينا
فسقناهم إلى البلد الشآمي

الموشح ص٧٥

أريتك أن منعتَ كلام يحيى
أتمنعُني على يحيى البكاءَ
ففي طرفي على يحيى سُهادٌ
وفي قلبي على يحيى البلاءُ

معيار النظار ص١٠١

ألمْ ترني رددتُ على ابن ليلى
مُنَيْحَتَهُ فعجَّلتُ الأداءَ
وقلتُ لشاته لما أتينا
رماكِ اللهُ مِنْ شاةٍ بداءِ

معيار النظار ص١٠١

أو دريد بن الصمة:

نظرت إليه والرماحُ تنوشُه
كوقع الصياصي في النسيج الممدَّدِ
فأرهبتُ عنه القوم حتى تبدَّدوا
وحتى علاني حالك اللون أسودُ

تحفة الخليل. ص٣٦٦

وقول الفرزدق:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن قصر
جسم البغال وأحلام العصافيرِ
كأنهم قَصَبٌ جفَّت أسافلُهُ
مثقَّبٌ نفخت فيه العصافيرُ

تحفة الخليل. ص٣٦٣

ويورد أبو يعلى التنوخي الشاهد ورأيه فيه فيقول: «وقال آخر:

أَكلْتَ شُوَيْهةَ وفَجَعْتَ قومًا
بشاتِهِمُ وأَنْتَ لهمْ رَبيبُ
غُذِيْتَ بِدَرِّها ورَوِيتَ منها
فمن أَنْباكَ أنَّ أباكَ ذيبُ
إذا كان الطِّباعَ طباعَ سوءٍ
فليس بنافعٍ أَدبُ الأديبِ

وهذا غلط من العرب لا يُجعلُ مثالًا ولا يقاس عليه. ويجوز أن يكون الوقوفُ على أواخر الأبيات يسوِّغ ذلك لهم، وأنهم يرون كل بيت قائمًا بنفسه».

القوافي ص١٧٦

يقول أبو البركات الأنباري مع أنه متوفًّى عام ٥٧٧هـ:

«الإقواء أن يجتمع الرفع والجر في قصيدة واحدة، نحو قوله:

آذَنَتْنَا بِبَينِهَا أسماءُ
رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّواءُ

وقال فيها:

فملكْنا بذلك النَّاسَ حتَّى
مَلَكَ المُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّمَاءِ

وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه قال: الإقواء نقصان حرف من الفاصلة كقوله:

أفبعد مقتل مالك بن زهير
ترجو النساء عواقبَ الأطهارِ

وكان الخليل يسمى هذا: المُقْعَد.

والمعتمد أن الإقواء يكون مع الرفع والجر في قصيدة واحدة كما بيَّنَّا، فإن كان مع الرفع والجر

نَصْـبٌ سمـي «إصرافًا»، ولا يجيـزه الخليل بن أحمد والبصريـون، وأجازه المفضَّل الضَّبِّـيُّ والكوفيون». الموجز في علم القوافي. الأنباري ص٤٠.

وخلاصة ما سنقـرأ من آراء العروضيين هو القول أن «الإقـواء اختلاف الإعراب» القوافي لأبي يعلى١٧٣، فلماذا كل ذلك الميل للإكثار من المصطلحات والتسميات التـي لا تفيد سـوى التعقيـد والحذلقة العلميـة، وعليه فالكلام هنا يدور على ظاهرة قافية لرويها حرف واحد، ومجرى يذهب في الحركات الثلاث: رفعًا وجرًّا ونصبًا.

لـو تأملنا في ظاهرة الإقـواء لوجدنا أن هناك فريقًا يعدُّهـا خطـأ لم يدركْه الشاعـر، وفريقًـا آخرين عدوه أمـرًا مزعومًـا من الـرواة، لأن الشعـراء في الأصل لم يُقْـووا، بل اتَّبعوا حركة القافية لا النحو، وفريقًا رأى أنهم كانوا يسكنون أواخر القوافي.

أمـا القول: إنَّ الشعـراء لم يدركوا اختلاف حركة الـروي في قوافيهـم فهي خرافـة غريبـة ردَّدتها كتب الماضـين، فما بالك حين يدور الكلام على شاعر بمكانة النابغـة الذبياني! بـل يزيدون تشويقًـا على خرافتهم بأنـه لم يشعـر باختـلاف حركـة القافيـة إلا بعـد أن جـاؤوا بقينة فغنـت القصيدة!! هل بعـد هذا من هذر واختلاق؟!

فقد قال النابغة:

أَمِن آل مَيَّةَ رائحٌ أَم مُغتد
عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّدِ

ويروى أنه قال فيها:

زَعَمَ البوارِحُ أنَّ رحلَتَنَا غدًا
وبذاكَ خَبَّرَنا الغرابُ الأسودُ

وأنه قال فيها أيضًا:

عَنَمٌ يكادُ من اللَّطافَةِ يُعْقَدُ

«فقيل له في ذلك، فلم يعرفه حتى أُحضرت له قينة، فغنَّتْ به، ومدَّت صوتها، فغيَّرَه» القوافي ص١٧٥.

ويقـال إنه غيَّره إلى: وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ. وقـال: «دخلت يـثرب وفي شعـري صنعة، ثـم خرجت منها وأنا أَشعر العرب» الخصائص ١ / ٢٤٠.

والقـول بأن الشعراء لم يقـووا أساسًا، بل اتبعوا مـا تقتضيـه القافيـة رأي وجيـه، لأن علاقـة الشاعر القـديم بمفرداتـه كثـيرًا مـا غلبـت الشعر علـى نظام العربية، ومما خلق مشـكلات نحوية وصرفية كثيرة، لأن النحـاة واللغويـين فيمـا بعد نقلوا لغـة الشعر إلى مجال الاستشـهاد اللغوي.

لكـن بغض النظر عن ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أنـه جـرى كثـيرًا في الشعـر العربـي اختيـار الشاعر لمخالفة مقصودة لنظام التقفية الموحدة.

أمـا أمر التسكين عند الإنشاد، فهو رأي ضعيف لا يفسر الأمر، لأن القصائد العربية كما نلحظ تقوم على نظـام الحركة الموحدة في نهاية الأبيات، وليست مطلقة الحرية في اختيار القوافي.

أنـا شخصيًـا ممَّن يميلـون إلى تفسير آخـر، يستند إلى روح الصياغـة الشعرية أولًا، وإلى النزوع الإبداعي عمومًـا، فأميـل إلى تصديـق أن الشاعـر العربي لم يقوِ عـن ضعف أو جهل أو غفلة، بل اختـار أحيانًا أن يقوم بصدمة إيقاعية تزيد من تنبيه السامع أو القارىء، وهذا النتـوء السمعي الذي يقتحـم القصيدة أو الأرجوزة أو المقطوعة ينسجم مع ميل الشاعر أحيانًا أن يولِّدَ إضافة إلى سائـد في نظام القصيدة، ودليلنا على ذلك أنه حصل أحيانًـا أن كتـب الشاعـر شعـرًا قائمًـا علـى استخدام النّصب والجرّ والرّفع في القافية معًا، فقد أنشد المبرد:

تكلِّفُني سَوِيْقَ الكَرْم جَرْمٌ
وما جَرْمٌ وما ذاك السويقُ
فما شربوه وَهْوَ لهم حلالٌ
وما قالوا بها في يوم سوقِ
فأَوْلَى ثمّ أولى ثمّ أولى
ثلاثًا يا بن عمرو أن تذوقا

الوافي ص١٧٤.

وقد سمى ابن رشيق هذا الشعر باسم الشعر القواديسي، وضرب له مثالاً لطلحة بن عبيد الله العوفيّ قوله:

كَمْ للدُّمى الأبكارِ بالـ خَبْتَيْنِ مِنْ مَنَازِلِ
بمهجتي للوجد من تذكارِهَا منازلُ
معاهدٌ رعيلُها مُثْعَنْجِرُ الهَوَاطِلِ
لما نأى ساكنُها فأدمعي هواطلُ

ويعقّب ابن رشيق: «وهو مربوع الرّجز، تعمَّد فيه الإقواء، وأوطأ في أكثره قصدًا» العمدة ١ / ٢٨٥ (ط. شعلان).

لن أُطيل القول في ظواهر الخروج على نظام التقفية في تراثنا، فقد وصل الأمر إلى أن عرف شعرنا القديم حتى القافية المرسلة، ومثالها الأشهر ما ورد في شعر العجير السلولي:

رأى من رفيقيْه جفاءً وبَيْعُهُ
إذا قام يبتاعُ القلاصَ ذميمُ
خليليَّ حُلّا واتركا الرحل إنني
بمَهْلَكَةٍ والعاقباتُ تدورُ
فبيناهُ يشري رَحْلَهُ قال قائل:
لمن جَمَلٌ رِخْوُ المِلاطِ نجيبُ

القوافي للأخفش ص٥١.

ويورد أبو يعلى عن صاحب هذه الأبيات: «قيل: إن قائله أنشده كذلك، فنُهِيَ عنه، فلم ينتهِ» القوافي للتنوخي ص١٧٧.

ويروي للعجير بيتًا زائدًا في مطلع الأبيات:

ألا قد أرى إن لم تكن أمُّ مالك
بملْكِ يدي إنَّ البقاءَ قليلُ

القوافي للتنوخي ص١٨٠.

ولنتأمل بعمق كيف لم ينتهِ العجير عما فعل، على الرغم من تنبيهه، مما يدل على الإصرار على غاية شعرية، وكم في شعرنا القديم من إيطاء، أي تكرار كلمة بعينها في القافية!

لقد صار معلومًا للمتابعين أن ظاهرة الإقواء كثيرة الورود في شعرنا القديم، ويذكر المرزباني أن «الإقواء في شعر الأعراب كثير» الموشح .ص١٦٤، فإذا كانت منتشرة لدى شعراء الحضر والمدر لم يكن عدُّها عيبًا صوابًا، بل انزياحًا جرى عليه الشاعر ليلفت الأسماع إليه، بوساطة أداة فنية متمردة، تخرج عن السياق لتعزز وظيفة الإبلاغ والتميز.

المصادر والمراجع

– الأصمعيات. اختيار الأصمعي. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف. القاهرة.

– الخصائص. ابن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة والنشر. بيروت بلا.

– ديوان امرئ القيس. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. ط٥. القاهرة ١٩٩٠.

– شرح تحفة الخليل في العروض والقافية. عبد الحميد الراضي. مطبعة العاني. بغداد ١٩٦٨.

– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. تحقيق النبويّ شعلان. مكتبة الخانجي. القاهرة ٢٠٠٠م.

– في علم القافية. د. أمين علي السيد. مكتبة الزهراء. بلا.

– القوافي: تصنيف القاضي أبي يعلى التّنوخيّ. تحقيق: عوني عبد الرؤوف. ط٢. الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق الوطنية. القاهرة ٢٠٠٣.

– المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. موسى بن محمد الملياني الأحمدي. ط٤. دار الحكمة للنشر والترجمة. الجزائر.

– معيار النظار في علوم الأشعار: الزنجاني. تحقيق: محمد علي رزق الخفاجي. دار المعارف. القاهرة ١٩٩١.

– الموجز في علم القوافي: أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ). تحقيق الدكتور حاتم الضامن. دار البشائر. ط١. دمشق ٢٠٠٢.

– الموشح مآخذ العلماء على الشعراء. أبو عبيد الله المرزباني. تحقيق: علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر. القاهرة ١٩٦٥.

التأصيل عند ابن فارس

د. سكينة محمود موعد*

ابن فارس:

أَحْمَدُ بنُ فَارِس بـن زَكَرِيَّا القَزْوِيْنِيُّ: الإِمَـامُ العَلَّامَةُ اللُّغَوِيُّ المُحَدِّثُ، أَبُو الحُسَـيْنِ، المَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ، المَالِكِيُّ، نَزِيْلُ هَمَذَان.

حَدَّثَ عَنْ: أَبِي الحَسَـنِ عَلِيِّ بن إِبْرَاهِيْمَ بن سَـلَمَةَ القَطَّان، وسُـلَيْمَان بْن يَزِيْدَ البابِيّ، وعَلِـيِّ بن مُحَمَّد بـن مَهْرَويه القَزْوينيين، وسَـعِيْد بن مُحَمَّـد القَطَّان، ومُحَمَّـد بن هَارُوْنَ الثَّقَفِـيّ، وعَبْـد الرَّحْمَـنِ بن حَمْدَان الجـلاَّب، وأَحْمَد بن عُبَيْـد الهَمَذَانيين، وأَبِي القَاسِـمِ الطَّبَرَانِيّ، وطَائِفَة.

حَـدَّثَ عَنْـهُ: أَبُو سَـهْلِ بنُ زيـرك، وأَبُو مَنْصُـوْر مُحَمَّدُ بنُ عِيْسَـى، وعَلِيُّ بنُ القَاسِـمِ الخَيَّاط المُقْرِئ، وأَبُو مَنْصُوْرِ بنُ المُحْتَسِب، وآخَرُوْنَ.

مَوْلِدُهُ بقَزْوِين، ومَرْبَاهُ بهَمَذَان، وأَكْثَر الإِقَامَةَ بالرَّيِّ.

وكَانَ رَأْساً فِي الأَدب، بَصِيْراً بفقه مَالك، مُنَاظراً مُتَكَلِّماً عَلَى طريقَة أَهْلِ الحَقّ، ومَذْهَبُهُ فِي النَّحْوِ عَلَى طريقَة الكُوْفِيِّين، جمع إِتْقَانَ العِلْمِ إِلَى ظَرْفِ أَهْلِ الكِتَابَةِ والشّعر.

ولَهُ مُصَنَّفَات ورسَائِلُ، وتَخَرَّجَ بِهِ أَئِمَّة.

قَـالَ سَـعْدُ بـنُ عَلِيٍّ الزَّنْجَـانِيّ: كَانَ أَبُو الحُسَـيْنِ مِنْ أَئِمَّـةِ اللُّغَة، مُحْتَجّاً بـه فِي جَمِيْعِ الجِهَات غَيْرَ مُنَازع، رَحَلَ إِلَى الأَوْحد فِي العُلُوم أَبِي الحَسَن القَطَّان، ورَحَلَ إِلَى زَنْجَان، إِلَى صَـاحِبِ ثعلب أَحْمَدَ بن الحَسَـنِ الخَطِيْب، ورَحَلَ إِلَى مَيَانَج إِلَى أَحْمَدَ بن طَاهِر بن النَّجم، وكَانَ يَقُوْلُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ.

قَالَ سَعْدٌ: وحُمِلَ أَبُو الحُسَيْنِ إِلى الرَّيِّ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ مجدُ الدَّوْلَة بنُ فخر الدَّوْلَة، وحصَّل بِهَا مَالاً مِنْهُ، وبرع عَلَيْهِ، وكَانَ أَبُو الحُسَيْنِ مِنَ الأَجْواد حَتَّى إِنَّهُ يَهَبُ ثِيَابَهُ وفَرْشَ بَيْتِه.

قَالَ: ومَاتَ بالرَّيِّ فِي صَفَرٍ سَنَة خَمْسٍ وتِسْعِيْنَ وثَلاثمئَة.

* أستاذة فقه اللُّغة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة دمشق.

ولـه نَحْـوُ خمسـين مؤلَّفـاً، ساقهـا الأستـاذ عبد السلام هارون في مقدّمة تحقيقه للمقاييس.

ومـن أشـهرهـا: الإتبـاع والمزاوجـة، واختـلاف النحويـين، والانتصـار لثعلـب، وخلـق الإنسان، وذم الْخَطَأ في الشّعْـر، والصّاحبي في فقه اللغة، واللّامات، والمُجمل، والمقاييس[1].

معجم المقاييس:

رمـى ابـن فارس في هـذا المعجم إلى كشـف الستار عـن المعنـى الأصلي المشـترك في صيغ المـادة جميعها، وسمّاهـا الأصـول والمقاييـس، ويبـدو هـذا جليًّـا من مقدّمة الكتاب.

وفكرة المقاييس سيطرت عليه، فجعل اسم الكتاب لها.

وقد رتّبه على النحو الآتي:

– قسّم مواد اللغة إلى كتب، فشرع بكتاب الهمزة، وانتهى بكتاب الياء.

– قسّم كل كتاب إلى أقسام ثلاثة: الثنائي المضعف، والثلاثي الأصول، وما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف.

ـــالتـزم ببـاب الثنائـي وأبـواب الثلاثـي ترتيبـاً خاصـاً، وهو أنه لا يبـدأ بعد الحـرف الأول إلاّ بالذي يليـه، فمثلاً: باب الجيم يبدأ بالجيم مع الحاء، فالجيم مـع الخاء، فالجيم مع الدال حتـى يصل إلى الجيم مع اليـاء، ثم يعود ويبـدأ بالجيم مع الهمـزة، فالجيم مع الباء، فالجيم مع التاء... أي إن الترتيب يبدأ بالحرف الـذي عقد له الباب، مَعَ الحرف الـذي يليه حتى نهاية الحـروف، ثم يعـود إلى الحروف التـي سبقت الحرف الـذي عقد له الباب مبتدأ بالحـرف الذي عقد له الباب مع الهمزة، ثم مـع الباء انتهاء بالحروف التي سبقت الحرف الذي عقد له الباب[2].

أمثلة من التأصيل عند ابن فارس:

–أصول يمكن ردّها إلى معنى جامع:

من ذلـك ما ساقه في الأصـل (أَلَّ)، قال ابن فارس: «(أَلَّ) الْهَمْزَةُ واللَّامُ فِي الْمُضَاعَف ثَلَاثَةُ أُصُول: اللَّمَعَانُ فِي اهْتِزَاز، والصَّوْتُ، والسَّبَبُ يُحَافَظُ عَلَيْه. قَالَ الْخَلِيلُ وابْـنُ دُرَيْد: أَلَّ الشَّيْءُ: إِذَا لَمَعَ. قَالَ ابْنُ دُرَيْد: وسُمِّيَت الْحَرْبَةُ أَلَّـةً لِلَمَعَانِهَا. وأَلَّ الْفَرَسُ يَئِلُّ أَلًّا: إِذَا اضْطَرَبَ فِي مَشْيه. وأَلَّتْ فَرَائِصُهُ: إِذَا لَمَعَتْ فِي عَدْوه....

وأَمَّا الصَّوْتُ فَقَالُوا فِي قَوْله:

وطَعْنٍ تُكْثِرُ الْأَلَلَيْنِ مِنْهُ
فَتَاةُ الْحَيِّ تُتْبِعُهُ الرَّنِينَا

إِنَّهُ حِكَايَةُ صَوْت الْمَوْلِول. قَالَ: والْأَلِيلُ: الْأَنِينُ فِي قَوْله:

إِمَّا تَرَيْنِي تُكْثِرِي الْأَلِيلَا

وقَالَ ابْنُ مَيَّادَةَ:

وقُولَا لَهَا مَا تَأْمُرِينَ بِوامِقٍ
لَهُ بَعْدَ نَوْمَاتِ الْعُيُونِ أَلِيلُ

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: فِي جَوْفِه أَلِيلٌ وصَلِيلٌ. وسَمِعْتُ أَلِيلَ الْمَاء، أَيْ: صَوْتَهُ...

قَالُوا: ورَجُلٌ مِئَلٌّ، أَيْ: كَثِيرُ الْكَلَام وقَاعٌ فِي النَّاس. قَـالَ الْفَرَّاءُ: الْأَلُّ: رَفْعُ الصَّـوْت بِالدُّعَاء والْبُكَاء، يُقَالُ مِنْـهُ: أَلَّ يَئِلُّ أَلِيلًا. وفِي الْحَدِيث: «عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ أَلِّكُمْ وقُنُوطِكُمْ وسُرْعَةِ إِجَابَتِه إِيَّاكُمْ».

والْمَعْنَى الثَّالِثُ: الْإِلُّ: الرُّبُوبِيَّةُ. وقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَمَّا ذُكِرَ لَهُ كَلَامُ مُسَيْلِمَةَ: «مَا خَرَجَ هَذَا مِنْ إِلٍّ» وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: الْإِلُّ: اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. وقَالَ قَوْمٌ: هِيَ قُرْبَى الرَّحِم»[3].

يُلحـظ مـن كلام ابن فارس علـى الأصـل (أَلَّ) أنّه سـاق ثلاثـة أصـول: اللمعـان في اهتـزاز، والصوت، والسبـب يُحافظ عليه، غير أنّـه لم يرجع هذه الأصول إلى معنى واحد جامع.

١– انظـر ترجمتـه في: إنبـاه الـرواة ١ / ١٢٧، وسـير أعـلام النبلاء ٣٣ / ٩٣، وبغيـة الوعـاة ١ / ٣٥٢. وانظـر: مقدّمـة تحقيـق المقاييس للأستاذ هارون ١ / ٣، وما بعدها.

٢– انظر: أصل ما زاد على ثلاثة عند ابن فارس ص١٧.

٣– انظر: مقاييس اللغة ١ / ١٨.

والنظر فيها يُفضي إلى معنى يجمع بينها.

فقد ألمح د. محمّد حسن جبل أنَّ الانبساط أو الامتداد يكون بعرض و رقّة، أي دون كثافة أو انثناء، فاللمعان أو البريق يمتدّ، والصوت فيه امتداد لا يخفى، و(الإل) بمعنى القرابة، فيها الامتداد والانبساط عن الأصل[٤].

ومنه ما ساقه ابن فارس نفسه في الأصل (أجر): «الْهَمْزَةُ والْجِيمُ والرَّاءُ أَصْلَانِ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِالْمَعْنَى، فَالْأَوَّلُ الْكِرَاءُ عَلَى الْعَمَلِ، والثَّانِي جَبْرُ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ. فَأَمَّا الْكِرَاءُ فَالْأَجْرُ والْأُجْرَةُ. وكَانَ الْخَلِيلُ يَقُولُ: الْأَجْرُ جَزَاءُ الْعَمَلِ، والْفِعْلُ أَجَرَ يَأْجُرُ أَجْرًا، والْمَفْعُولُ مَأْجُورٌ. والْأَجِيرُ: الْمُسْتَأْجَرُ. والْأُجَارَةُ مَا أَعْطَيْتَ مِنْ أَجْرٍ فِي عَمَلٍ وقَالَ غَيْرُهُ: ومِنْ ذَلِكَ مَهْرُ الْمَرْأَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ [النساء: ٢٤] .

وأَمَّا جَبْرُ الْعَظْمِ فَيُقَالُ مِنْهُ أَجَرْتُ يَدُهُ. ونَاسٌ يَقُولُونَ أَجَرَتْ يَدُهُ. فَهَذَانِ الْأَصْلَانِ. والْمَعْنَى الْجَامِعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ أُجْرَةَ الْعَامِلِ كَأَنَّهَا شَيْءٌ يُجْبَرُ بِهِ حَالُهُ فِيمَا لَحِقَهُ مِنْ كَدٍّ فِيمَا عَمِلَهُ»[٥].

فقد أورد أصلين للفظ، وربطهما بمعنى يجمع بينهما، أو معنى محوري كما ساق الدكتور السيد حسن، فذكر أنّ الأجر الثواب، وهو جبر للعامل على عمل الخير[٦].

والأجرة: الكراء، وهي جبر للعامل على كدّه ومشقّته، والأجور المهور، وإنما سمّي المهر أجراً؛ لأنه بدل المنافع، وليس ببدل من الأعيان، كما سمّي بدل منافع الدار والدابة أجراً.

فالمهر: جبر للمرأة على المنافع التي تؤديها لزوجها.

فالمعنى متقارب متدانٍ، وهذا يقود إلى الكلام على المعنى المتداني لدى ابن فارس.

المعنى المتداني:

ثمّة ألفاظ نصّ ابن فارس على أن معناها يكون متدانياً، منها: ما ساقه في(أَمَنَ)، قال: «الْهَمْزَةُ والْمِيمُ والنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، ومَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، والْآخَرُ التَّصْدِيقُ. والْمَعْنَيَانِ كَمَا قُلْنَا مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَمَنَةُ مِنَ الْأَمْنِ. والْأَمَانُ إِعْطَاءُ الْأَمَنَةِ. والْأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ.

يُقَالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وأَمَنَةً وأَمَانًا، وآمَنَنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَانًا. والْعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ أُمَّانٌ: إِذَا كَانَ أَمِينًا...

وبَيْتٌ آمِنٌ ذُو أَمْنٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ [إبراهيم: ٣٥] . وأَنْشَدَ اللِّحْيَانِيُّ:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا اسْمَ وَيْحَكِ أَنَّنِي
حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أَخُونُ أَمِينِي

أَيْ: آمِنِي. وقَالَ اللِّحْيَانِيُّ وغَيْرُهُ: رَجُلٌ أُمَنَةٌ: إِذَا كَانَ يَأْمَنُهُ النَّاسُ ولَا يَخَافُونَ غَائِلَتَهُ؛ وأَمَنَةٌ بِالْفَتْحِ يُصَدِّقُ مَا سَمِعَ ولَا يُكَذِّبُ بِشَيْءٍ، يَثِقُ بِالنَّاسِ. فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَعْطَيْتُ فُلَانًا مِنْ آمَنِ مَالِي فَقَالُوا: مَعْنَاهُ مِنْ أَعَزِّهِ عَلَيَّ. وهَذَا وإِنْ كَانَ كَذَا فَالْمَعْنَى مَعْنَى الْبَابِ كُلِّهِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْ أَعَزِّهِ عَلَيْهِ فَهُوَ الَّذِي تَسْكُنُ نَفْسُهُ. وأَنْشَدُوا قَوْلَ الْقَائِلِ:

ونَقِي بِآمَنِ مَالِنَا أَحْسَابَنَا
ونُجِرُّ فِي الْهَيْجَا الرِّمَاحَ ونَدَّعِي

وأَمَّا التَّصْدِيقُ فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا**﴾ [يوسف: ١٧] أَيْ: مُصَدِّقٍ لَنَا. وقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ « الْمُؤْمِنَ » فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَنْ يَصْدُقَ مَا وَعَدَ عَبْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ. وقَالَ آخَرُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ لِأَوْلِيَائِهِ يُؤْمِنُهُمْ عَذَابَهُ ولَا يَظْلِمُهُمْ. فَهَذَا قَدْ عَادَ إِلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ. ومِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ:

٤- انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم٤ / ١٩٣٧.

٥- انظر: مقاييس اللغة ١ / ٦٢.

٦- انظر: ردّ ما تعددت أصوله في المقاييس إلى أصل واحد، مجلة الدراية، ص ٥٤٤.

وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ يَمْسَحُهَا
رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ والسَّعَدِ

ومِنَ الْبَابِ الثَّانِي – واللَّهُ أَعْلَمُ – قَوْلُنَا فِي الدُّعَاءِ: «آمِينَ» قَالُوا: تَفْسِيرُهُ: اللَّهُمَّ افْعَلْ، ويُقَالُ: هُو اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ:

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ وابْنُ أُمِّه
أَمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

ورُبَّمَا مَدُّوا، وحُجَّتُهُ قَوْلُهُ:

يا رَبِّ لَا تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَدًا
ويَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَا»[٧]

فقد ساق للفظ أصلين متقاربين–كما نصّ عليهما– أحدهما: الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، ومَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، والْآخَرُ التَّصْدِيقُ.

وأصل اللفظ من قولهم: «ناقة أَمُون: أمينةٌ وثيقةُ الخلق. قال طرفة:

أمون كألواح الإران[٨] نسأتها
على لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ برجدِ

وقال أبو الربيس:

يكادُ يَفُوقُ المَيْسَ ما لم يَرُدّها
أمينُ القُوى من صُنْعِ أَيْمَنَ حادرِ[٩]

فوصف الزمام القَويّ بأنه أَمينُ القُوى.

المعنى المحوري وثاقة في الباطن. كالناقة الوثيقة الخَلْق، وكقُوى الحبل الأمينة القوية. وآمَنُ المال وآمَنُ الدواء: خالصُه: لُبُّه المتمكّنُ في باطنه.

ومن ذلك الأَمْن ضد الخوف كأن الآمن تمكّن في حصْن، أو امتلأ قلبه امتلاء شديدًا بما يُطَمْئنه. ﴿**وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ [قريش: ٤].

و"الأمانة: الوديعة" التي تودَع عند من يحفظها كأن معنى اسمها: التي ينبغي أن تُحْفَظَ في حِرْزٍ أوثقَ الحفظ. ﴿**فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

من ذلك «آمن بالشيء: صدّق» (قبل الكلام، ووثق به، فتمكن من قلبه). و«الإيمان: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة» أي الإيمان بدين أو عقيدة (قبول العقيدة وتمكنها في القلب وامتلاؤه بها). ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٨٥][١٠].

والنظر في كلام الدكتور حسن جبل يفضي إلى أنّ الأصلين لدى ابن فارس يردّان إلى معنى محوري واحد، وهو (تمكّن الشيء)، وفيه ردّ على ابن فارس الذي جعلهما أصلين، ولكن معناهما يتدانى.

على أنّ الدكتور حسن جبل يتكلّف في هذا–في رأيي–وعلّة ذلك أنّ ابن فارس لم يكن همّه في معجمه المقاييس ردّ الألفاظ إلى معنى واحد، لأن هذه الفكرة قد نشأت على يد ابن جني في الاشتقاق الأكبر.

الأصول المتباعدة:

قال ابن فارس في (أصل): «الْهَمْزَةُ والصَّادُ واللَّامُ، ثَلَاثَةُ أُصُولٍ مُتَبَاعِدٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

أَحَدُهَا: أَسَاسُ الشَّيْءِ، والثَّانِي: الْحَيَّةُ، والثَّالِثُ: مَا كَانَ مِنَ النَّهَارِ بَعْدَ الْعَشِيِّ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَالْأَصْلُ أَصْلُ الشَّيْءِ، قَالَ الْكِسَائِيُّ فِي قَوْلِهِمْ: "لَا أَصْلَ لَهُ ولَا فَصْلَ لَهُ": إِنَّ الْأَصْلَ الْحَسَبُ، والْفَصْلَ اللِّسَانُ. ويُقَالُ: مَجْدٌ أَصِيلٌ. وأَمَّا الْأَصَلَةُ فَالْحَيَّةُ الْعَظِيمَةُ. وفِي الْحَدِيثِ فِي ذِكْرِ الدَّجَّالِ: «كَأَنَّ رَأْسَهُ أَصَلَةٌ». وأَمَّا الزَّمَانُ فَالْأَصِيلُ بَعْدَ الْعَشِيِّ وجَمْعُهُ أُصُلٌ وآصَالٌ. و[يُقَالُ] أَصِيلٌ وأَصِيلَةٌ، والْجَمْعُ أَصَائِلُ. قَالَ:

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ
وأَقْعُدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالْأَصَائِلِ»[١١]

٧– انظر: مقاييس اللغة ١ / ١٣٣.

٨– الإران: التابوت من خشب.

٩– انظر: المَيس: الرَّحْل. يفوق: يكسر– حادر: غليظ.

١٠– انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ٤ / ٢١٢٥ وما بعدها.

١١– انظر: مقاييس اللغة ١ / ١٠٩.

وساق الدكتور حسن جبل أنّ «أَصْل الشجرة (جِذْرها). وقد استأصَلَتْ الشجرةُ: نبَتَتْ وثَبَتَ أصلُها. وأَصْلُ الجبل وأَصْلُ الحائط: قاعدتاهما [الأساس والمفردات]. والأَصَلة -محركة: حَيّة قصيرة. . . ضَخْمة عظيمة - لها رجل واحدة تقوم عليها وتُساور».

ثم قال: «المعنى المحوري امتداد في العمق يقوم عليه الشيء، ويمتد منه إلى الأعلى. كقاعدتي الجبل والحائط لهما، وجذر الشجرة لها، وتلك الأصلة لها قائمة تقوم عليها. ﴿**كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٢٤]. ﴿**مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [الحشر: ٥]. ومن ذاك «أَصْلُ كل شيء: أسفلُه» (يقوم عليه) ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: ٦٤]. ومن هذا: "أَصُلَ الشيء - ككَرُمَ: صار ذا أصل. وقد استأصلَتْ الشجرة (قاصر): ثبت أصلها. واستأصله: قَلَعه من أصله. ونخل أصيل بالأرض: هو بها لا يزال (امتداد في عمق الزمن). وقَطْعٌ أصيل: مستأصل (يقطع الأصل)، وجاؤوا بأصيلتهم أي بأجمعهم (بجذورهم) والأصيل: العَشيّ من العصر إلى المغرب باعتبار أنه أول دخول زمن الليل ﴿**بُكْرَةً وأَصِيلًا**﴾. وسائر ما في القرآن من التركيب هو (الأصيل) بمعناه هذا، وجمعه (الآصال). وأما «أَصِلَ الماءُ (تعب): تغير طعمه وريحُه من حَمْأة فيه فهو من امتداده، أي طول بقائه وثباته، كما في الأصل»[١٢].

ويلحظ من كلامه أنّه ردّ الأصل الأول والثاني إلى الامتداد في الشيء، على أن ابن فارس نصّ على تباعد هذه الأصول من حيث معناها.

ويلمح من كلام د. جبل أن الأصل الثالث متباعد عن الأصلين السابقين.

ولعل لطف التأويل يقود إلى أنّ الأصل الثالث، وهو (الأصلة) يمكن أن يردّ إلى الامتداد، فهذا الضرب من الحيّات -على ما ساقت المعجمات- حية قتالة تثب على الإنسان فتهلكه[١٣].

فكأنّ في وثوبها امتدادًا لتطال فريستها، وعليه فهذا الأصل يمكنّ أن يضمّ إلى الأصلين السابقين.

وهذا يقود إلى **الكلام على فكرة الأصل عند ابن فارس، ومقارنتها بما ابتدعه ابن جني في باب الاشتقاق الأكبر، إذ ردّ التقاليب إلى معنى جامع مشترك**، ولذا سأسوق كلام ابن فارس في الأصل (برج)، ثم سأقارنه بكلام ابن جني على الأصل نفسه.

قال ابن فارس في (برج): «الْبَاءُ والرَّاءُ والْجِيمُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْبُرُوزُ والظُّهُورُ، والْآخَرُ الْوَزَرُ والْمَلْجَأُ. فَمِنَ الْأَوَّلِ الْبَرَجُ وهُو سَعَةُ الْعَيْنِ فِي شدَّةِ سَوادِ سَوادِهَا وشدَّةِ [بَيَاضِ] بَيَاضِهَا، ومِنْهُ التَّبَرُّجُ، وهُو إِظْهَارُ الْمَرْأَةِ مَحَاسِنَهَا.

والْأَصْلُ الثَّانِي الْبُرْجُ واحِدُ بُرُوجِ السَّمَاءِ. وأَصْلُ الْبُرُوجِ الْحُصُونُ والْقُصُورُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء: ٧٨] . ويُقَالُ: ثَوْبٌ مُبَرَّجٌ: إِذَا كَانَ عَلَيْهِ صُوَرُ الْبُرُوجِ»[١٤].

ويلحظ من كلام ابن فارس أنّه لم يربط بين الأصلين، وكلامه يفضي إلى أنهما يردّان إلى الظهور والبروز.

وهذا ما ذكره الدكتور حسن جبل، فساق أن المعنى المحوري: « بروزُ ناصعٍ قويٍّ من بين ما يكتنفه في ظاهر الشيء: كالأزهار وهيَ لفائف أوراق ذات لون ناصع متميز تَنْبت من جرم الشجرة، وكالزُّبْد وهو كثيف ذو حدّة ينفذ من أثناء اللبن بواسطة المِخْضَة، وكما بين الحاجبين، وهو مساحة واسعة بَلْجاء (خالية من الشعر)، وكبياض العَيْن الواسع. والعينُ بارزة من بين الجفنين. وكل ذلك مكتنَف بما يخالفه: الزهرُ بالورق، والزُّبْد باللبن، وما بين الحاجبين بهما، والعين بالجفون.

١٢- انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ٣ / ١٢٤٩.

١٣- انظر: أساس البلاغة ١ / ٢٩.

١٤- انظر: المقاييس ١ / ٢٣٨.

ومنه «تبرجت المرأة: أبدتْ محاسنَ جيدها ووجهَها، وأظهرت محاسنها وجسمها للرجال» (أجزاء واسعة ناصعة من عنقها وأعلى صدرها تكشف عنها الثوب) ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]

«وبروج السماء» أيضًا من هذا؛ إذ هي مساحات واسعة من حزام فضائيّ مُتَوهَّم ذات بياض أو خالية مكشوفة، ينزل فيها القمر والشمس [ينظر معجم الوسيط] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ومثلها ما في [الفجر: ١٦، الفرقان: ٦١]. والبروج كذلك: البيوت التي تبني على أركان سور القصر والمدينة. قال في [تاج] وقيل لها بروج لظهورها وبياضها وارتفاعها". وهو مناسب.

وكذلك البروج (الحصون) ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وكذلك: ﴿البوارج: السّفُن الكبار﴾، ولا بد أنها تبدو على وجه الماء غريبة تلفت بضخامتها وارتفاعها، فهي من الظهور»[١٥].

ويلحظ من كلامه أنّه ردّ الأصلين إلى (الظهور والبروز)؛ زاعمًا أن تراكيبها (بجر / برج / جبر / جرب / ربج / رجب) كلها تدل على القوة والشدة. وكذلك فعل في مثال مادة (ك ل م). وقد ناقشنا هذه النظرية حتى نقضناها. وكان من مناقشتنا التطبيقية لها أن شرحنا معاني تلك التقاليب الثمانية عشر وبيّنا عدم تطابق معنيي أي تركيبين من أي مادة من المواد الثلاث، وأن أقصى ما هناك أن يتقارب معنيا تركيبين فحسب، وأن تقارب معاني التراكيب الستة هو مجرد دعوى وتكلف وخِلابة، دفع إليها طغيان الفكرة على ذهن ابن جني رحمه الله[١٦].

ويُلحظ من كلام الدكتور جبل نقضه لنظرية ابن جني في ردّ التقاليب إلى معنى واحد جامع، وهذا يستدعي الكلام على الأصل الذي استقى منه ابن جني هذه النظرية، ثم الردّ على منكري نظريته، وقد استوفيت هذا في كتاب فقه اللغة، فسقتُ ما نصّه:

تنبّه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) في معجمه العين إلى هذه الروابط المعنوية في الاشتقاق الكبير، وكذلك أبو علي الفارسي (ت٣٧٧ هـ) أستاذ ابن جني، إلا أن الذي توسع في هذا الموضوع وضرب الأمثلة الموضحة على ذلك هو ابن جني نفسه، وقد أشار إلى ذلك في باب الاشتقاق الأكبر فقال: «هذا موضع لم يسمّه أحد من أصحابنا؛ غير أن أبا علي – رحمه الله – كان يستعينُ به، ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر. لكنه مع هذا لم يسمّه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويَستروح إليه، ويتعلَّل به. وإنما هذا التقليب لنا نحن»[١٧].

وعلى هذا فإن فكرة الاشتقاق الكبير اقتُبست من معجم العين للخليل (١٧٥) والجمهرة لابن دريد (٣٢١) وغيرهما من المعاجم، إذ كان كل منهما يعرض لشرح كلمة من الكلمات ثم يذكر معها تقلباتها، ويذكر معنى كل صورة من صورها دون التعرض للربط بين دلالات تلك الصور، فهي طريقة إحصائية لحصر كل المستعمل من كلمات اللغة، ولمَّا جاء أصحاب الاشتقاق كابن جني ربطوا بين دلالات الصور، وأوجدوا معانيَ عامةً مشتركةً بينها، وسمي هذا بالاشتقاق الكبير.

ولتوضيح هذا سنأخذ مثالاً على ذلك:

فمثلاً نأخذ مادة (ج ب ر) وتقاليبها (ب ر ج) (ر ج ب) (ج ر ب) (ب ج ر) (ر ب ج) ونرى أولاً معالجة ابن دريد لها.

قال ابن دريد في (ج ب ر) هو جبور العظيم، والجبارة: الخشب الذي يُشَدّ على العضو المكسور، وأجبرت الرجل على كذا فهو مجبر، والجَبْر الملك.

(ب ر ج) البُرج من بروج الحصن أو القصر، والبَرَج وهو نقاء بياض العين وصفاء سوادها، وتبرجت المرأة إذا أظهرت محاسنها.

١٥– انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ١ / ١٠١.

١٦– انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم١ / ٤٣.

١٧– الخصائص: ٢ / ١٣٣.

(ر ج ب) رَجْب الرجل: إكرامُه وتعظيمُه، وشهر رجب سمي بهذا الاسم لتعظيمهم إياه، والرُّجْبة ما تُسند به النخلة إذا مالت وكرُمت على أهلها، والراجَبة أحد فصوص الأصابع.

(ج ر ب) الجرب وهو الداء المعروف، الجَرَبَّة الأقوياء من الناس إذا اجتمعوا وكذلك التجارب، والرجل المجرّب، وجُرُبَّان السيف: قرابُهُ.

(ب ج ر) البَجْرة أو البُجْرة أو البَجَرة: السرة الناتئة، وقولهم: هذا أمر بُجْريّ أي عظيم، والجمع البَجاري وهي الدواهي العظام.

(ر ب ج) الرجل الرِّباجي الذي يفخر بأكثر من فعله.

ومن خلال هذه المعاني لمادة (ج ب ر) وتقاليبها نرى أن ابن دريد اكتفى بعرض التقاليب، وأهمل المعنى الذي اشتركت فيه.

وننتقل إلى ابن جني لنرى تقاليب المادة نفسها عنده في خصائصه، فنجد أنه نفذ من خلال المادة بفكر ثاقب يؤكد لنا أنه حفظ معجم الجمهرة في قلبه، وذلك عندما نرى شروحه لمفردات المادة الواحدة. لقد جمع ابن جني تقاليب المادة وما علم أنه متصرف منها، فأهمل بلطف ورشاقة ما لم ينسجم مع المعنى العام الذي استنبطه، وأوضح ما فيه شيء من الغموض، وأسهب فيما وجد أن معناه يتناسق مع المعنى الذي غاص عليه، وإذا هو يرى أن تقاليب (ج ب ر) أينما وقعت، فهي للقوة والشدة. وذلك كما يأتي:

(جبرت) العظم والفقير، إذا قويتهما وشَدَدْت منهما، والجَبْر: الملك لقوته وتقويته لغيره.

و(رجل مجرَّب) إذا جرَّستْه الأمورُ ونجّذَته، فقويت مُنَّته، واشتدت شكيمتُه. ومنه الجِرَاب لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حُفظ الشيء وروعي اشتدّ وقوي.

و(الأبجر والبُجْرة) وهو القوي السُرَّة.

و(البِرَّج) لقوته في نفسه وقوة ما يليه، وكذلك البَرَج لنقاء بياض العين وصفاء سوادها، هو قوة أمرها، وأنه ليس بلونٍ مستضعف.

و(رجَبت) الرجل إذا عظَّمته وقوّيت أمره. ومنه رَجَب لتعظيمهم إيّاه عن القتال فيه، والراجِبة أحد فصوص الأصابع، وهي مقوية لها.

و(الرَّبَاجيّ) وهو الرجل يفخر بأكثر مِنْ فعله، فهو يعظّم نفسه، ويقوّي أمره.

إن النظرة الأولى إلى تقاليب ابن جني تبين أن هناك تكلفاً بعيداً وقع فيه حين حاول أن يرد التقاليب إلى أصل واحد ورابط واحد.

والرابط الذي اهتدى إليه ابن جني كان شديد العموم، فهو توصل إلى أن الأصل هو القوة والشدة وهما كلمتان شديدتا العمومية. تترادفان وتتعاقبان حين لا يجد المتكلم سبيلاً لتحديد المعنى وتفصيله.

ولو قارنا أيضاً ما فعله ابن جني في هذه التقاليب بفعل آخر معاصر له لكنه ينكر هذا الاشتقاق الكبير ولا يؤمن به وهو ابن فارس (ت٣٩٥هـ) صاحب معجم مقاييس اللغة لوجدنا أن ابن فارس في هذا الموضوع أكثر اعتدالاً، فهو كابن جني مطلعٌ على ما جاء في جمهرة ابن دريد، لكنه حين ذكر في المقاييس صور تقاليب (ج ب ر) لم يفسرها جميعاً بالقوة والشدة جملة واحدة، بل ردّ بعضها إلى أصل، وبعضها إلى أصلين، وإذا أمعنا النظر في الأصول التي أوردها نجد أنه لا يجمعها شيء إلا رابط ضعيف، وهذه التقاليب هي:

تقليب (ج ب ر) فيرى ابن فارس أنه أصل واحد، وهو جنس من العظمة والعلو والاستقامة. ويفسر به (الجبّار) الذي طال وفات اليد؛ والنخلة الجبّارة العالية ولمَّا تحدث عن جبور العظم جعله من معنى الاستقامة.

وهذا الأصل لا يرادف ما قاله ابن جني (القوة والشدة).

أما تقليب (ب ر ج) وجد فيه أصلين أحدهما البروز والظهور، والآخر الوزر والملجأ، فردّ إلى الأول بَرَج العيون الجميلة وتبرج المرأة، وإلى الثاني بروج الحصون والقصور، وفي هذا التقليب أيضاً إذا كان هناك علاقة بين الملجأ فأي علاقة بين القوة والشدة وبين البروز والظهور؟

وفي مـادة (ر ج ب) نجـد ابن فارس يتلاقى مع ابن جنـي في ملاحظـة معنى القـوة، إلا أن ابـن فارس أدق تعبـيراً، فهو يـرى أن الراء والجيم والبـاء أصل يدل على دعم شيء بشيء وتقويته.

وفي مـادة (ج ر ب) جعـل هـذه المـادة في أصلـين: أحدهمـا الشـيء البسيط يعلـوه كالنبات مـن جنسه، والآخر شيء يحوي شيئاً.

وفي هـذا تكلـف واضح، فقـد ظنّ عند ذكـر الأصل الأول أنـه لا شيء يعبّر عـن مفهوم الجرَب، وهو الداء المعروف سوى هذا الأصل، فهو يرى في توضيحه لهذا الأصـل أنه لا بد من أن ينبت علـى الشيء نبات بسيط مـن جنسه أو شيء يشبه هـذا النبات حتى يتم تصور الجـرَب. وإذا كان ابـن دريد متكلفاً في هـذا التوضيح لمعنـى الجرب فـإن ابن جني هرب منه أصـلاً؛ لأنه لن يجد هناك ما يربط بين القوة والشدة بالمرض.

أما الأصل الآخر (ج ر ب) وهو الشيء يحوي شيئاً فقـد أدرج فيه ابن فارس الجراب المعروف، وربط هذا بجـراب البئر، وهو جوفها من أعلاها إلى أسفلها، لأن جوف البئر كالجراب الذي يحوي ماءها وغيره.

ونقـل معنى الاحتـواء، بلطف الصنعـة، إلى معنى التجمـع، ورأى الأقوياء من الناس إذا اجتمعوا سمّوا «جَرَبَّـة»، ولقد ذكر هذا ابن دريد في تقاليبه، ولكن ابن جنـي لم يشـر إلى ذلك مـع أنه أقـرب إلى تحقيق معنى القوة والشدة من كثير من الأمثلة التي ذكرها.

وفي مـادة (ب ج ر) أصـل واحد وهـو تعقُّد الشيء وتجمعُـه، وهو المعنى الأدق فالرجـل الأبجر هو الذي تخرج سُرّتُـهُ، وتتجمع عندها العـروق، وليس القوي السـرة كمـا ذكر ابن جني، فأين معنـى القوة والشدة في السرة الناتئة؟

أمـا في مـادة (ر ب ج) فذكـر ابـن فارس كلمـة (التربـج) بمعنـى التحير، ونسب تفسيرهـا بذلك إلى الخليـل. فأين تفسير ابن جنـي لمادة (ر ب ج) بالقوة والشدة من هذا المعنى (التحيّر)؟

ومع ولوع ابن جني بهذا النوع من الاشتقاق لم يكن يبالـغ فيه، ولم يكن يَدّعي أن هـذا النوع من الاشتقاق يصـح في جميع مواد اللغة، إذ قال: «واعلم أنّا لا ندّعي أن هـذا مستمر في جميـع اللغة، كما لا ندّعي للاشتقاق الأصغـر أنـه في جميع اللغـة، بل إذا كان ذلـك متعذراً صعبـاً، كان تطبيق هذا وإحاطتُه أصعبَ مذهباً، وأعزَّ مُلتمسـاً»[١٨]. ومع ذلك فقـد انتقد السيوطي ابن جني في اشتقاقـه هذا، وتحامل عليه بعضـ الشيء، إذ قال: «وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة، فيجعل (ق و ل) وتقاليبهـا الستـة بمعنى الخفـة والسرعة، وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح بن جني، وكان شيخهُ أبو علـي الفارسي يأنس به يسيراً، وليس معتمداً في اللغة، ولا يصـح أن يستنبط بـه اشتقاق في لغة العرب، وإنما جعلـه أبو الفتح بياناً لقـوة ساعده وردّه المختلفات إلى قَدَرٍ مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلـكَ الصيـغ، وأن تراكيبهـا تفيد أجناسـاً من المعاني مغايرة للقـدر المشترك، ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيـب المتحدة المادة معنى مشترك بينها، هو جنس لأنـواع موضوعاتها، ولكن التحيل على ذلك، في جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مغرب»[١٩].

ولم يكـن السيوطـي وحده هو من تحامـل على ابن جني واشتقاقه، فمن المحدثين الذين انتقدوا هذا النوع من الاشتقاق ومبتدعيه الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (مـن أسرار اللغـة)، إذ قـال: «وإذا كان ابـن جني قد استطـاع في عَنَتٍ ومشقـة، أن يسوقَ لنا للبرهنة على ما يزعـم، بضع مواد مـن كل مواد اللغة، التـي يقال إنها في جمهـرة اللغة لابن دريد، تصـل إلى أربعين ألفاً، وفي معجـم اللسان تكاد تصل إلى ثمانـين ألفاً، فليس يكفي مثـل هـذا القـدر الضئيـل المتكلّـف، لإثبات مـا يسمى بالاشتقاق الأكبر»[٢٠].

١٨- الخصائص: ٢ / ١٣٨.
١٩- المزهر: ١ / ٣٤٧.
٢٠- من أسرار اللغة ٥٢.

قال د. صبحي الصالح في دراسات في فقه اللغة في تعليقه على ما فعله ابن جني من تكلف من أجل الوصول إلى معنى واحد يربط التقاليب:

«والحق أن ابن جني – في باب الاشتقاق الكبير – لو اكتفى بإحراج نفسه فيما قصر عنه علمُه من إدراك الجامع المشترك بين بعض التقاليب لقلنا: رجل حاول. وهذا مبلغُ علمه، وحسبه شرفاً أنه قد حاول التنقيب عن خفي الروابط ودقيق المعاني، ولكنه أحرج اللغة التي يعشقها ويؤمن بسحر ألفاظها إذ أجَاءها إلى مضيق كبح فيه أنفاسها، وحبس قواها عن التفلت والانطلاق، ألا وهو مضيق الاشتقاق الكبير الذي سماه هو الاشتقاق الأكبر».

كما لاحظ د. صبحي الصالح أن طبيعة الاشتقاق الكبير تقتضي بالتجوّز في التعبير، والإكثار من إخراج الكلام عن ظاهره، والحرص على تلمس الألفاظ العامة، بل الشديدة العموم، لكي تصلح للربط بين صور متعددة ربما تتلاقى في أشياء، ولكنها أيضاً تتباين في أشياء.

ومع كل هذا يظل بحث الاشتقاق الكبير يؤتي ثمره إلى اليوم، حتى ليمكن القول: إن لغويي العرب لم يعرفوا إنتاجاً أعظم منه! كما قال آدم متز في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع)[٢١].

المصادر والمراجع:

– أساس البلاغة، تأليف أبي القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

– أصل ما زاد على ثلاثة عند ابن فارس من خلال معجم مقاييس اللغة، للدكتور سلمان السحيمي، جامعة أم القرى، سلسلة بحوث اللغة العربيّة وآدابها ١٤٢٦ه.

– إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٢م

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان / صيدا، بلا تاريخ.

–سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذَّهَبي، تحقيق مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بلا تاريخ.

–فقه اللغة العربيّة، تأليف د. سكينة محمود موعد، ود. أحمد سليمان الشريف ود. منى طعمة، منشورات جامعة دمشق ١٤٣٠–١٤٣١ه، ٢٠٠٩–٢٠١٠م.

–المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها، تأليف د. محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م.

–معجم مقاييس اللغة، تأليف أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

مراجع للاستزادة

–ابن فارس اللغوي، لغازي طليمات، رسالة لنيل درجة الدكتوراة، قسم اللغة العربية جامعة دمشق.

–ردّ ما تعددت أصوله في مقاييس اللغة إلى أصل واحد، دراسة تطبيقية على حرف الهمزة، للدكتور عبد الظاهر الشنّاوي السيد حسن، مجلة الدراية.

–منهج ابن فارس في تأصيل ما زاد على ثلاثة أحرف، دراسة نقدية في معجم المقاييس، للدكتور سامر بحرة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ٢٠١٣م.

–نظرية ابن فارس بين الأصل والوصل والنقل، معجم المقاييس أنموذجاً، بثينة عرار، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٣م.

٢١– انظر: فقه اللغة العربيّة ص ١٦٤ وما بعدها.

تعدُّد روايات الأمثال في كتب الأمثال العربية القديمة

حتى نهاية القرن السادس الهجري

د. نسرين أكرم عبيد*

تحمل الأمثال العربية القديمة مظهرًا تاريخيًّا واضحًا، لكونها نتاج العرب في الجاهلية في جزء كبير منها بما حملته من أفكار اجتماعية وأخلاقية، وهذا يفسح المجال واسعًا للنظر في صدق محمولاتها وما تنطوي عليه من قدرة على التعبير عن حضور غاب وامَّحت معظم سماته، إلا ما حفظه الأدب منها.

وبسبب ذلك انتقلت الأمثال من صورتها الشفاهية الأولى إلى صورة أخرى تستجيب فيها لتطور العصر والتدوين، فكان التلقي التاريخي للأمثال إزاء موقفين متناقضين منها، الموقف الأول: يعمد إلى إخراج الأمثال من النثر الفني العربي، ويعدها «مقياسًا لدرس اللغة والجملة القصيرة كيف تتكون، ومقياسًا لنوع خاص بعبث الشعوب بالألفاظ والمعاني»[1]، لكنه في الوقت نفسه يحدّ من دراستها فنًّا لصعوبة تحقيق نصوصها الجاهلية.

أما الموقف الثاني فيهتم بالأمثال بوصفها نمطًا من أنماط النثر المتميزة في الجاهلية، ويعدها مصدرًا من مصادر دراسة الأدب الجاهلي، ولا سيما النثري منه، فهي إذا قورنت بالشعر الجاهلي كانت أقلّ عرضة للتحوير والتغيير، فضلًا عن أنها – بسبب عدم معرفة قائليها غالبًا – لا تقدم مادة مغرية للانتحال، لكنها في الوقت نفسه تفشي أسرارًا كثيرة عن العقل العربي الذي غطى عليه أحيانًا كثيرة دويُّ أبواق الشعراء.

إن انطلاق حركة التأليف الأدبي في وقت مبكر من تاريخ الأدب العربي منذ أواسط القرن الثاني الهجري منح الأمثال العربية القديمة فرصة الظهور في مؤلفات خاصة بها، من أجل خدمة اللغة العربية وعلومها، حتى عُدّت دراسة الأمثال بداية تصنيف المعجمات العربية في تدوين الألفاظ وإيضاحها.

* مدرِّسة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة دمشق.

١ – في الأدب الجاهلي: ٣٣١.

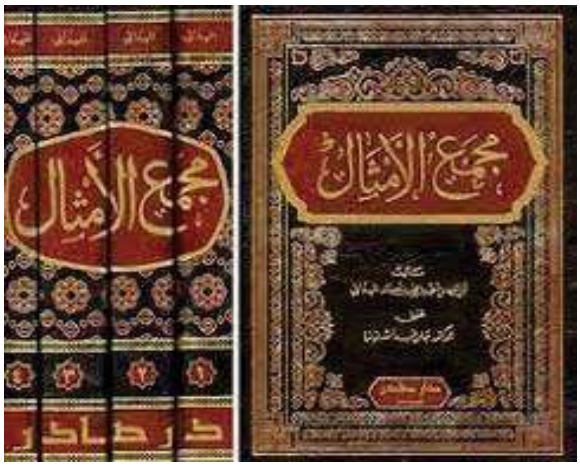

عرض الروايات المتعددة للمثل الواحد:

يقوم منهج المصنفين في الأدب العربي القديم عامة على تحقيق النصوص الأدبية وتوثيقها، وذلك بربط الأثر الأدبي بزمانه ومكانه وشخصياته، ولا سيما إذا كان هذا الأثر شفاهيًا في مرحلةٍ ما من مراحل وصوله إلينا.

وقد تتبع علماء النحو العربي شواهد اللغة العربية، فجمعوا كثيرًا منها، واستنبطوا منها قواعد النحو والصرف، واحتلت الأمثال العربية القديمة مكانة رفيعة بين هذه الشواهد؛ ذلك أنه لم تطلها تُهَمُ النحل والتوليد التي طالت الشعر العربي القديم؛ لكونها تعتمد الرواية الجماعية من أبناء المجتمع العربي، فالمثل لا يكون مثلًا إلا إذا سار في أوساط الناس، وتناقله أبناء المجتمع، وهذا ما يجعل نحله أو تغييره أمرًا صعبًا، من هنا شاعت القاعدة المشهورة (الأمثال لا تتغير)؛ لعدم إمكان تغييرها من جهة، ولعدم إرادة العرب تغييرها من جهة أخرى، لنفاسة المثل عندهم وغرابته، فإحداث أي تغيير فيه يفقده كثيرًا من قيمته الأدبية واللغوية والتاريخية. قال الزمخشري: «ولم يضربوا مثلًا، ولا رأوه أهلًا للتسيير، ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا قولًا فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حُوفظ عليه وحُمي من التغيير»[٢]. وقد بلغ من اهتمامهم بهذه الأمثال أن حافظوا على صورها وكيفية نطقها، وإن كانت ملحونة، فقد نقل السيوطي عن ابن دريد وابن خالويه قولهما: «هكذا جاء الكلام، وإن كان ملحونًا؛ لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت، ولا تستعمل فيها الإعراب»[٣]. وجعلها أبو هلال العسكري من باب الحكاية، فقال: «ويقولون: الأمثال تحكى، يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاءت عن العرب، ولا تُغَيّر صيغتها، فتقول للرجل **(الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ)**[٤]، فتكسر التاء؛ لأنها حكاية»[٥].

إن هذه الأسباب جميعها تزيد من الاطمئنان إلى وصول هذه الأمثال بصيغتها التي نطقها العرب بها، فتجعل الاحتجاج بها أقوى من الاحتجاج بغيرها من الشعر، لما قد يطاله من التحريف والتغيير، ثم إن صدور هذه الأمثال عن طبقات المجتمع العربي كلها يجعلها مرآة صافية للغة العربية بمراحلها كلها.

لكنّ ذلك كله لا يعني خلوّها تمامًا من كل أشكال التغيير، فنال بَعْضَهَا ما نال غيرَهَا من تعدد الروايات الذي اتخذ مظاهر عدة، «منه ما أصاب بنية الكلمة وصيغتها، ومنه استبدال كلمة بأخرى، ومنه التقديم والتأخير، والذكر والحذف في ألفاظ بعض الأمثال»[٦].

ورأى بعض الباحثين أنَّ ثمة أسبابًا لتعدد روايات بعض الأمثال، منها: تشابه صور بعض الحروف العربية، وإهمال النقط في بداية الأمر ثم كثرته، ووجود الحركات، واختلاف الخط بين مشرقي ومغربي، والنساخ والوراقون، والقياس الخاطئ[٧].

لكننا نرى أن تعدد روايات بعض الأمثال يرجع إلى أحد الأسباب الآتية[٨]:

٢_ الكشاف: ١ / ١٩٥.

٣- المزهر: ١ / ٤٨٧.

٤- مجمع الأمثال: (٢٧٢٥) ٢ / ٣٥٨، ولفظه: في الصيف، المستقصى: (١٤٢٦) الهمزة مع اللام. يضرب لمن يطلب شيئًا بعد أن فوّته على نفسه.

٥- جمهرة الأمثال: ١ / ٧.

٦- الأمثال العربية دراسة تاريخية: ٢١٦.

٧- ينظر: قضية التصحيف في التراث العربي: ٤٥-٦٠.

٨- ذكر بعضها عبد المجيد قطامش، ينظر: الأمثال العربية دراسة تاريخية: ٢١٦-٢٢٦.

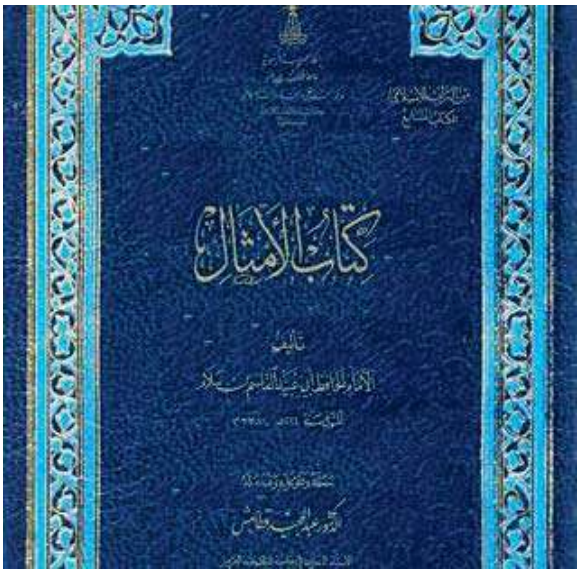

١- أميّة العرب: فعدم انتشار الكتابة بينهم جعلهم يعتمدون على السمع والذاكرة في نقل أدبهم، وحاسة السمع - وإن قويت - قد يفوتها شيء كثير، فيؤدي إبدال بعض الحروف من بعض إلى نشوء كلمات جديدة وروايات متعددة، فمن ذلك قولهم في المثل **(لَمْ يُحْرَمْ مَنْ فُصِدَ لَهُ)**[٩]، فقد روي أيضًا (فزد له)، و(فُزْدَ) بتسكين الزاي، و(فُصْدَ) بتسكين الصاد[١٠].

وقولهم **(الكِلَابَ عَلَى البَقَرِ)**[١١]، يروى أيضًا (الكِرَابُ على البقر)، «وهذا من قولك: كَرَبْتُ الأرض، إذا قلبتها للزراعة»[١٢]، وفي كلتا الروايتين يذكرون (الكلاب والكراب) بالرفع والنصب.

ومنه قولهم **(إِذَا ارْجَعَنَّ شَاصِيًا فَارْفَعْ يَدًا)**[١٣]، فيروى (ارْجَحَنَّ) و(اجْرَعَنَّ)، وكل هذه المفردات تحمل المعنى نفسه، وهو الميل والسقوط. ومثل ذلك كثير منتشر في مجمع الأمثال للميداني[١٤].

والذاكرة لا تخلو من النسيان من جهة أخرى، فتتغير بعض كلمات الأمثال بلا شعور أو إرادة من راويها إلى كلمات أخرى تقاربها في المعنى، فمن ذلك قولهم: **(صَكًّا وَدِرْهَمَاكَ لَكَ)**[١٥]، يروى (غَمْزًا ودرهماك لك)، و(الصك) و(الغمز) الشك والكبس باليد[١٦]. ومنه أيضًا قولهم **(أَرِهَا أَجْلَى أَنَّى شِئْتَ)**[١٧]، يروى (أرعها)، أي: الإبل، ويروى (أَرْتَعَنْ)[١٨].

ومنه أيضًا المثل **(عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقِشُ)**[١٩]، فقد روي (على أهلها دلّت براقش)، والمعنى واحد بين (تجني) و(دلت) في هذا السياق.

ومثله قولهم **(إِنَّ ضَجَّ فَزِدْهُ وَقْرًا)**[٢٠]، يروونه أيضًا (إن جرجر فزده ثقلًا)، و(جرجر) و(ضجَّ) بمعنى: صاح، وهو من صفة الإبل[٢١]. والوقر: الحمل والثقل[٢٢].

٢- كثرة الاستعمال والتداول: وهو ما نبه عليه المبرد وغيره، وذلك أنَّ الأمثال لكثرة دورانها على الألسنة قد تفقد بعض أجزائها اختصارًا، قال المبرد: «والحذف موجود في كل ما كثر استعمالهم إياه»[٢٣]،

٩- مجمع الأمثال: (٣٣٣٦) ٣ / ٩٦، المستقصى: (١٠٤١) اللام مع الميم، وروايته: فُزْدَ. يضرب في القناعة باليسير. الفصد: دم يجعل في معى من عرق البعير، يشوى ويؤكل في الأزمة.

١٠- لم يشرح أحد معنى (فزد) واكتفوا بشرح (فصد).

١١- مجمع الأمثال: (٣٠٣٦) ٣ / ٢١ المستقصى: (١٤٦٥) الهمزة مع اللام. يضرب عند قلة المبالاة.

١٢- مجمع الأمثال: ٣ / ٢١.

١٣- مجمع الأمثال: (٥٣) ١ / ٣٢ المستقصى: (٤٨١) الهمزة مع الذال، ورواه (ارجحنَّ). يضرب في العفو عن العدو عند ذله. شاصيًا: رافعًا رجله.

١٤- ينظر مثلًا مجمع الأمثال ١ / ١٦٣، ٢ / ١٥٠.

١٥- مجمع الأمثال: (٢١٥٨) ٢ / ٢٠٢، المستقصى: (٦٠٣) الغين مع الميم، وروايته (غمزًا). يضرب للرجل تراه يعمل العمل الشديد.

١٦- ينظر: اللسان (صك) و(غمز).

١٧- مجمع الأمثال: (١٥٨٦) ٢ / ٤٣، المستقصى: ذكره في المثل (آبل من حنيف الحناتم) (١) الهمزة مع الألف، وروايته: أزهى أجلى...، أَجَلَى: مرعى معروف، والهاء في (أرها) تعود على الإبل. يضرب مثلًا للشيء بلغ الغاية في الجودة.

١٨- جمهرة الأمثال: ١ / ١٤٣.

١٩- مجمع الأمثال: (٢٤٢٧) ٢ / ٢٧٩. المستقصى: (٥٥٧) العين مع اللام. يضرب لمن يعمل عملًا يرجع ضرره إليه.

٢٠- مجمع الأمثال: (٧٥) ١ / ٣٧. المستقصى: (١٦٠٥) الهمزة مع النون. يضرب في سؤال البخيل وإن كره.

٢١- ينظر: اللسان: (جرر).

٢٢- اللسان (وقر).

٢٣- المقتضب: ٢ / ١٤٦.

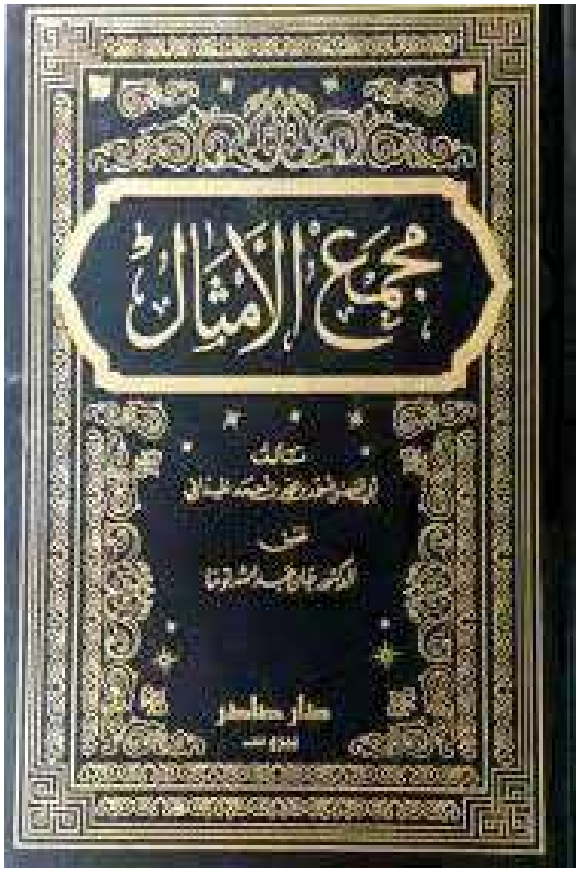

وهو ما سمّاه المحدثون من اللغويين: البلى اللفظي، فكثرة الاستعمال تبلي الكلمات في معناها وفي صيغتها. فمن ذلك: قولهم **(يا حرزا وأبتغي النوافلا)**[٢٤]، فيروى (واحرزاه) فحذف بعض الحروف لكثرة الاستعمال.

وبعض الأمثال جاءت بروايات مختلفة بين مصدرين أو ثلاثة، ومن ذلك قولهم: **(أَنْتَ مَرَّةً عَيْشٌ وَمَرَّةً جَيْشٌ)**[٢٥] والرواية الثانية: مرة عيش ومرة جيش، ولعل الثانية كانت أبلغ وأوجز من الأولى للاقتصاد اللغوي فيها. ومثله قولهم: **(الهَيْبَةُ مِنَ الخَيْبَةِ)**[٢٦]، فله رواية أخرى هي: قرنت بالخيبة، فالأولى صيغة تقريرية اسمية والثانية صيغة فعلية. وهذا الاختلاف أثر من آثار كثرة الاستعمال والتداول، فالمعنى واحد واللفظ مختلف، واختلاف اللفظ هنا يعود غالبًا إلى سعي القائل وراء السهولة واليسر في النطق والاقتصاد في اللفظ.

٣- التقارب في مخارج بعض الحروف: إذ إن تقارب بعض الحروف في مخارجها يؤدي إلى إبدال بعض الكلمات من بعض، فتنشأ روايات جديدة وصحيحة كما في قولهم: **(لَا أَتِيْكَ سَجِيْسَ عُجَيْس)**[٢٧]، إذ روي أيضًا لا آتيك سجيس غُبيس، فالعين والغين حلقيتان تشتركان في المخرج وهو الحلق، فكان ذلك سببًا في قلبهما وتبادلهما المخرج دون تغيير في المعنى، فأما العين فمخرجها وسط الحلق، وأما الغين فمخرجها أدنى الحلق[٢٨]، وكذا الاختلاف بين حرفي الباء والجيم، فالباء شفوية مخرجها مما بين الشفتين معًا، أما الجيم فشجرية مخرجها من شجر الفم أي منفتحة من وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى[٢٩].

٤- اختلاف لهجات العرب: وهو من أكثر العوامل التي تؤثر في تعدد روايات الأمثال، فإن العربي – مع محافظته على صيغة المثل – قد ينطقه بلهجته الخاصة بقبيلته، مع اختلاف النطق بين الحضر والبادية، فمن ذلك قولهم **(حُبَّ إلى عَبْدٍ مَحكِدُهُ)**[٣٠]، يروى أيضًا (حبيب إلى عبد سوء محقده، ومحتده) وقد نص الميداني على أن (المحكد) لغة عقيل، و(المحقد) لغة كلاب.

٢٤- مجمع الأمثال: (٤٦٩٠) ٣ / ٤٤٥، المستقصى: (٢٣٢) الهمزة مع الهاء. وروايته (أحرز ذا وأبتغي النوافلا). يضرب في الحث على اكتساب المال.

٢٥- مجمع الأمثال: (١٨٢)، ١ / ٦٤، المستقصى: (١٢٥٧) الميم مع الراء ولفظه: مرة... مرة... يضرب في دول الدهر الجالبة المحابّ والمكاره.

٢٦- مجمع الأمثال: (٤٥٩٠) ٢ / ٤٧٢، المستقصى: (٦٦٧) القاف مع الراء ولفظه: قُرنت الهيبة بالخيبة، يعني: إذا هِبْتَ شيئًا رجعت عنه.

٢٧- مجمع الأمثال: (٣٥٧٣) ٢ / ٢٣٢، المستقصى: (٨٢٩) اللام مع الألف، ولفظه: لَا أفعل ذلك سجيس عجيس، والسجَيس والعجيس: الدهر، سمي بذلك لأنه يبطئ فلا يذهب أبدًا. والمعنى: لا أفعله أبدًا.

٢٨- ينظر: مدخل إلى فقه اللغة: ١٢٠.

٢٩- نفسه: ١٢٠.

٣٠- مجمع الأمثال: (١٠٥١) ١ / ٣٠٦، المستقصى: (٢٠٧) الحاء مع الباء. يضرب لمن يحرص على ما يشينه ويهينه. المحكد: الأصل.

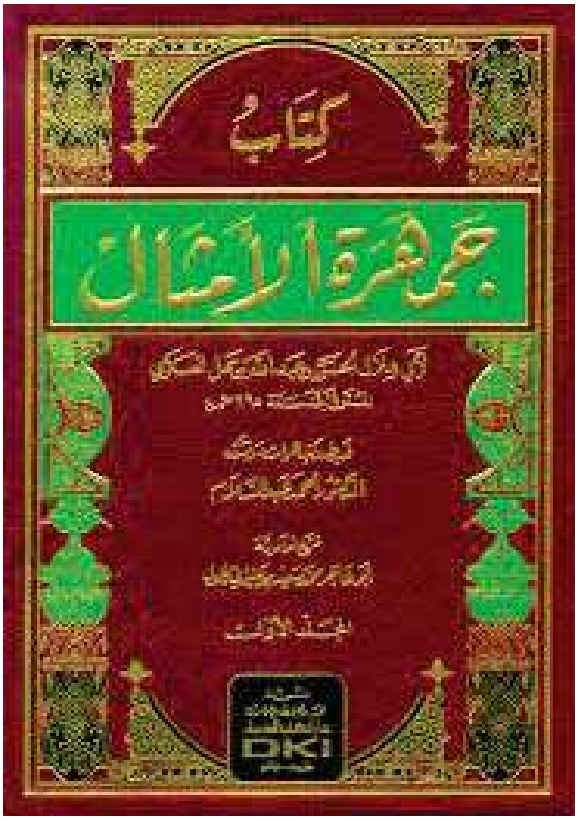

ومنه أيضًا قولهم **(شَرٌّ مَا يُجِيْئُكَ إِلَى مُخَّة عُرْقُوب)**[٣١]، فقد روي (ما يُشِيْئُكَ) بوضع الشين بدلًا من الجيم (وهذه لغة تميم).

ومنه قولهم: **(دُغْرَى لَا صَفًّى)**[٣٢]، فيروى (دغرًا لا صَفًّا)، وقد نص الميداني على أن (دغرى) لغة الأزد.

وثمة مواضع أخرى يمكن رد اختلاف روايات الأمثال فيها إلى اختلاف لهجات العرب[٣٣].

٥- التصحيف والتحريف: والتصحيف هو أن يقرأ الشيء على خلاف ما أراد كاتبه، أو على ما اصطلحوا عليه، وهذا يعني تغيير اللفظ والمعنى، ويكون الفارق عادة في النقط، أما التحريف فهو: تغيير اللفظ دون المعنى، وهذا أمر شائع في معظم مدونات العلوم، فقد تتعدد روايات بعض الأمثال بسبب تشابه الحروف في الصورة والرسم أو النطق، ونبه العلماء على كثير من مواضع التصحيف والتحريف في علوم العربية عامة، ومنها الأمثال العربية القديمة، ومما يستوقف المرء في هذا الباب أن علماء الأمثال يجدون تسويغًا للروايات المصحفة أو المحرفة، حتى إن المرء يكاد يجهل أي الروايتين هي الأصل الذي صُحف أو حُرِّف، فيشرحون الرواية الجديدة من غير عناء أو تكلف في قبولها.

فمن ذلك قولهم في المثل **(مُثْقَلٌ اسْتَعَانَ بِذَقْنِه)**[٣٤]، يروى أيضًا: (بِدَفَّيْهِ)، أي: بجنبيه، وقد نصَّ ابن منظور على أن هذه الرواية فيها تصحيف[٣٥].

ومنه قولهم **(دَقَّكَ بِالمِنْحَازِ حَبَّ القِلْقِل)**[٣٦]، يروى (حب الفِلْفِل). قال الأصمعي: «وهو تصحيف، إنما هو بالقاف، وهو أصلب ما يكون من الحبوب»[٣٧].

ومنه قولهم **(أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الحِرْبَاءِ)**[٣٨]، فقد صُحِّف حتى روى برواية أخرى فقيل: (أصرد من عنز جرباء)، بذلك قال حمزة الأصفهاني[٣٩]. لكن الميداني لم يوافقه في ذلك، فقال: «إنما يكون هذا لو قيل (من عين حرباء) منكَّرًا، فأما إذا قالوا: (من عين الحرباء) معرفًا بالألف واللام، ولا يقال: (عنز الجرباء) فكيف يقع التصحيف!»[٤٠].

٣١- مجمع الأمثال: (١٩١٧) ٢ / ١٣٠ المستقصى: (٤٥٢) الشين مع الراء. وروايته: ما أجاءك. العرقوب: هو العصب الغليظ الموتّر فوق عقب الإنسان. ينظر: اللسان (عرقب). والعرقوب عند العرب طير الشؤم يتطير منه للإبل، لأنه: يعرقبها، أي: يقطع عرقوبها. يضرب المثل في المضطر جدًا.

٣٢- مجمع الأمثال: (١٤٣٤) ٢ / ٤١٣. وليس في المستقصى. دغر: اقتحم من غير تثبت. صفّى: من الصفاء. يضرب في انتهاز الفرصة.

٣٣- ينظر: مجمع الأمثال: ٢ / ٣٨، ١ / ١٧٠، ١ / ١٧٥، ١ / ٢٨١، ١ / ٢٧٧.

٣٤- مجمع الأمثال: (٣٧٧١) ٣ / ٢٠٧، المستقصى: (١٢٥٠) الميم مع الثاء. يضرب في الذليل يستعين بمثله.

٣٥- ينظر: اللسان (ذقن).

٣٦- مجمع الأمثال: (١٣٩٤) ١ / ٤٠٣، المستقصى: (٢٩٢) الدال مع القاف. المنحاز: الهاون يُدَقّ به. القلقل: شجيرة خضراء لها حب حلو طيب يؤكل. يضرب في الإلحاح على الشحيح.

٣٧- اللسان (قلل).

٣٨- مجمع الأمثال: (٢١٨٠) ٢ / ٢١٠. المستقصى: (٨٤٣) الهمزة، مع الصاد. الصرد: البرد.

٣٩- ينظر: الدرة الفاخرة: ١ / ٢٦٧.

٤٠- مجمع الأمثال ٢ / ٢١.

وبدأ أبو هلال العسكري أكثر إلحاحًا على تمييز صحيح الأمثال من محرَّفها ومصحّفها من غيره من علماء الأمثال، وذلك بعرض على الرواة الثقات الموثوق بهم، ومن تلك الأمثال قولهم: **(حَلَبَتْ حَلْبَتَهَا وَأَقْلَعَتْ)**[41]، قال العسكري: «قرأناه على أبي علي بن أبي حفص، عن جعفر، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي بالحاء، ورواه غيره بالجيم»[42] على أن رواية الجيم: جلبت جلبتها وأقلعت، لها وجه، «وأصله أن الريح الصيفية التي تُمري السحاب مرية واحدة ثم تقلع ولا تزيد على ذلك، ومن روى: جلبت بالجيم، جعل الفعل للسحابة، وأراد: جلبة الرعد»[43].

فهذا قليل من قليل نبّه العلماء على وقوع تصحيف فيه، لكنّ ما تركوا التبيين عنه أكثر بكثير، ومن ذلك قولهم **(لَأَمُدَّنَّ غَضَنَكَ)**[44]، يروى (لَأَمُدَّنَّ عَصَبَكَ)، وهو قريب من الأول.

ومنه قولهم **(أَبَادَ اللهُ خَضْرَاءَهُمْ)**[45]، يروى (غضراءهم)، فالخضراء في الرواية الأولى: الشجرة التي تفرعوا منها، والغضراء في الرواية الثانية: الخير والخصب.

وثمة أمثال أخرى لها ما زاد على روايتين، منها قولهم **(قَدْ صَرَّحَتْ بِحِلْذَانَ)**[46]، فيروى (بِجِلْدَانَ) و(بِجِلْذَاءَ) و(بِجِدَانَ) و(بجداء)، وهو «موضع بالطائف لين مستو كالواحة لا شجر فيه يُتوارى به، يسكنه بنو نصر بن معاوية من هوازن»[47].

ومنه أيضًا المثل **(عَبْدٌ وَخَلْيٌّ فِي يَدَيْهِ)**[48]، فقد ذُكر له غير رواية تداولتها كتب الأمثال، فقيل: (عبد وخلًا)، و(عبد وخليٌّ)، أي: مع عبوديته غني، لأن «الخلى هو الرطب من الحشيش، وبه سميت المخلاة»[49]، ويروى (عبد وخول) أي: ترك خائلًا، و(خلا) أي: خلاله أمره وملك نفسه، فكل رواية من هذه الروايات اقتضت معنى جديدًا يوافق لفظها.

الاختلاف في أصل المثل، ومضربه: إذ إن تنوّع مصادر الرواة جعل رواياتهم تتعدد في تحديد أصل المثل وقصته، فضلًا عن اختيار ألفاظه، فمن ذلك قولهم في المثل (عِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليَقِينُ)[50]، فيروى (عند جُفَيْنَةَ)، وقد اختار الزمخشري هذه الرواية، ومثله العسكري أيضًا، فجهينة في الرواية الأولى هي القبيلة العربية التي ينتمي إليها الأخنس بن كعب – بطل هذا المثل –، وفي الرواية الثانية هو جُفَيْنَة بن أبي جمل التاجر اليهودي من أهل تيماء.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في قولهم **(أَحْمَقُ مِنْ راعي ضَأْنٍ ثَمَانِيْنَ)**[51]، فهذه رواية محمد بن حبيب؛ «لأن الضأن تنفر من كل شيء فيحتاج راعيها إلى أن يجمعها في كل وقت». أما رواية أبي عبيد فهي (أحمق من طالب ضأن ثمانين)، «وأصل المثل أن أعرابيًا بشَّر كسرى ببشرى سُرَّ بها، فقال له: سَلْني ما شئت، فقال: أسألك ضأنًا ثمانين، فضرب به المثل في الحمق»، واختار الجاحظ رواية أخرى (أَشْغَلُ من مرضع بَهْم ثمانين)[52]؛ ذلك أن «الرجل يقول إذا استعنته وكانَ

٤١– مجمع الأمثال: (١٠٢٢) ١ / ٢٩٦، المستقصى: (٢٤١) الحاء مع اللام، ولفظهما: جلبت... ثم أقلعت، يضرب لمن يفعل الفعل مرة ثم يسكت.

٤٢– جمهرة الأمثال: ١ / ٣٦٧.

٤٣– المستقصى: ٢ / ٦٦.

٤٤– مجمع الأمثال: (٣٣٣٧) ٣ / ٩٦. المستقصى: (٨١٢) اللام مع الهمزة، الغضن: العناء. والمعنى: لأطيلنَّ عناءك.

٤٥– مجمع الأمثال: (٥١٠) ١ / ١٥٧، المستقصى: (٢٩) الهمزة مع الباء، يضرب في الدعاء على القوم بالاستئصال.

٤٦– مجمع الأمثال: (٢٨٦٢) ٢ / ٤٠١، و(٢١٤٣) ٢ / ١٩٩. المستقصى: (٤٧٩) الصاد مع الراء. يضرب للأمر الواضح.

٤٧ معجم البلدان: (جلذان): ٢٠ / ٥.

٤٨– مجمع الأمثال: (٢٣٨٨) ٢ / ٢٦٧. المستقصى: (٥٣١) العين مع الباء. يضرب في المال يملكه من لا يستأهله.

٤٩– اللسان (خلا).

٥٠– مجمع الأمثال: (٢٣٨٣) ٢ / ٢٦٤. المستقصى: (٥٧٣) العين مع النون. يضرب في معرفة الشيء حقيقةً.

٥١– مجمع الأمثال: (١١٩٤) ١ / ٣٤٤. المستقصى: (٣٠٧) الهمزة مع الحاء، و(٧٩٣) الهمزة مع الشين برواية: أشقى من.

٥٢– البهم: البهيمة: كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء، والبهيمة الصغيرة من أولاد الغنم والضأن والمعز وغيرها.

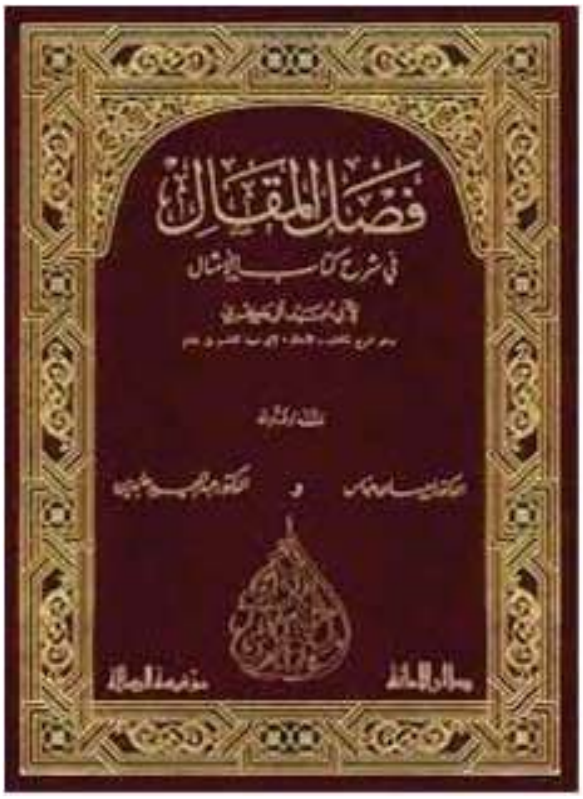

مشغـولًا: أنا في رضـاع بهم ثمانين»[٥٣]، فكل رواية من هذه الروايات لها أصل يوافق لفظها.

وتُظْهِر المقارنة بـين روايات علماء الأمثال وردّ كل روايـة إلَى أصلهـا أو لهجتها أو خبرهـا طبيعة الجهد الـذي بذله الـرواة، لا في جمع تلك الأمثـال في مدونات ضخمة بأخبارها وقصصها وشروحها فحسب، بل في إعادة صياغة العلاقة بين الأمثال والقصص والأخبار المصاحبـة لاختلاف رواياتها، وهو مـا يسمى «منطق الأمثال»[٥٤].

ويبـدو عرض الروايـات المختلفـة للمثـل الواحد هدفًـا في نفسـه عند بعض المؤلفين في الأمثـال العربية القديمـة؛ وذلك حين يكون هدف التأليف إتمام النقص وتصويـب الخطأ، فقد تتبع أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ) الأمثـال التـي ذكرهـا القاسم بن سـلّام (ت ٢٢٤ هـ)، وأورد الروايـات الأخرى لها ممـا لم يلتفت إليه ابـن سلام، في إطار الاستقصاء الذي بنى عليه البكري (فصـل المقال). فذكـر ابن سلام قولـه صلى الله عليه وسلم (**مَثَـلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيـحُ مَرَّةً هَهُنَـا وَمَرَّةً هِهنـا، وَمَثَلُ الكَافِـرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ المُجْذِيَـةِ عَلَى الأَرْضِ حتى يكون انْجِعَافُهَا مَرَّةً**)[٥٥].

فـأورد البكـري الروايـة الأخرى للحديـث، فقال: «لفـظ الحديـث: تميلها الريـح مرة هكذا ومـرة هكذا، ويروى تفيئها...»[٥٦].

واستقصـاء البكـري للروايـات المتعـددة طـال الشواهـد الشعريـة أيضًـا، ولم يقتصر علـى الأمثال فحسـب[٥٧]، مما يدل على أن الإحاطـة بهذه الروايات كان منهجًا التزم البكري اتباعه في كتابه كله.

وقد أورد أمثالًا أخرى بروايات متعددة في مواضع متفرقة من كتابه[٥٨].

ولا بد من الإشارة إلى أن تعدد روايات المثل الواحد تجعـل مهمـة العثور عليـه في كتب الأمثـال غير يسيرة أحيانًا، وعلة ذلك أن الأمثال تتغير ألفاظها من راوٍ إلى آخـر، وقد يكون الاختلاف في بدايـات الأمثال، فيكون البحث عنها في الكتـب التي انتهجت الترتيب الألفبائيّ أمـرًا شاقًا ولا سيمـا إذا كانت الروايـة تتم بالمعنى لا باللفـظ، فيختلف المثل من مصدر لآخر، كما في قولهم: (**جَاوِرِيْنَـا وَاخْبُرِيْنَـا**)[٥٩]، فهـذه روايـة الميـداني، أمـا الزمخشـري فاختـار إثبات رواية أخـرى، فقال: عاشرينـا وأخبرينا. وقـد أورد الميداني المثل (**تَسْـمَعَ**

٥٣- مجمع الأمثال: ١ / ٣٤٤.

٥٤- في بنية الأمثال العربية القديمة ودلالتها: ٦٧.

٥٥- مجمـع الأمثال: (٣٨٣٨) ٣ / ٢٢٤، والحديث في صحيح البخاري (٥٦٤٤) (بـاب مـا جاء في كفارة المرض)، وفي صحيح مسلم في (كتاب المنافقـين) (٥٨، ٥٩، ٦٠). الخامة: الغضة الرطبة من الزرع، تفيئها: تميلهـا، الأرزة: نوع مـن الشجر، المجذية: الثابتـة القائمة، انجعافها: انقلاعها من أصلها.

٥٦- فصل المقال: ٧.

٥٧- ينظر أمثلة لذلك: المصدر نفسه: ١٢٦-٢٧١.

٥٨- ينظر: المصدر نفسه: ٣٨، ٦٠، ١٣٨، ١٥٠، ٢٩٠، ٢٩٦.

٥٩- مجمـع الأمثـال: (٨٤٥) ١ / ٢٢٤، المستقصى: (٥٢٦) العين مع الألف، ولفظه: عاشرينا وأخبرينا. يضرب لصاحب المخبر لا منظر له.

بالمُعيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَـرَاهُ)، في (الباب الثالث فيما أوله تـاء)[٦٠]، ومثله أبو هـلال العسكري الذي جعله في (البـاب الثالـث: فيما جاء من الأمثـال المضروبة في أولـه التـاء)[٦١]، وجعلـه الواحـدي في (البـاب الثالث ممـا أوله حرف التـاء)[٦٢]، في حين أن الزمخشري قد اعتمد الرواية الأخرى في الترتيب الهجائي (أنْ تَسْمَعَ بالمعيـدي خـير من أن تـراه)، فجعل المثـل في (الهمزة مع النون)[٦٣]، فـلا بد للقارئ من أن يكون على دراية بالروايتـين معًـا، حتـى يتمكـن مـن إيجـاد ضالته في الكتاب المطلوب.

ومثل ذلك في قولهم **(في الصَّـيْفِ ضَـيَّعْتِ اللَّبَنَ)**، فقد اعتمد الميـداني هذه الرواية، فجعل المثل في (الباب العشريـن فيمـا أولـه فـاء)[٦٤]، واعتمـد العسكـري الروايـة الأخرى (الصَّيْفَ ضيعـت اللبن)، فجاء المثل عنـده في (البـاب الرابـع عشر في الأمثـال المضروبة في التناهي والمبالغة الواقع في أوائلها الصاد)[٦٥]، وجعله الواحدي في (الباب الأول في ذكر نبذة من أمثال العرب ممـا أوله همزة)[٦٦]، ووضعه الزمخشري في (الهمزة مع اللام)[٦٧]، فقد اختلف مكان المثل من كتاب إلى آخر لاختلاف رواية أوله.

أما إذا كان القارئ محيطًا بالغرض الذي ذهب إليه المثل، فإن استخراجه على أساس الترتيب الموضوعي يكـون أيسر وأنفـع، وتظهر هنا أهميـة الترتيب وفق الموضوعـات الـذي انتهجه القاسم بن سـلام في كتابه (الأمثـال)، فجاء المثل الأول في (بـاب الرجل تكون له نباهـة الذكر ولا منظر عنـده، أو يكون لا قديم له)[٦٨]،

٦٠- مجمع الأمثال: ١ / ١٩٧.
٦١- جمهرة الأمثال: ١ / ٢٦٦.
٦٢- الوسيط في الأمثال: ٨٤.
٦٣- المستقصى: ١ / ٣٧١.
٦٤- مجمع الأمثال: ٢ / ٣٥٨.
٦٥- جمهرة الأمثال: ١ / ٤٧٣.
٦٦- الوسيط في الأمثال: ٤٧.
٦٧- المستقصى: ١ / ٣٢٩.
٦٨- كتاب أمثال أبي عبيد: ٩٧.

وجـاء المثل الثـاني في (بـاب التفريـط في الحاجة وهي ممكنة، ثم تطلب بعد الفوت)[٦٩].

ولمـا كان توثيق قصـة المثل جزءًا مـن توثيق المثل نفسـه اهتـم المصنفـون في الأمثـال العربيـة القديمـة بذكـر الروايات الأخـرى للقصة المثليـة، أو القصص الأخرى للمثل الواحـد إن وجدت، ففي قولهم **(جَزَاءَ سِـنِمَّار)**[٧٠] ثمة قصتان لتفسير هذا المثل ذكرهما كل مـن المفضل الضبي والميـداني والزمخشري، فسنمّار في القصـة الأولى رجـل رومـي بنـى للنعمـان قصـر الخورنـق، وقـد ألقـاه النعمان من أعلـى القصر فخر ميتًـا، وفي الرواية الأخرى للقصة نفسها يظهر سنمار مـن غير نسـب، وقد بنـى لأُحيحة بـن الجُـلاح أطمًا، لكنـه كشف عن سر في البناء يقوّضه من عند آخره هو موضع حجر منه، فدفعه أحيحة من أعلاه فسقط ميتًا. فالفـرق بـين الروايتين هـو فرق في اسـم القصر، وفي اسـم الشخصية القاتلة فحسْب، وهـي لا تؤثر في بناء النّصّ أو المثل الذي أفضى إلى مغزى واحد، هو: جزاء الإحسان بالإساءة أو القتل، لكن منهج المؤلفين القائم على استقصاء الروايات والقصص التي تتصل بالمثل والإشـارة إلى أصلها من غير ترجيـح أيٍّ منها جعلهم يهتمـون بذكـر كل ما يتعلـق بالمثل حتـى وإن اقتصر اختـلاف الروايات علـى أسماء الشخصيـات وعددها فحسب، كما في المثل: **(إِنَّ بَنِيَّ صِـبْيَةٌ صَـيْفِيُّونْ.... أَفْلَـحَ مَـنْ كَانَ له رِبْعِيُّونْ)**[٧١] من قـال ذلك سعد بن مالـك بن ضُبيعة[٧٢]، وذلك أنـه ولد له على كبر السن،

٦٩- المصدر نفسه: ٢٤٧.
٧٠- مجمـع الأمثـال: (٨٢٨) ١ / ٢٤٥، المستقصى: (١٩٥) الجيم مع الزاي.
٧١- مجمـع الأمثـال: (٣١) ١ / ٢٣، المستقصى: (١٧٤٦) الهمزة مع النون يضرب في التندم على ما فات. صيفيون: أولاد الرجل يأتونه على كبر سنه، ربعيون: أولاده في فتاء سنه.
٧٢- وهـو مـن سراة بني بكـر وفرسانهـا المعدوديـن في الجاهلية، له أشعـار جيـاد، قتل في حرب البسوس، وقيل: هو جد طرفـة بن العبد. ينظر: الأعلام: ٣ / ٨٧.

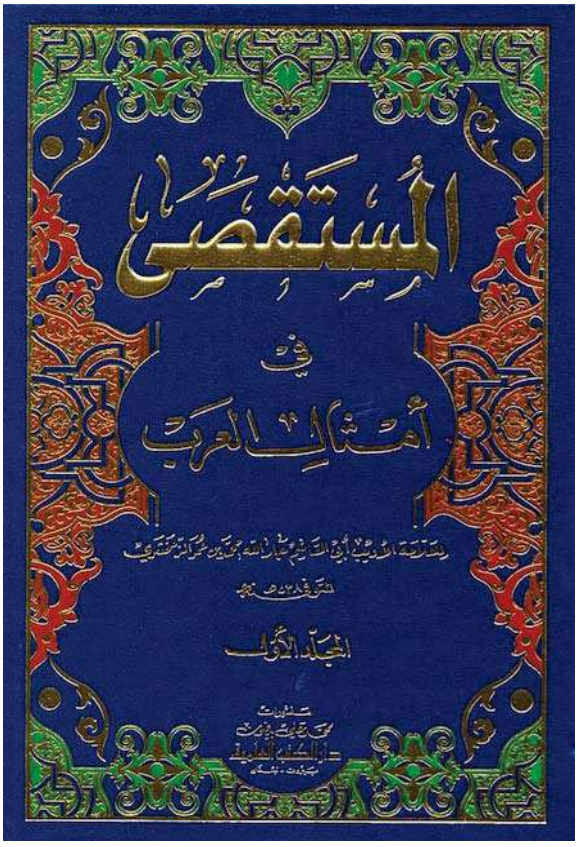

فنظر إلى أولاد أخويه: عمرو وعوف، وهم رجال، فقال ما قال، وفي الرواية الأخرى – كما ذكرها الميداني – أن المثل لمعاوية بن قشير[٧٣] وكان قد غزا اليمن بولده، فقتلوا ونجا وانصرف ولم يبق من أولاده إلا الأصاغر، فبعث أخوه سلمة[٧٤] الخير إلى أولاده، قال لهم: اجلسوا إلى عمكم وحدّثوه ليسلو، فنظر معاوية إليهم وهم كبار وأولاده صغار، فساءه ذلك، وكان عيونًا فردّهم إلى أبيهم مخافة عينه عليهم... فالمثل يسيطر على تفاصيل الروايتين مهما طالت أحداث قصته أو تنوّعت شخصياتها؛ لأن توثيق المثل هو الهدف.

٧٣– المشهور في كتب التراجم هو معاوية بن حيدة بن معاوية بن قشير بن كعب بن ربيعة، وهو الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم وصحبه، وسأله عن أشياء، وروى عنه أحاديث. ينظر: الطبقات الكبرى: ٧ / ٣٥.

٧٤– هو جد جاهلي من عدنان، كان يعرف بسلمة الخير. ينظر: الأعلام: ٣ / ١٣.

إن هذا التعدد في روايات الأمثال وقصصها قد وقع قبل تدوينها، وذلك يعني أن حدوث هذه التغييرات التي أدت إلى تعدد الروايات كان في عصر الاحتجاج، ولذلك فإن كل رواية من روايات الأمثال يمكن الاحتجاج بها، وهذا يزيد في مادة الاحتجاج اللغوي أنواعًا من الصيغ والأساليب.

ثم إن تعدد الروايات ساعد العلماء على الوقوف على لغات العرب المختلفة، ولو أن علماء اللغة ورواة الأمثال قد نسبوا إلى كل قبيلة أمثالها لنشأ مادة عظيمة في معرفة لغات العرب، لكنهم اكتفوا في معظم الأحيان بقولهم: (يروى كذا) و(يقال فيه كذا).

وبذا أمكن القول: إن عناية مصنفي كتب الأمثال العربية القديمة بذكر الروايات المتعددة للمثل الواحد واستقصاء قصة مضربه وخبر قائله الأول= كانت حلقة واحدة من سلسلة متعددة الحلقات، ينظمها عناية العرب بتحقيق تراثهم، ومنه الأمثال العربية القديمة التي بذلوا من أجل تحقيق نصوصها أدواتهم نفسها التي بذلوها في التصنيف في الحديث النبوي الشريف الذي لم يتعهده الله بالحفظ كما تعهد كتابه العزيز، لكنه جعل له من يقومون بهذه المهمة من علماء يحتاطون أشد الحيطة لكل كلمة تنطق بها أفواههم أو يخطها قلمهم؛ فكان ذلك سمة غلبت على مصنفاتهم كلها، وما عنايتهم بالأمثال العربية القديمة إلا شاهد على عقلية جمعية مسؤولة عن الكلمة.

فهرس المصادر والمراجع

– الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة: ٢٠٠٢م.

– الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، عبد

المجيد قطامش، دار الفكر – دمشق، سورية، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

– صحيح مسلم المسمى (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، تأليف: أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ومطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ودار إحياء التراث العربي – بيروت، لبنان (د.ط)، (د.ت).

– فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تأليف: أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: إحسان عباس، وعبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة، ودار الأمانة – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٣٩١هـ–١٩٧١م

– في الأدب الجاهلي، تأليف: طه حسين، دار المعارف – القاهر، مصر، الطبعة العاشرة: ١٣٨٩هـ–١٩٦٩م.

– في بنية الأمثال العربية القديمة ودلالاتها: مساهمة في إنشائية أدب الأمثال، تأليف: الحبيب العوادي، دار دريم للإشهار – تونس، الطبعة الأولى.

– قضية التصحيف والتحريف، تأليف، محمود محمد الطناجي، محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

– كتاب جمهرة الأمثال، تأليف: أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م).

– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.

– لسان العرب، تأليف: جمال الدين بن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ)، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.

– مجمع الأمثال، تأليف أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني (ت٥١٨هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا وبيروت، لبنان، وشركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م.

– مدخل إلى فقه اللغة، تأليف: أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٣.

– المزهر في علوم اللغة، تأليف: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٩٥٨م.

– المستقصى في أمثال العرب، تأليف: محمود بن عمر جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م.

– معجم البلدان، تأليف: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي شهاب الدين (ت٦٢٦هـ)، دار صادر– بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٩٩٥م.

– المقتضب، تأليف: محمد بن يزيد أبي العباس المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٤م.

– الوسيط في الأمثال، تأليف: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: عفيف محمد عبد الرحمن، مؤسسة دار الكتب الثقافة، الكويت، (د.ط): ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م.

شاكر الفحَّام
العالم المُحَقِّقُ الفَذُّ

(١٩٢١ – ٢٠٠٨م)

د. محمّد عطا موعد*

وُلد الأستاذ الفحّام في مدينة حمص عام ١٩٢١م، ونشأ فيها، فقد تلقّى علومه الأولى، فدَرَس التعليم الابتدائي وما تلاه من مراحل في مدارسها التي منحته حبّ العربيّة، فدرج على النّهل من علومها وأدبها؛ فحفظ كثيرًا من شعرها ونثرها، فطبع بها، فغدت تجري ليّنة هيّنة فصيحة على لسانه الذي أقامه موروث لغوي ثرّ استقاه من ينبوع أصيل أمدّه به أشياخ حمص وعلماؤها.

ثم تحوَّل إلى دمشق ليستكمل الدراسة الثانوية فيها، فلما فرغ منها عُين معلمًا في قرية (تسيل) في الجولان سنة ١٩٤١م، ثم أُوفد إلى (جامعة القاهرة)، فنال الإجازة في الآداب العربية سنة ١٩٤٦م، وعاد إلى سورية، ودرَّس العربية في ثانويات دمشق وحمص والحسكة حتى سنة ١٩٥٧م.

وفي هذه السنة نفسها أُوفد ثانيةً إلى القاهرة لاستكمال دراساته العليا، فحصل على الماجستير في الآداب سنة ١٩٦٠م، ثم على الدكتوراه في الآداب سنة ١٩٦٣م.

* أستاذ النَّحْو والصَّرْف في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة دمشق.

وفي جامعة القاهرة جعل يجلّي بين أقرانه، يعاضده على ذلك لسان قويم فصيح، وذاكرة قويّة حافظة زاخرة بعيون الشعر العربي، فكانت تطيق استحضار الشواهد في قاعات الدرّس والبحث، وهو ما قرّبه من أعلام جامعة القاهرة وأعلام مصر في الأدب واللغة، كالدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف، فلمع نجمه وسطع، ولا سيَّما في مجلس الشيخ العلاّمة محمود شاكر، وفيه أُتيح له لقاء مزيد من أعلام العربيّة من مصر وسواها من بلاد العرب ممن كان يتردد على ذلك المجلس، من مثل الشيخ حمد الجاسر، وعلاّمة الشام الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ، والدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور عبد الله الطيب رئيس مجمع اللغة العربيّة في السودان، وسواهم كثير.

ومجلس الشيخ محمود شاكر قاده إلى مكتبة الشيخ وبيته، فلازمه ونَهَلَ من علومه، فصُقلت عربيّته، وعلا كعبه في البحث والتحصيل، ومكّنه هذا من إنجاز رسالته لنيل درجة الماجستير، ثم رسالة الدكتوراه.

ثم قفل راجعًا إلى سورية بعد رحلته العلمية بعد أن حباه بحرها علمًا غزيرًا، وحسبه منه ما اكتسبه من مجلس الشيخ محمود شاكر، ومن ملازمته له، فعاد نجمه يسطع في سماء الشام، فعرفت قدره، فغدا وزيرًا للتربية، فسفيرًا لسورية في الجزائر بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٨، فرئيسًا لجامعة دمشق بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٠، فوزيرًا للتعليم العالي بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٣، فعضوًا في مجلس الشعب، (١٩٧١– ١٩٧٣م)، فوزيرا للتربية للمرة الثانية من العام١٩٧٣ إلى العام ١٩٧٨، فوزيرًا للتعليم العالي مرة أخرى بين عامي ١٩٧٨ و١٩٨٠، فمديرًا عامًا لهيئة الموسوعة العربية بين عامي ١٩٨١–١٩٩٧، فمستشارًا في هيئة الموسوعة الفلسطينية.

ومن الجدير ذكره أنّ الأستاذ الفحّام قد فاز بجائزة الملك فيصل العالميّة للأدب للعام ١٩٨٩م.

الدكتور شاكر الفحّام المجمعي:

انتُخب الدكتور شاكر الفحام عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق في الجلسة المنعقدة بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٠م خلفًا للأمير مصطفى الشهابي، وصدر مرسوم تعيينه في ١٦ شباط ١٩٧١م، وأُقيم حفلُ استقباله في ٥ حزيران ١٩٧٥م.

انتُخب نائبًا لرئيس المجمع في ٣١ كانون الأول ١٩٧٧م، وظلَّ يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٩٣م.

وفي ١ نيسان ١٩٩٣م عُين رئيسًا للمجمع، فكان الرئيس الخامس له، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه الأجل.

شارك في أعمال (لجنة اللغة العربية الأصول)، و(لجنة المخطوطات وإحياء التراث)، و(لجنة المجلة والمطبوعات)، و(لجنة المعجمات اللغوية).

شارك الدكتور شاكر الفحام في أعمال المؤتمر السنوي الأول والثالث والرابع والخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ٢٠٠٢م و ٢٠٠٤م و ٢٠٠٥م و ٢٠٠٦م، وألقى فيها كلمة رئيس المجمع في جلسة الافتتاح وجلسة الاختتام.

الدكتور شاكر الفحّام الأستاذ الجامعي:

كان أستاذًا في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق بين عامي١٩٧٢ و١٩٩١م.

فدرّس ثلّة من أساتذة قسم اللغة العربيّة في كليّة الآداب بجامعة دمشق، وكان له أثرٌ لا يخفى في تأسيس قسم الدراسات العليا في جامعة دمشق، فأشرف على الرعيل الأول ممن انتسب إلى ذلك القسم، وناقش عددًا كبيرًا من رسائل الماجستير والدكتوراه في القسم.

وكان لي الشرف أنْ كنت أحد طلابه الذين منحهم درجة الدكتوراه عام ١٩٩٠م، وواحدًا ممن تلقّى تعليمه الجامعي الأول على يديه، إذ درّسني مقرر الأدب الأندلسي في السنة الثالثة.

وكنتُ أنا ونفر غير قليل من أقراني طلبة السنة الثالثة نحضر دروسه حبًّا في استطراده الذي عُرف

بـه، فكان يجـول بنا–معاشـر الطلبة–مـن حديقة إلى حديقة أبهى وأنـدى، فتُرانا لشدّة إصغائنا وكأنّ على رؤوسنا الطير.

ومن طريف استطراده الذي لا أسلو عنه أنّه شرع في إحـدى محاضرتـه وقد عـلا منه الصـوت على غير عادتـه، وهو يـردد تعبيرًا لم نـدرك بداية مـراده منه، فكان يقول: هذا الذي يكون حرام حرام، حرام عليهم، حرام هذا لا يجوز، هذا لا يجوز.

ثم أنشأ يعرب عمّا هزّ منه الكيان، فشرع يحدّثنا عن بيـوت عربيّة دمشقية أثرية عريقة تُـزال في حيّ شعبي دمشقـيّ، لتوسعـة طريـق تضيق بـه المركبـات، وهذا استحـثّ خاطره، فذكّره بزيارة كانت له في وفد رسمي إلى روما، وكان من برنامج الوفد الذهاب إلى زيارة أثر قـديم، وهو سور قديم، فاستقل الوفد الحافلة، ونزلوا في مـكان لبضـع دقائق، ثم عادوا من حيـث أتوا، وهذا أثار دهشة الأستاذ الفحّـام، فسأل الأستاذ عن السبب في إلغـاء زيارة السور القديم، فقيل له: لقد زرنا السور في المكان الـذي وقفت به الحافلة، فقال لهم: لكني لم أرَ سـورًا، أذكر أننـي رأيت بضعة أحجـار مبعثرة، فقيل له: هذه الأحجار هي ما بقي من السور.

فعلّـق الأستاذ على ذلك بأنّهـم يحتفون بكل شيء، حتـى الأحجـار المبعـثرة، ويقـدّرون الآثـار مهما كان شأنهـا، ثم ما لبـث أن استطرد في الـكلام على الآثار، فقصَّ علينا حكاية الملك الذي بنـى لزوجه بعد وفاتها مسجدًا، فكان تحفة خالـدة وعجيبة من عجائب الدنيا بعـد وفاتهـا، وقد جعـل قبرها فيـه، وجعـل مئذنتين حولـه، ولشدّة خشيته على قبرها أمرَ مهندس المسجد بـأن يجعل المئذنتـين مائلتين، كيلا يعـتري القبر أدنى ضـرر إن حدث زلزال، قصّ علينا كل ذلك ويزيد، غير أنه نسي اسم المسجـد، وحاول أن يتذكّر ذلك، غير أن غضبه وحزنه على البيوت الدمشقية حال دون ذلك.

ولا يخفى أن الأثر النفيس كان مسجد تاج محلّ.

وخـلال الاستراحة بـين المحاضرتـين استئذنته كي ألـج مكتبه، فرحّـب بي، فقلت له: لعلّ الأثـر الذي تقصد هو مسجد تاج محلّ، فما كان منه إلاّ أن صبّ جامّ غضبه علـيّ، ففرغ شحنة الغضب في العبـد الفقير، وقال لي: لقد شاهدتني وأنا أحاول استحضار اسم الأثر، فلمَ لم تفعل؟

أجبتـه: ومـن أنـا كـي أذكّـر عالمًـا جليلًا مـن مثل أستاذنـا الكبير، فقـال لي بعد أن هـدأت نفسه: يا بُني العلم ليس فيه كبير وصغير.

وهـذا الحـدث عمّـق الصحبـة بيني وبينـه، فجعل يحثنـي ويشجعني علـى متابعة الدراسـات العليا، ولا أنسـى ما ارتسم على وجهه مـن ملامح الحبور عندما أنبأتـه بـأني قـد قبلـت معيـدًا في قسـم اللغـة العربيّة بجامعة دمشق، ولا أنسى أيضًا كلمات التشجيع التي صـدرت عن قلب نقيّ محـبّ لطلبة العلم، وحسبه منها تلك المفاخرة بطلبته؛ فهم في رأيه امتداد له.

منهجه في النقد والتتبع:

كان الأستـاذ الفحّـام مولعًـا بالتنقير، يقـوده إليه شهـوة عجيبـة غريبـة في التتبـع، تُبـدي علمًـا جمًّـا، ومخزونًـا هائـلًا مـن علـوم اللغـة والأدب والثقافـة المتنوعـة الضروب العميقة الجـذور والأصول، وليس أدلّ علـى ذلك مـن هذه الروضة الناضـرة التي تتبدّى فيمـا خطّه من تعليق على تحقيـق العلّامة ابن عاشور لديـوان بشار بن برد، وهـذا أنموذج من تتبع الأستاذ الفحّام له، على أني أعتذر سلفًا للقارئ الكريم على هذه الاستطالـة في هـذا النص، وآثرت هذا كـي أبدي تنوّع علوم الأستاذ الفحّام – رحمه الله – وغزارتها.

ساق الأستاذ الفحّام في نظراته في ديوان بشار ما نصّه[1]:

«يتحدّث الأستاذ المحقق (١: ٥ / ١٠–١١) عن بُرد والد بشـار، فيقول: «وكان بشار مـولى لبني عقيل بن كعـب... وقـع أبوه بـرد في الفيء في سبـي المهلب، من أعجـام ما وراء النهر في حدود سنة ٨٠ هـ، وأصله من طخرستـان، فصار عبدًا لخـيرة القشيرية زوج المهلب بن أبي صفرة...».

١– انظر: نظرات في ديوان بشّار بن بُرد ص٣٥–٣٨.

–والـذي قرأناه في كتاب الأغـاني(٣: ١٣٥، ١٣٦) أن يرجوخ جدّ بشار من طخارستان، من سبي المهلب بن أبي صفـرة، وأنّ بُـردًا أبا بشار كان من قِـنّ خيرة القشيرية امـرأة المهلب بن أبي صفـرة، وكان مقيمًا لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة بـ «خيرتان» مع عبيد لها وإماء.

وقـد أورد اللغويـون في تفسـير العبد القـنّ أقوالاً متقاربـة المعاني والدلالـة. قال ابن سيـده: العبد القنُّ الـذي مُلِـك هـو وأبواه. وقـال اللِّحيـاني: العبـد القنُّ الـذي وُلِد عنـدك، ولا يستطيـع أن يخرج عنـك. وقال الأصمعـيُّ: القنّ الـذي كان أبوه مملـوكًا لمواليه، فإذا لم يكـن كذلك فهو عبد مملكة (لسان العرب–قنن، تلد، عبـد، ولـد، ملك، أساس البلاغة–قنن، ملـك، مقاييس اللغة لابن فارس٥: ٤).

ونستخلص من هذه الأقـوال أن يرجوخ جدّ بشار كان مـن سبي المهلب، جـيء به من طخارستـان، وأنّ بردًا أبـا بشار وُلد على الرّق، ونشـأ في العبودية عبدًا قنًّا في ملك خيرة القشيرية امرأة المهلب. ومن هنا جاز للأصمعـي أن يقول في شتمه بشار بن برد: «ويلي على هذا العبد القنّ ابن القنّ» الأغاني ٣: ٢٠١).

وقد أكّد الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ٧: ١١٢) والعباسـي (معاهد التنصيص ١: ٢٨٩) وغيرهم من مترجمـي بشار، روايـة الأغاني أن يرجـوخ جد بشار سباه المهلب بن أبي صفرة من طخارستان.

بقي أن الشـارح الفاضل قد ذكر أن بردًا أبا بشار (والصـواب يرجـوخ جدّ بشـار كما أسلفنـا) قد وقع في الفـيء في سبـي المهلب في حدود سنـة ٨٠هـ، دون أن يستنـد إلى مرجـع يوثّـق ما ذهـب إليـه في تحديد زمن السِّبـاء، ودون أن يستخلـص ذلك من مقدّمات موجبة له لا تقبل الشكّ.

ولم أجد أحدًا من المؤرخين الذين طالعتُ أسفارهم ذكـر أن المهلب بن أبي صفرة قد هزم أهل طخارستان في هـذا التاريخ وسباهم. وموجز ما ذكروه أن عبد الله بـن عامـر وقوّاده وعلـى رأسهم الأحنف بـن قيس قد فتحـوا مرو الروذ والطالقـان والفارياب والجوزجان وطخارستـان سنة ٣٢هـ، ثـم انتفض أهـل خراسان، ولم تـزل خراسان ملتاثة حتـى قتل عليّ بن أبي طالب رضـوان الله عليـه... ولمـا ولي زيـاد بـن أبـي سفيان البصـرة استعمل الحكم بن عمرو الغفاري (ت ٥٠هـ) علـى خراسـان، فغـزا الحكـم طخارستـان في حـدود سنـة ٤٦هـ، وكان المهلب بـن أبي صفرة مـع الحكم، وهـو الـذي استطاع بحنكتـه ودرايتـه أن ينقذ الحَكَم والجيش، ويتغلب على العدو في غزوة جبل الأشل سنة ٥٠هـ، وتـولّى الربيع بن زياد الحارثـي خراسان أوّل سنـة ٥١هـ، فمهّد البلاد، وقضى على العصاة. ثم ولّى معاوية بن أبـي سفيان سعيدَ بن عثمان خراسان سنة ٥٦هـ، فقطع النهر إلى سمرقنـد، وكان معه المهلب بن أبي صفرة يعاونه في حربه.

كذلـك فقد كان المهلـب مع سلم بن زيـاد حين ولّاه يزيـد بـن معاويـة خراسـان وسجستان سنـة ٦١ هـ، وغـزا المهلـب في تلـك السنـة غـزوة مظفّـرة ممـا يلي خارزم، وعاد بغنائم كثيرة.

ولّما خرج سلم بن زياد عن خراسان بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ خلف عليها أوّل الأمر المهلب... ثم تولّى المهلـب سنة ٦٥هـ حرب الأزارقة «فلم يقاتلهم إنسان قطّ كان أشدّ عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه».

وشُغـل المهلـب بمحاربتهـم ومتابعتهـم حتى فرغ منهم سنة ٧٨ هـ، فولّاه الحجّاج خراسان، وغزا المهلب غزوات فيما وراء النهر، ونزل على كش. ومات المهلب سنة ٨٢ هـ أو سنة ٨٣ هـ وهو والٍ على خراسان.

إن الوقائـع التي سردناها في هـذا العرض الموجز لا تتيـح للدارس أن يحدد سنة سبي يرجوخ جدّ بشار، دون مرجـع يئل إليه يستعينـه في تحديد زمن مثل هذا السباء. ولعل الأقرب للواقع التاريخي أن يكون سباء يرجـوخ قـد وقع قبل هـذا الزمن (٨٠ هـ) في فتح من تلك الفتوح الكثيرة التـي شارك فيها المهلب، وكتب له

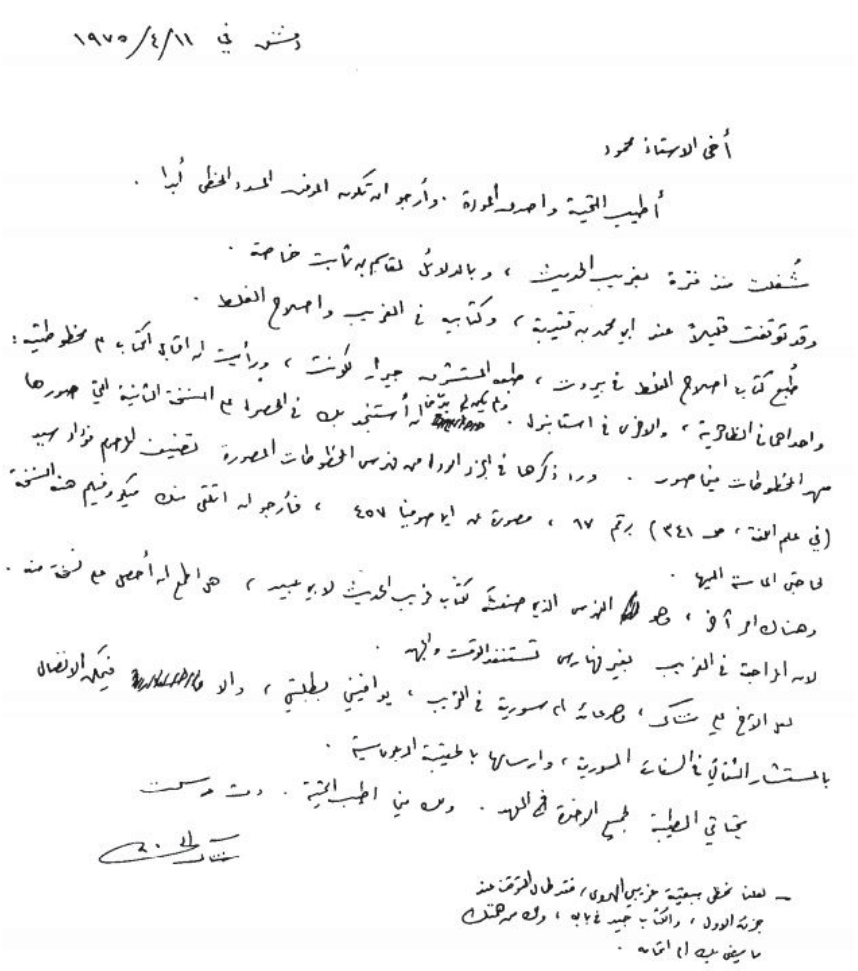

فيها النصر والظفر على ما بيّنا، فوُلد ليرجوخ وهو في الرّقّ ابنه برد الذي نشأ رقيقًا في ملك خيرة القشيرية، وزوّجت خيرةُ بُردًا، فولد له بشار في حدود سنة ٩٦ هـ على ما ذهب إليه الأستاذ الطّاهر».

والناظر في تتبع الأستاذ الفحّام للأستاذ ابن عاشور يجد عجبًا، فقد لفت نظر الأستاذ الفحّام إلى تاريخ السبي الذي ساقه المحقِّق، وجعله في حدود سنة ٨٠ هـ.

وما كان له أن يقف عند هذا التأريخ لولا واسع إحاطته بالحدث التاريخي، فالحدث التاريخي حاضر في ذهنه؛ فإن زاحمه حدث آخر يتضارب معه ألفيت الذاكرة الوقّادة تفزع إلى مشاهد التأريخ تربط الأحداث بعضها ببعضٍ؛ فإن استقام الأمر فبها ونعمت؛ وإلاّ فهو التنقير والتتبع.

وعليه فالسنة التي زعم الأستاذ ابن عاشور أنّ جدّ بشار قد سبي فيها أثارت انتباه الأستاذ، فتتبع هذا الحدث، مستعرضًا الأحداث المتصلة به حتى انتهى إلى نفي هذا التاريخ، مؤكدًا بالبرهان والدليل أن جدّ بشار قد وقع في السّبي قبل ذلك التأريخ.

وهو يبدي مدى عناية الأستاذ الفحّام بالتأريخ، فعالم الأدب إن لم يكن له عناية في درس التأريخ وتتبع أحداثه أوقعه هذا في مشكلات من مثل ما وقع به الأستاذ الفاضل ابن عاشور.

وهذا النهم للتأريخ يلمسه كلّ من سمع الأستاذ الفحّام، فكثيرًا ما كان يقف في مناقشته العلمية لرسائل الماجستير والدكتوراه- وقد كنت حريصًا على حضورها-على تراجم الرجال، فتراه يتتبع هذه التراجم على نحو دقيق في مظانها، فينقلك من مصدر إلى مصدر، ومن قول إلى آخر، ومن حدث تاريخي إلى حدث آخر، ومن خبر إلى خبر آخر؛ كي يثبت بالدليل القاطع أن ترجمة الطالب المُناقَش للعلم الفلاني فيها وَهْم أو خلط أو خطأ في تحديد تاريخ حادثة ما، وهذا المنهج في التقصي جعله يكشف اللبس عن عَلَمٍ ما وهم الطالب في ترجمته، فترجم علمًا آخر سواه.

ونهمه هذا في تتبع الرجال كان يجعله في كثير من الأحيان يستطرد استطرادًا يأخذ بمجامعك، أذكر مرّة أنّه أحال الطالب على لفظ في معجم تكملة المعاجم

العربية لرينهارت بيتر آن دُوزِي (ت١٣٠٠هـ) فما كان منه إلاّ أن أفاض من مُلح مَعارفه عن (دُوزي) حتى خِلتُ أنّه قد جالسه وعاشره.

آثاره:

أولًا: الكتب المؤلفة والمحققة:

-الفرزدق، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٧م.

-كتاب اللامات لابن فارس (تحقيق)، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٣م.

-الدلائل في غريب الحديث للسرقسطي (دراسة)، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٦م.

-مختارات من شعر الأندلس، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٩م.

-نظرات في ديوان بشار بن برد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٣م.

-الأستاذ عبد الهادي هاشم فقيد المجمع، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٨م.

ثانيًا: البحوث والمقالات

نشر الدكتور شاكر الفحام عددًا كبيرًا من البحوث والمقالات في (مجلة مجمع اللغة العربية) القاهرة، و(مجلة معهد المخطوطات العربية) الكويت، و(مجلة المجمع العلمي الهندي)، و(مجلة المعلم العربي) دمشق، و(مجلة المعرفة) دمشق، و(مجلة دراسات تاريخية) دمشق، و(مجلة صوت المعلمين) دمشق، و(مجلة الأسبوع الأدبي) دمشق، و(مجلة العرب) السعودية، و(مجلة العربي) الكويت، و(مجلة الثقافة) سورية، و(مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية) دبي، و(المجلة العربية للثقافة)، و(مجلة الرصد الثقافي) بيروت، و(مجلة المجلة) القاهرة، و(مجلة الفيصل) الرياض، و(مجلة التراث العربي)، و(مجلة الثقافة- مدحت عكاش)، و(مجلة العرب) إضافة إلى ما نشره في (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق).

- نشر في (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) ١٣٠ مقالًا، وذلك في المدة (١٩٧٣ - ٢٠٠٦م). ومما تضمنته هذه المقالات:

التعريف بالكتب: (كتاب اللامات)، و(كتاب الدلائل في غريب الحديث - ٥ مقالات)، و(وقفة مع ديوان بشار بن برد - ٥ مقالات)، (بشار بن برد)، و(شعر منصور النمري)، و(ديوان ابن الرومي).

الكلمات: في افتتاح الندوات (٩ جلسات)، واختتامها (٧ جلسات)، وحفلات الاستقبال (٢٠ حفلًا)، وحفلات التأبين (١٠ حفلات).

التراجم: (عبد العزيز الميمني الراجكوتي)، و(فقيد المجمع: الأستاذ علي الفقيه حسن)، (فقيد المجمع: الأستاذ الدكتور حسني سبح)، و(فقيد المجمع: الأستاذ الدكتور محمد كامل عياد)، و(الأستاذ أحمد عبيد الأنصاري الخزرجي)، و(حُميد بن ثور)، و(أبو الفتح البستي)، و(الوهراني)، و(الشيخ طاهر الجزائري السمعوني)، و(فقيد المجمع: الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى)، و(فقيد المجمع: الأستاذ الدكتور مسعود بوبو)، و(أبو عليّ الفارسيّ)، و(أبو منصور الثّعالبيّ).

التعقيبات والملاحظات: (تعقيب على ترجمة المتنبي)، (جملة ملاحظ تتناول نص ديوان بشار للأستاذ عامر غديرة)، و(تعليق وجيز على مقالة مطاع الطرابيشي)، و(تعقيب موجز على تبّت)، و(أطلس العالم وتشويه الأسماء) و(من سهو العلماء)، و(من أوهام المحققين في العروض).

البحوث: (حديث الشعبي في صفة الغيث)، و(ديوان أبي الفتح البستي)، و(قضية المصطلح العلمي في نطاق تعريب التعليم العالي)، و(الكويكبات)، و(المختار من شعر بشار).

توفي الدكتور شاكر الفحام يوم السبت في ٢٤

جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ الموافق ٢٨ حزيران ٢٠٠٨م. وسُمّيت باسمه إحدى المدارس في (حي الغوطة) في مدينة حمص تكريمًا له وتقديرًا لما قدَّمه للوطن من خدمات جليلة في مجالات العلم والمعرفة، ولما خلَّفه من آثار قيمة.

من مصادر ترجمته:

-أدباء مختارون: سير ودراسات، عيسى فتوح، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م.

-إضبارة الدكتور شاكر الفحام المحفوظة في مجمع اللغة العربية بدمشق.

-البروفسور شاكر محمد كامل الفحام، موقع جائزة الملك فيصل.

-حفلة تأبين الدكتور شاكر الفحام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٨٣، ج٤، ٢٠٠٨م.

-حفلة تأبين الدكتور شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٠٠٩م.

-الدكتور شاكر الفحام، موقع مجمع اللغة العربية بدمشق.

-رحيل قمر اللغة العربية د. شاكر الفحام، محمد أحمد طيارة، موقع جريدة الرياض، العدد ١٤٦١٦، ٣٠ يونيو ٢٠٠٨م.

-شاكر الفحام: المجمع خير من الوزارة، عبد الغني العطري في كتابه (عبقريات)، دار البشائر، ١٩٩٧م.

-شاكر الفحام، مجلة العربي، فبراير، ١٩٩٤م.

-شاكر الفحام، موقع أرشيف المجلات الأدبية والثقافية العربية.

-شاكر الفحام، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

-العلامة الدكتور شاكر الفحام في ذمة الله، محمد حسان الطيان، موقع شبكة الألوكة الثقافية، ٢٠٠٨م.

-القطوف الدانية(يضمُّ مجمل آثار العلّامة الدكتور شاكر الفحّام) رئيس مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق، جَمَعَها وصَنَّفَها محمود الأرناؤوط، في خمسة أجزاء:

الجزء الأوَّل: المقدّمات والكلمات.

الجزء الثّاني: المقالات وسِيَر الأعلام.

الجزء الثالث: التعريف بالكتب.

الجزء الرَّابع: البحوث.

الجزء الخامس: النُّصوص المحقَّقة.

وصدرتْ عن الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م.

كلمة شاكر الفحام في حفل استقباله، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٥٠، ج٤، ١٩٧٥م.

كلمة عبد الهادي هاشم في حفل استقبال شاكر الفحام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٥٠، ج٤، ١٩٧٥م.

كلمة ممدوح خسارة في حفل استقباله يتحدث فيها عن سلفه شاكر الفحام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٨٤، ج٢، ٢٠٠٩م.

المجمعيون في خمسة وسبعين عامًا، مهدي علام وحسن عبد العزيز، مجمع اللغة العربية في القاهرة، ٢٠٠٧م.

معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سلمان جاسم الجبوري، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين (ج٣)، سليمان سليم البواب، مؤسسة المنارة، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

وينظر أيضًا موقع مجمع اللغة العربية بدمشق على الشابكة، الرابط: http://www.arabacademy.gov.sy/ar/page16216/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1-

مِن التَّصحيف والتَّحريف

محمَّد قاسم

كانوا يمتدحون مَنْ يُثاقفُ العلماء، ويتلقَّف العلم مِن أفواههم؛ قال قائلُهم:

مَنْ يَأْخُذِ العِلْمَ عن شَيْخٍ مُشَافَهَةً ... يكنْ عن الزَّيْفِ والتَّصحيفِ في حَرَمِ

ومَنْ يكنْ آخذًا للعِلْمِ عن صُحُفٍ ... فعِلْمُهُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ كالعَدَمِ

ويَذُمُّوْنَ مَنْ يأخذ العلم مِن الصُّحف التي هي مَظِنَّةُ التَّصحيف، وإذا نقدوا مَنْ هذه صفتُهُ قالوا: صُحُفِيٌّ، قدحًا فيه وغَمْزًا في قناته واتّهامًا لما حصَّل.

ومَنْ لُزَّ في مضايق تحقيق النُّصوص يعلم ما يكابدُه المحقّق في إصلاح اللّفظ المُزَال عن وَجْهِه، وردِّه إلى الوجه الذي يُشْرِقُ به المعنى، ويستقيم به السِّياق، وقد قيّد أبو عثمان عمرو بن بحر اللّيثيّ الكنانيّ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هذه المِحنة، ووصفها أبلغ وصف في كتابه الجهير «الحيوان» ١ / ٧٩؛ قال:

«ولربَّما أراد مُؤَلِّفُ الكتاب أَنْ يُصْلِحَ تصحيفًا أَوْ كَلِمَةً ساقطةً، فيكون إنشاء عشر ورقاتٍ من حُرِّ اللَّفظ وشريف المعاني أَيْسَرَ عليه مِنْ إتمام ذلك النَّقْصِ حتَّى يَرُدَّهُ إلى موضعه مِن اتِّصال الكلام»اهـ

وفيما يأتي أمثلةٌ مِن التَّصحيف في كتاب «الإعجاز والإيجاز» لأبي منصور عبد الملك ابن محمّد بن إسماعيل الثَّعالبيِّ النّيسابوريّ (ت ٤٢٩ هـ) كنتُ قد قيّدتُها على هامش نسختي منه إبَّانَ قراءتي فيه:

- الإعجاز والإيجاز ٢٥٩:

قوله – المتنبِّي –:

يُجَشِّمُكَ الزَّمانُ هوًى وحُبًّا ... وقد يُؤْذَى مِن المِقَةِ الحَبِيْبُ

وكيف تُعِلُّكَ الدُّنيا بشَيْءٍ ... وأنتَ بعِلَّةِ الدُّنيا طبيبُ

وجِسْمُكَ فوقَ هِمَّةِ كُلِّ داءٍ ... فقُرْبُ أقلِّها مِنْهُ عجيبُ

يُجَشِّمُكَ كذا تصحيف، صوابه: يُجَمِّشُكَ، والتَّجْمِيْشُ: شبه المغازلة، وهو الملاعبة بين الحبيبَيْنِ. الفَسْر ٢ / ٢٥٤، وديوان المتنبِّي بشرح الواحديّ ٢ / ٥٢٣.

يقول: الذي أصابك تجميشٌ من الزَّمان حُبًّا لك؛ لأنَّك جمالُهُ وأَشْرَفُ أهله، وإنْ تَأَذَّيْتَ به فقد يكون من الأذى ما يكون مِقَةً من المُؤْذي. عن الواحديِّ.

- الإعجاز والإيجاز ٢٦٢:

أبو القاسم الزّاهي:

سَفَرْنَ بُدُوْرًا وانتقبْنَ أَهِلَّةً ... ومِسْنَ غُصُوْنًا والْتَفَتْنَ جآذرا

وأَطْلَعْنَ في الأَجْيَادِ بالدُّرِّ أَنْجُمًا ... جُعِلْنَ لحَبَّاتِ الثُّغُورِ ضَرَائرا

لحَبَّات الثُّغور كذا، ولعلَّه لَحبَّات النُّحُور.

والنُّحُور: الصُّدور، أو النَّحْرُ موضع القلادة من الصَّدر.

ولا يبعد أَنْ يكون: لحَبَّات القلوب. (الدّرّ الفريد ٨ / ١٢).

وحبّة القلب: ثمرتُه وسُوَيْدَاؤه، وهي هَنَةٌ سوداءُ فيه؛ وقيل: هي زَنَمَةٌ في جَوْفه. أو هي العَلَقَةُ السَّوْدَاءُ التي تكون داخل القلب، وهي حَمَاطَةُ القلب أَيْضًا. يقال: أصابت فلانةُ حَبَّةَ قَلْبِ فلانٍ إذا شَغَفَ قَلْبَهُ حُبُّها. والحَبَّةُ: وَسَطُ القَلْبِ.

- الإعجاز والإيجاز ٢٨٥:

عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى المُنَجِّمُ:

بيني وبينَ الدَّهْرِ فيكَ عِتَابُ ... سيطولُ إنْ لَمْ يَمْحُهُ الإعتابُ

يا غائبًا بمرارةٍ وكآبةٍ ... هل يُرْتَجَى من غَيْبَتَيْك إيابُ؟

لولا التَّعَلُّلُ بالرَّجاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسٌ عليكَ شعارُها الأَوْصَابُ

يا غائبًا بمرارةٍ وكآبة كذا، ولعلَّ صوابه: بمَزَارِه وكِتَابِه.

- الإعجاز والإيجاز ٢٩٥:

أبو الحسن الجَوْهَريُّ:

يا لَيْلَةً غَمُضَتْ عنّي كواكبُها ... ترفّقي بجُفُوْنٍ غُمْضُها رَمَدُ

بكيتُ بَعْدَ دموعي في الهوى جَلَدي ... وهل سمعتِ بباكٍ دَمْعُهُ جَلَدُ؟

غَمُضَتْ عنّي كذا، ولعلّ الوجه: غَمَّضَتْ عَيْني كواكبُها.

- الإعجاز والإيجاز ٣٠٣:

أبو النَّصْرِ محمَّد بن عبد الجَبَّار العُتْبيُّ:

لمّا سُئِلْتُ عن المشيبِ أجبتُهُمْ ... قولَ امرئٍ في الوُدِّ منه مُحَقِّقِ:

طَحَنَ الأَمَانُ برَيْبِه وصُرُوْفِه ... عُمري، فثَارَ طحينُهُ في مَفْرِقي

طَحَنَ الأَمَانُ كذا، ولَعَلَّ الصَّواب: طَحَنَ الزَّمَانُ برَيْبِه وصُرُوفِه.